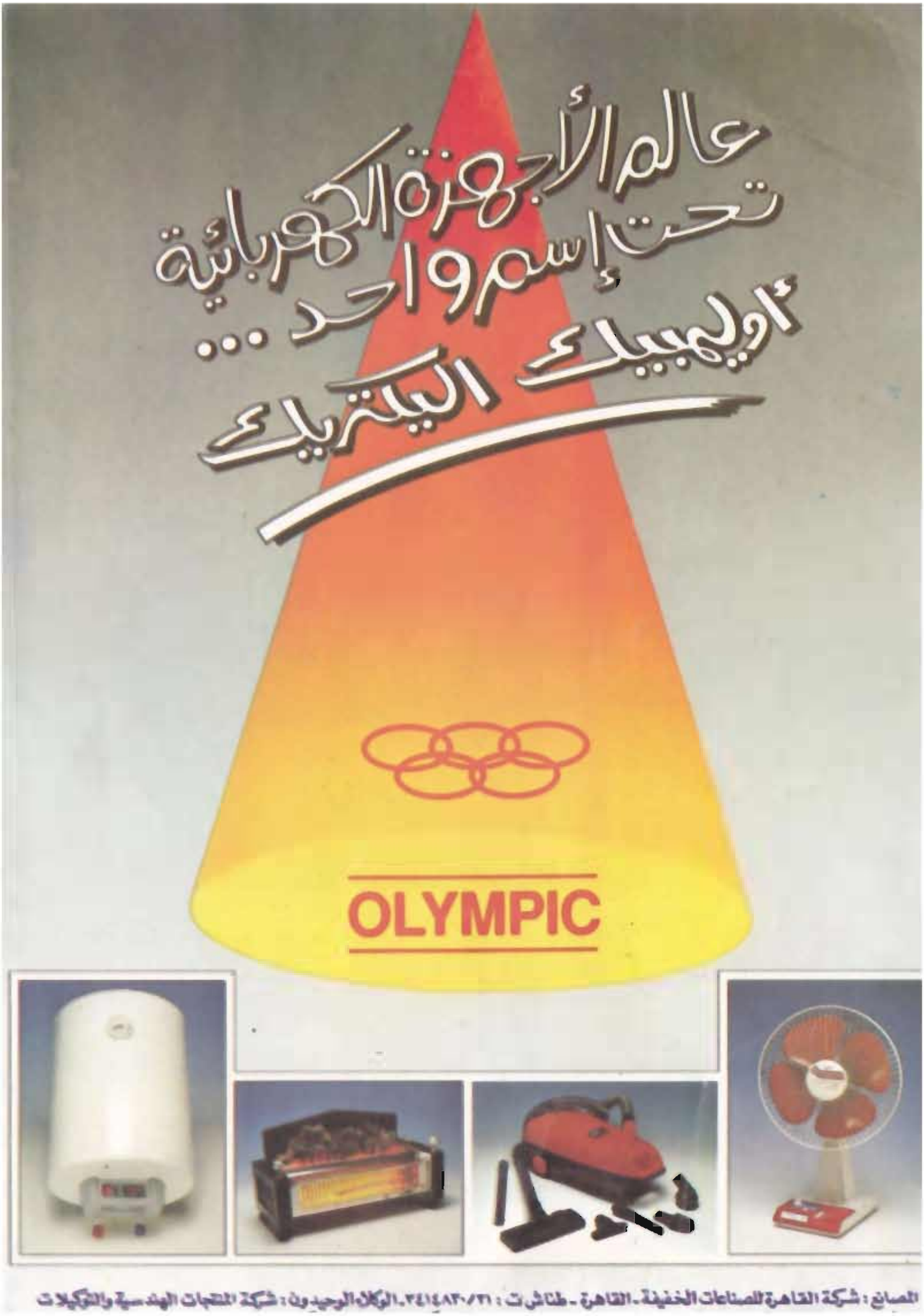
روايات الهلال

الناب الأبيض

جاك لندن




عالم الأجهزة الكهربائية
تحت إسم واحد ...
أوليمبيك اليكتريك
OLYMPIC
الصانع : شركة القاهرة للصناعات الخفيفة - القاهرة - طناش ت : ٣١/٨٣٠٤١٤١٣٤١ - الوكلاء الوحيدون : شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩٦ إبريل ١٩٩٠
رمضان ١٤١٠ هـ

No . 496 AP 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

● الاشـــتراكـــات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

اسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش : -

لبنان ٧٠٠ ليرة - الاردن ٦٠٠ فلس - الكويت ٥٠٠ فلس - العراق ٢ دينار - السعودية ٧ ريالات - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريالات - دبى ٨ دراهم - ابو ظبى ٨ دراهم - مسقط ٨٠٠ بيسه - المغرب ٢٠ درهما - غزة والضفة ١,٢٥ دولار - لندن ١,٥ جك - عدن ٢ دولار ..

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص . ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــــة حـسنيــن

الناب الأبيض

تأليف

چاك لندن

ترجمة

عبدالمنعم صادق

●

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

WHITE FANG

تأليف : JACK LONDON

الجزء الأول

الفصل الأول
طريق اللحم

بدت أشجار التنوب الفضى على جانبى القنـــاة المتجمدة عابســة بعد أن جردتها الريح التى هبت أخيرا من غطائها الثــلجى الابيض ، وأخذ بعضها يميل نحو البعض الآخر فبدت فى الضوء الباهت سوداء منذرة بالشر • وخيم على المنطقة كلها صـــمت مترامى الاطراف • أما الارض نفسها فكانت موحشة خالية من أية حياة أو حركة وســـادتها روح العزلة واشتدت برودتها ولم تكن توحى حتى بالحزن بل كانت فيها لمحة من الضحك ولكنه ضحك أشد من الحــزن • ضـــحك خال من السرور شأنه فى ذلك شأن ابتسامة أبى الهــول ، ضـــحك بارد كالجليد يسهم بنصيبه فى عبوسة الحكيم المنزه عن الخطـأ • انهـــا حكمة الازل البارعة التى لا تبين عن نفسها وهى تضـــحك من عبث الحيـــاة ومن جهودها • كل ذلك فى برارى أرض الشـــمال البرية المتوحشة ذات القلب المتجمد •

ولكن كانت فى تلك المنطقة حياة • وهى حياة تتصف بالتحدى • فعلى الطريق المائى المتجمد كانت جماعة من الكلاب الذئبية تكدح فى جر زحافة وقد غطى الجليد فراءها الخشن ، وكانت أنفاســـها حالما تخرج من أفواهها تتجمد فى الهواء وتصبح زبدا من البخار يستقر على شعرها فى شكل بلورات من الجليد • وكانت عدتها التى تقيـــدها بالزحافة من الجلد • ولم يكن على الزحافة سائق يسوق تلك الكلاب• والزحافة مصنوعة من خشب النامول الصلب وقد استقر قاعها كله على سطح الجليد أما مقدمتها فقد ثنيت الى فوق حتى لا تحدث فى الجليـــد أو تثيره فيهب أمامها كالموج • وعلى الزحافة صـــندوق ضيق طويل ثبت بالزحافة وبجواره أشياء أخرى منها الاغطية وبلطة وأبريق قهوة ومقلاة وكان الصندوق أبرز هذه الاشياء اذ شغل معظم الفـــراغ على الزحافة •

وكان رجل يمشى أمام الكلاب قدماه فى حـــذاء خاص بالمشى على

الجليد . وكان رجل آخر يمشي وراء الزحافة . وفي داخل الصندوق الذى على الزحافه الرجل الثالث الذى انتهت رسالته فى الحيـاة بعد أن هزمته البرارى وقهرته وافقدته القدرة على الحركة أو الكفاح لان البرارى لا تحب الحركة وترى فى الحياة اساءة لها لان الحياة حـركة وهدف البرارى دائما هو القضاء على الحركة . أنها تجمد الماء لتمنعه من الجريان الى البحر وتمتص من الاشجار عصيرها حتى تتجمد ويصيب التجمد لبها . وأشد ما تكون البرارى وحشية وفظاعه مع الانســان فهى تزعجه وتلجئه الى الخضوع لها لان الانسان أشد أنواع الحيـاة حيوية وهو المتمرد دائما على الرأى القـائل بأنه لابد لكل حركة من التوقف فى النهاية .

وظل الرجلان اللذان لم يموتا بعد ولم يسر اليهما خوف ولم يقهرا بعد ساترين ، ان أحدهما أمام الزحافة والاخر وراءها وقـد غطيـا جسديهما بالفراء والجلد المدبوغ الناعم أما أهداب أعينهما وشفاههما فهى مغطاة بالبلورات التى كونتها أنفاسهما بعد خروجها من فميهما بحيث لم يعد ممكنا تمييز وجهيهما اللذين اكتسـيا بقناعين مخيفين وكأنهما من ناقلى الموتى فى عالم الاشباح يمشيان فى جنازة شبح آخر أما هما تحت القناعين فرجلان يخترقان أرض الوحشـة والسـخرية والصمت ومغامران ضئيلان ماضيان فى مغامرةهائلة يجندان نفسيهما ضد قوة عالم ناء غريب جامد بلا نبض وكأنه هوة فضاء .

ومضيا فى طريقهما دون كلام يوفران بالصـمت أنفاسـهما لما يتطلبه جسداهما من جهد . وأحاط الصمت بهما من كل جانب يفرض عليهما وجوده بصورة واضحة مما أثر فى عقليهما تأثير الاجواء العديدة التى تنتاب الماء العميق الغور فى جسد الغطاس وضـغطهما بثقـل الاتساع الذى لا آخر له والقانون الذى لا معقب لحكمه . ضـغطهما داخل عمق تجاويف عقليهما ثم اعتصر العقلين وجردهما من أى حماس أو تجميـد زائف وتقييم ذاتى للنفس البشرية بلا مبرر كمـا يعتصر الخمار العنب حتى أدركا انهما محدودان وصغيران بل بقعتان وذرتان تتحركان بالحيلة الضعيفة والحكمة الضئيلة وسـط مظـاهر حركة العناصر والقوى العمياء الجبارة .

ومرت ساعة وأخرى . وأخذ الضوء الشاحب ـ الذى كان سائدا فى يوم قصير لم تظهر له شمس ـ فى الذبول عندما شقت حجـاب الصمت والهواء الساكن صيحة واهنة آتية من بعيد . وارتفعت علوا

فى دفعة سريعة حتى بلغت ذروتها ، وهنا استمرت مختلجة متوترة ثم انتهت فى بطء · ربما كانت عويل نفس ضائعة لولا ما تضمنته من وحشية حزينة ولهفة جوع · وأدار الرجل الامامى رأسه حتى التقيت عيناه بعينى الرجل الذى يمشى وراء الزحافة · وتبادلا الايماءة بالرأس فوق الصندوق الضيق المستطيل ·

وارتفعت صيحة ثانية وشقت حجاب الصمت فى حدة سن الابرة وعرف كلا الرجلين مكان الصوت · جاء الصوت من ورائهما من مكان ما فى البيداء الجليدية التى قطعاها منذ قليل · ثم ارتفعت صيحة ثالثة ترد على الصيحتين السابقتين وكانت هى الاخرى آتية من ورائهما ولكن من مكان يقع الى يسار مكان الصيحة الثانية ·

وقال الرجل الامامى :

« انها تطاردنا يا بيل · »

وبدا صوته أجش وغير حقيقى ودالا على أنه تكلف جهدا واضحا فى الكلام ·

ورد رفيقه قائلا :

« اللحم نادر فلم أر أرنب منذ أيام · »

ولم يتكلما بعد ذلك وبقيت أذانهما مرهفة تترقب صيحات المطاردة التى استمرت وراءهما ·

وعندما خيم الظلام ادخلا الكلاب وسط مجموعة من اشجار التنوب الفضى على حافة الممر المائى حيث أقاما لهما مخيما · واتخذا من صندوق الرجل الميت مقعدا ومنضدة بجوار النار التى أوقداها · وتجمعت الكلاب الذئبية عند الطرف البعيد من النار واخذت تزمجر ويشاغب بعضها البعض الاخر ولكن لم يبد على أى واحد منها أى ميل للابتعاد فى جوف الظلام ·

وقال بيل :

« يبدو لى يا هنرى أنها باقية على كثب من مخيمنا · »

وأومأ هنرى برأسه علامة الايجاب وهو جالس القرفصاء بجوار النار يسند ابريق القهوة بقطعة من الجليد ولم يتكلم حتى عاد الى جلسته فوق الصندوق واخذ يأكل ·

وعندئذ قال :

« ان هذه الكلاب تعرف أين سلامتها فاذا اطمأنت أسرعت بالاكل قبل أن تؤكل هى ·· انها غاية فى الحكمة · »

وهز بيل رأسه وقال :
« لا أعرف . »
ونظر رفيقه اليه في فضول وقال :
« هذه هي أول مرة أسمعك فيها تقول شيئا يدل على أنك ترى فيها انها غير حكيمة . »
وقال الآخر وهو يمضغ الطعام في تمهل :
« هل لاحظت كيف كانت هذه الكلاب تركل بأقدامها وأنا أطعمها ؟ »
واعترف هنرى بأنه لاحظ ذلك وقال :
« نعم كانت أكثر ثورة منها عادة . »
وقال بيل :
« كم لدينا من الكلاب يا هنرى ؟ »
« ستة . »
« حسن يا هنرى . »
وتوقف بيل لحظة حتى تكتسب كلماته أهمية أكبر .. ثم استطرد يقول :
« لدينا يا هنرى ستة كلاب وأخرجت من الكيس ست سمكات وأعطيت كل كلب سمكة ومع ذلك بقى كلب لم يأخذ نصيبه . »
« لابد أنك أخطأت العد . »
وردد الآخر عبارته بهدوء :

« لدينا ستة كلاب وأخرجت من الكيس ست سمكات . وبقى واحد من هذه الكلاب دون أن يأخذ نصيبه . فعدت الى الكيس وجئت بسمكة لهذا الكلب . »
وقال هنرى :
« لدينا ستة كلاب فحسب . »
واستطرد بيل فى حديثه يقول :
« لا أقول يا هنرى انها كانت كلها كلابا بل أقول ان التى أكلت السمك سبعة . »
وكف هنرى عن الاكل ونظر عبر النار وعد الكلاب . وقال :
« انها الآن ستة فحسب . »
وقال بيل فى هدوء تام :

« رأيت الآخر يجـري عبر الجليـــد ٠ وانا واثق من أني رأيت سبعة ٠ »

ونظر هنري اليه في اشفاق وقال :

« عندما تنتهي هذه الرحلة فلن تكون لبهجتي حدود ٠ »

وسأله بيل قائلا :

« ماذا تقصد بهذا القول ؟ »

وأجابه هنري :

« أقصد ان الشحنة التي نحملها ترهق أعصـــابك وانك بدأت تتوهم اشياء لا وجود لها ٠ »

ورد بيل في أسى قائلا :

« لقد فكرت في هذا ٠ ولذلك عندما رأيته يجرى فوق الجليـد نظرت الى آثار أقدامه في الجليد ٠ ثم عددت الكلاب فوجدتها ستة ٠ ولا تزال الآثار على الجليـــد حتى الآن ٠ هل تريد أن تلقى نظـــرة عليها ؟ سأريك اياها ٠ »

ولم يرد هنري بل استمر يمضغ طعامه في صمت الى أن انتهى من تناوله ثم شرب فنجان القهوة الاخير ٠ ومسح فمه بظاهر يده وقال :

« اذن فأنت ترى انه كان ٠٠ »

وقطعت عليه حديثه صيحة معولة طويلة شديدة الحزن آتية من مكان ما في الظلام ٠ وتوقف لينصت ثم اتم عبارته وهو يلوح بيـده ناحية مصدر الصيحة قائلا :

« انه واحد منها ٠ »

وأمأ بيل برأسه وقال :

« كنت أفضل أن أكذب ناظري على ان يكون لمثل هذا الشيء وجود ولقد لاحظت بنفسك الضجة التي أثارتها الكلاب ٠ »

وتعاقبت الصيحات واحدة اثر اخرى وردت عليها صيحات أخرى حتى تحول السكون الى مستشفى مجاذيب ٠ وارتفعت الصيحات من كل جانب وكشفت الكلاب عن مخاوفها وهي تتزاحم ويتجمع بعضـها الى البعض الاخر وتقترب من النار حتى احرقت النار شعرها ٠ والقى بيل في النار مزيدا من الوقود ثم اشعل غليونه ٠

وقال هنري :

« اني أتصورك وأنت في فم واحد منها ٠ »

ورد بيل قائلا :

« اسمع يا هنرى ٠٠ »

وجذب نفسا طويلا من غليونه فى تأمل ٠ ثم عاد يقول :

« اسمع يا هنرى ٠ كنت أحدث نفسى بأنه اسعد حظا منك ومنى» وأشار بابهامه الى الرجل الثالث الراقد فى الصـــندوق الذى كانا جالسين عليه وقال :

« ٠٠ فعندما نموت أنا وأنت يا هنرى فلن يسعدنا الحظ بالحجارة التى تكفى لتغطية جثتينا لابعاد الكلاب عنهما ٠ »

وقال هنرى ٠

« ليس لنا أهل ولا مال ، فالجنازات التى تقطع المسافات الطويلة شىء لا تستطيع أنت ولا أنا ان نكفله تماما ٠ »

وقال بيل :

« هناك أمر يفوق قدرتى على ادراكه يا هنرى وهو لماذا يقوم شخص كهذا له مكانته الكبيرة فى بلده وليست به حاجة الى البحث عن غـذاء أو غطاء بالرحيل الى أقصى الارض المجهولة ٠

ووافقه هنرى قائلا :

« كان من المحتمل أن يعمر طويلا لو أنه بقى فى بلده ٠ »

وفتح بيل فمه ليتكلم ولكنه غير رأيه ٠ وأشار الى جدار الظلام الذى ضـــاق حولهما من كل جانب وهو ظلام حالك لا تمكن رؤية أى شىء من خلاله ٠ ولكنهما رأيا عينين براقتين كجذوتى فحم متقد ٠ وأشـــار هنرى برأسه الى عينين أخريين ثم الى عـــينين غير هـــاتين وهـــاتين ٠ وأحاطت دائرة من العيون البراقة بهما ٠ ومن وقت لاخر تظهر عينان جديدتان ثم تختفيان لتعودا الى الظهور من جديد بعد لحظة اخرى ٠

وزاد اضطراب الكلاب وتدافعت بدافع من خوف مفاجىء واقتربت من النار فى تذلل زاحفة عند أقدام الرجلين ٠ وفى أثناء هذا الزحف انقلب أحد الكلاب على ظهره عند حافة النار فعوى من شـــدة الالـم والخوف وملأت الهواء رائحة احتراق جلده ٠ ودفع هذا الاضـــطراب حلقة العيون الى الكف عن التحديق لحظة بل والى الانسحاب الى الوراء قليلا ولكنها عادت الى الاستقرار والتحديق بعد أن هدأت الكلاب ٠

وقال بيل :

« من سوء الحظ أنه ليست لدينا أية ذخيرة ٠ »

وكان بيل قد انتهى من تدخين غليونه ٠ وأخذ يســاعد صــاحبه

في اعداد فراش للنـــوم وهو فراش من فراء وبطاطين فوق فـــروع أشجار التنوب الفضي الجافة التي كانا قد صبغاها فوق الجليد قبل بدء تناول طعام العشاء ٠ وجلس هنرى القرفصاء وأخذ يفك اربطـة حذائه ٠ وسأل صاحبه ٠

« كم خرطوشة لدينا ؟ »

ورد عليه بيل قائلا :

« انها ثلاث ٠ وكنت أرجو أن تكون ثلثمائة حتى كنت أؤدب هذه الذئاب ٠ »

وهز قبضة يده مهددا العيون البراقة ووضع حذاءه أمام النـــار واستطرد يقول :

« ولكم اتمنى أن تذكر حدة هذا البرد فدرجـة الحـــرارة منـذ اسبوعين وهي دون الصفر بخمســــين درجة وليتنى يا هنرى لم أبدأ الرحلة فمظهرها لا يعجبنى وأحس شيئا من الغم على نحـو ما ٠ وما دمت في مجال التمنى فأنى أتمنى أيضا أن تنتهى هذه الرحلة وينتهى أثرها وأن نجلس أنا وأنت في قلعة ماجيورة بجوار النار نلعب الورق هذه هي تمنياتي ٠

وهمهم هنرى وزحف داخلا الفراش ٠ ولما غلبه النعاس أيقظه رفيقه وهو يقول له :

« اسمع يا هنرى ٠ ان ما يزعجنى هو أن ذلـك الذئب الذى جاء وحصل على السمكة لم تتعرض له الكلاب ٠ »

وجاءه الجواب الناعس :

« انك تكثر من الانزعاج ولم يكن هذا شأنك من قبل وما عليك الا أن تصمت وتنام فتصبح في الصـــباح بكل خير وعافية ٠٠ ان سر انزعاجي هو معدتك التي تؤلمك ٠ »

ونام الرجلان جنبا الى جنب وهما يتنفسان في صعوبة تحت غطاء واحد وخمدت النار وزاد اقتراب حلقة العيون البـراقة التى أحاطت بهذا المخيم الصغير ٠ وتجمعت الكلاب في خوف وأخـذت من حين الى آخر تكشر عن أنيابها وتزمجر كلما اقتربت عينان من تلك العيون ٠ وفي ذات مرة علا نباحها لدرجة أيقظت بيل فخرج من الفراش على حذر حتى لا يقلق نوم رفيقه والقى مزيدا من الوقود في النار ولما أخذ اللهب في الارتفاع ابتعدت تلك العين ٠ ونظر نظرة عابرة نحو الكلاب وبعضها

يحتضن البعض الاخر · وفرك عينيه وحدد نظرته اليها ثم عاد زاحفا الى داخل الفراش ·

ونادى صاحبه :

« هنرى ! هنرى ! »

وتنهد هنرى وهو ينتقل من النوم الى اليقظة وسأله ·

« ماذا تريد ؟ »

ورد بيل عليه قائلا :

« لا شيء سوى أن الكلاب أصبحت الان سـبعة مرة أخرى وقد عددتها بنفسى · »

وهمهم هنرى بما يفيد أنه علم هذه الحقيقة ثم راح يغط فى نومه العميق ·

وفى الصـباح سـبق هنرى صاحبه فى الاستيقاظ وانتزعه من الفراش كان باقيا على طلوع النهار ثلاث ساعات رغم أن الساعة بلغت السادسة صباحا وبدأ هنرى يعد طعام الافطار فى الظلام بينما أخذ بيل يلف الاغطية ويعد الزحافة للمسير ·

وسأله بيل فجأة :

« كم عدد الكلاب التى لدينا يا هنرى ؟ »

« ستة »

وقال بيل بلهجة الانتصار ·

« هذا خطأ · »

وتساءل هنرى :

« هل عادت سبعة ؟ »

« كلا ·· بل خمسة ·· وبهذا تكون قد نقصت كلبا · »

وثار هنرى وترك الطهو وجاء يعد الكـلاب · وانتهى من العد بقوله :

« أنت على صواب · فقد ذهب الكلب البدين · »

وقال بيل :

« لقد تسلل ثم مضى بسرعة البرق ولم نستطع أن نراه بسـبب الدخان · »

وقال هنرى :

« لا أمل فى عودته على الاطلاق أو العثـور عليه · فقد ابتلعته

الذئاب حيا . وأراهن على أنه ظل يعوى وهو ينزلق من حلوقهـا . عليها اللعنة . »

وقال بيل :

« لقد كان كلبا أحمق دائما . »

ومضى هنرى يقول :

« ولكن مهما بلغ أى كلب من الحمق فانه لا ينبغى أن يصل به الامر الى الانتحار على هذا النحو . »

ونظر الى بقية الكلاب بعين التكهن بما ينطق به مظهر كل منها من ميول وقال :

« أراهن على أنه ليس منها ما يقدم على هذا العمل . »

ووافقه بيل على هذا القول اذ قال :

« لم أستطع دفعها بالعصى بعيدا عن النار وكان من رأيى دائمـا أن ذلك الكلب البدين غير طبيعى . »

وكان هذا هو رثاء كلب ميت فى طريق أرض الشـمال .. فكان أقل رثاء قيل فى أى كلب من الكـلاب العـديدة التى يملكها أناس عديدون .

الفصل الثانى
الذئبــــة

وأتم الرجلان تناول طعام افطارهما ووضعا متـــاع المخيم وهو قليل على الزحافة وأدار ظهريهما للنار المتوهجة ومضـــيا فى جوف الظلام • وعاد العواء فورا يتصاعد فى الهواء حزينا حزنا بالغا يشق حجاب الظلام والبرد تتبادله الذئاب من هنا ومن هنـاك • وتوقف حديث الرجلين وطلع النهار فى الســـاعة التاسعة • وعند الظهيرة اصطبغ الافق الجنوبى باللون الوردى يوحى بالدفء وحـدد المكان الذى نتأ فيه بطن الارض بين شمس الظهيرة وعالم الشمال • ولكن سرعان ما ذهب اللون الوردى وحل محله اللون الرمادى الذى استمر حتى بلغت الساعة الثالثة وعندئذ اضمحل هـــذا اللون وخيم ذلك اللون الكئيب لون الليل القطبى وهو يهبط على الارض الصـــامتة المنعزلة •

وعندما حل الظلام اقتربت صيحات الذئاب المطاردة من يمين ومن شمال ومن وراء ـ اقتربت حتى بعثت الخوف فى الكلاب فأصـــابها الذعر فترة قصيرة •

وفى ختام احدى فترات الذعر هذه أعاد بيل وهنرى الكلاب الى مكانها الذى تسير فيه وهى تجر الزحافة وراءها • وقال بيل :

« لكم أرجو أن تجد هذه الذئاب صيدا آخر فتبتعد عنا وتدعنـا لشأننا • »

وقال هنرى :

« انها مرهقة للاعصاب بصورة رهيبة • »

ولم يتكلما حتى نصبا مخيمهما •

وكان هنرى منحنيا فوق قدر الفول يضيف اليهـا بعض الثلج عندما فوجىء بسماع صوت ضربة قوية وصيحة من بيل وصيحة الم

بين الكلاب • فاعتدل واقفا ورأى في الوقت المناسب شـكلا مبهما يختفي فوق الجليد ثم يلتجيء الى الظلام • وعندئذ رأى بيل واقفا بين الكلاب بين ذلة وانتصار وباحدى يديه عصا غليظة وبيده الاخرى ذيل سمكة وبعض ما تبقى منها وقال بيل :

« لقد أخـذت نصفها ولكنى مع ذلك ضربتها • هل سـمعت عواءها ؟ »

وسأله هنرى :

« كيف كانت تبدو ؟ »

« لم أستطع تمييزها ولكن لها أربع سيقان وفم وشعر ومظهرها مظهر أى كلب • »

« لابد أنها ذئبة مستأنسة • »

« انها مستأنسة جدا فهى تأتى وقت تناول الطعام وتحصل على نصيبها من السمك • »

وأنما تناول عشائهما تلك الليلة وجلسا على الصندوق البيضاوى وأخذا يجذبان الانفاس من غليونيهما وزاد اقتراب الاعين البراقة عن ذى قبل •

وقال بيل :

« لكم أرجو أن تثب هذه الذئاب على سرب من الايائل أو شيء من هذا فتمضى بعيدا عنا وتدعنا لشأننا • »

وهمهم هنرى على نحو خال من التعاطف مع هـذه الفكرة وظلا صامتين ربع ساعة وأخذ هنرى يحدق النظر فى النار كما أخذ بيـل يحدق النظر فى حلقة الاعين الملتهبة فى الظلام وراء دائرة ضوء النار•

وعاد بيل يقول :

« لكم أتمنى أن لو دخلنا ماجيورى الان • »

وانفجر فيه هنرى غاضبا يقول :

« كف عن تمنياتك ونعيبك • لاشك فى أن معـدتك تؤلمك • اشرب جرعة من الصودا فتصبح حلو الحديث حسن المرافقة • »

وفى الصباح استيقظ هنرى على صيحة سباب شديدة صـادرة من فم بيل واعتدل فى جلسته ونظر فرأى صاحبه واقفا بين الكلاب بجوار النار المتجددة وقد رفع ذراعيه وهو يصـيح مؤنبا وسـأله هنرى :

« ماذا جرى ؟ »
أجابه بيل :
« لقد اختفى الكلب ضفدع · »
« هذا غير معقول · »
« اؤكد لك ذلك · »
وقفز هنرى خارجا من أغطيته ومضى نحو الكلاب وعدها بعناية ثم شارك صاحبه فى لعنة حيوانات البرية التى سلبتهما كلبا ثانيا وأخيرا قال بيل :
« لقد كان ضفدع أقوى ما لدينا من كلاب · »
واتم هنرى حديثه قائلا :
« ولم يكن أحمق · »
وهكذا تم تسجيل ثانى رثاء خلال يومين ·
وأكلا طعام افطارهما وقد خيم عليهما الوجوم والكآبة ·
وقيدا الكلاب الاربعة الباقية بالزحافة · وكان النهار صورة مكررة لكل نهار سبقه · ومضى الرجلان فى صمت فوق الارض التى يغطيها الجليد · ولم يقطع هذا الصمت سوى صيحات الذئاب المطاردة التى لم يكادا يريانها ولكنها ظلت فى أعقابهما · ومع قدوم الليل بدا العواء أكثر قربا اذ دنت الذئاب منهما طبقا لعادتها واضطربت الكلاب وخافت وأصابها الذعر مما زاد فى قنوط الرجلين ·
وقال بيل فى تلك الليلة وهو يشعر بالرضا اذ انجز عمله :
« بهذه الطريقة ستكفين عن ارتكاب الحماقات · »
وترك هنرى الطهو وجاء ليرى موضوع حديث صاحبه مع الكلاب ورأى أن صاحبه لم يقيد الكلاب بصورة عادية مألوفة بل انه قيدها على الطريقة الهندية بالعصا · وذلك بأن ثبت فى عنق كل كلب سيرا من الجلد وقيد فى هذا السير طرف العصا الغليظة على نحو يجعل من العسير على الكلب أن تصل اسنانه الى الجلد وثبت الطرف الاخر من العصا فى الارض بسير اخر من الجلد · وبهذا تمنعه العصا من الوصول الى قطعة الجلد فى طرفها البعيد ·
وأومأ هنرى برأسه موافقا وقال :
« ان هذه هى الحيلة الوحيدة التى تحفظ ذا الاذن الواحدة انه يستطيع أن يقطع الجلد بأسنانه كأنها سكين بل وبأسرع ما تستطيع السكين · هكذا تكون الكلاب فى الصباح كاملة غير منقوصة · »

وأكد بيل صحة ما ذهب اليه هنري بقوله :

« تستطيع أن تراهن على ذلك . واذا نقص منها واحد فلن اشرب قهوتي في الصباح . »

وعندما أويا الى فراشهما قال هنري .

« ان الذئاب تعلم انه ليست لدينا ذخيرة لقتلها ولو استطعنا اطلاق رصاصتين عليها لزاد هذا من احترامها لنا . انها في كل ليلة تزداد قربا . حدق النظر جيدا هناك ! هل رأيت ذلك الذئب ؟ »

وقضى الرجلان بعض الوقت في التلهي برؤية حركات الاشكال الغامضة عند حافة ضوء النار . وظلا يحددان البصر باستمرار في العينين المتوهجتين في الظلام ورأيا شكل الذئب يتحدد . »

وصدر صوت بين الكلاب فاجتذب انتباه الرجلين اليها كان الكلب ذو الاذن الواحدة ينهنه نهنهة سريعة متقطعة وهو يعض عصاه ويتوقف من لحظة لاخرى ليجدد هجومه على العصا بأسنانه .

وهمس هنري قائلا :

« أنظر يابيل الى ذلك ! »

وبدا في ضوء النهار شكل حيوان متلصص . وكان الحيوان يتحرك حركة تدل على شكه وجرأته وهو يرقب الرجلين في حذر ويوجه انتباهه للكلاب ووجه الكلب ذو الاذن الواحدة عصاه نحو هذا الحيوان الدخيل ونهنه بحماس .

وقال بيل بصوت منخفض :

« ان الكلب ذا الاذن الواحدة الأحمق لا يبدو خائفا قط . » وهمس هنري قائلا :

« انها ذئبة وهذا هو سر هلاك الكلب البدين وضفدع . انها الطعم الذي يرسله قطيع الذئاب لاصطياد الكلاب التي تجري وراءها فتتلقفها الذئاب الجائعة وتلتهمها . »

وقرقعت النار . وسقطت كتلة من الخشب بضوضاء واضحة ولدى صدور هذا الصوت قفز الحيوان الغريب راجعا الى الوراء في الظلام .

وقال بيل

« أني افكر ياهنري »

وسأله هنري .

« فيم تفكر ؟ »

« افكر في أن هذه هي الذئبة التي ضربتها بالعصا · »
ورد هنري قائلا
« ليس في ذلك أدنى شك · »
وقال بيل :
« اريد هنـا أن اذكر ملاحظتي من أن تآلف الذئبـة مع نار المخيم مثير للشك · »
ووافقه هنري على رأيه وقال :
« ان خبرة هذه الذئبة تزيد على خبرة أي ذئب يحترم نفسـه فهي تجيء في وقت اطعام الكلاب · »
وقال بيل
« لقد كان لويليام كلب هرب ذات يوم مع الذئاب ولم أكن أعرف ذلك وأطلقت النار على قطيـع من الذئاب في مرعى للأيائل عند وادي « ليتل ستيك » يوما فأصبت ذلك الكلب وبكى ويليام كالطفل عندئذ اذ كان الكلب قد غاب عنه ثلاث سنوات قضاها بين الذئاب · »
وقال هنري
« ان هذه الذئبة كلبة وكثيرا ما أكلت الطعام من يد انسان » ·
وقال بيل
« واذا نجحت في أصابة هذه الذئبة التي هي في نفس الوقت كلبه فانها على كل حال ستكون صيدا طيبا · فنحن لم نعد مستطيعين احتمال خسارة مزيد من الكلاب · »
واعترض هنري قائلا :
« ليست لدينا سوى ثلاث خرطوشات · »
ورد بيل على هذا الاعتراض بقوله :
« لن أطلق رصاصة الا اذا كنت متأكدا من أنها ستصيب الهدف · »
وفي الصباح جدد هنري النار وأتم طهو الطعام بينما كان صاحبه يغط في نومه
وعندما ايقظه لتناول طعام الافطار معه قال له :
« لقد كنت نائما في راحة تامة · ولم يطاوعني قلبي لايقاظك · »
وبدأ بيل تناول الطعام ناعسا · ولاحظ أن فنجـانه خال وبسط يده نحو ابريق القهوة ولكن الابريق كان أبعد من متناول يده ومجاورا لهنري فقال له برقة :
« اسمع ياهنري · ألا تراك نسيت شيئا ؟ »

وتلفت هنرى حواليه باهتمام كبير وهز رأسه يريد أن يقـول انه لم ينس شيئا · فرفع بيل الفنجان الفارغ ·

وقال هنرى

« لن تشرب قهوة · »

« هل فرغ ما لدينا من بن ؟ »

« كلا · »

ـ ألا ترى أن حرمانى من القهوة يسىء الى هضمى ؟ »

« كلا · »

وتصاعد دم الغضب الى وجه بيل وقال

« هل تريدنى أن أبقى هادئا وأنا اسمعك تقول هذا القول ؟ »

ورد عليه هنرى قائلا :

« لقد ذهب الكلب سبانكر · »

وبدون تردد أدار بيل رأسه في جو استسلام لسوء الحظ وأخـذ يعد الكلاب وهو جالس مكانه وسأل صاحبه فى بلادة ·

« كيف حدث هذا ؟ »

وهز هنرى كتفيه وقال :

« لا أدرى الا أن يكون ذو الاذن الواحدة قطع له قيده بأسنانه ولم يستطع هو اخلاء سبيل نفسه ·· لا شك فى هذا » ·

وقال بيل فى وقار وبطء دون أية اشـارة الى أن غضـبا يثور بين جوانحه :

« لانه لم يستطع عض سير الجلد الذى يقيـده ويقطعه فعل ذلك بقيد سبانكر · »

وقال هنرى

« لقد انتهت متاعب سبانكر على كل حال وأظنه الان قد تم هضمه وهو يجرى الان فى هذا الفضاء الفسيح فى بطون عشرين ذئبا · اشرب بعض القهوة يا بيل · »

ولكن بيل هز رأسه

وناشده هنرى وهو يقدم له الأبريق أن يشرب القهوة ·

وازاح بيل الفنجان جانبا وقال

« لن اشرب القهوة فذلك عهد قطعته على نفسى حين قلت اذا فقـدنا كلبا فلن اشرب القهوة · »

وقال هنرى يغريه

« انها قهوة لذيذة · »

ولكن بيل كان عنيدا وآكل أفطارا خاليا من القهوة التى استبدلها باللعنات يصبها على الكلب ذى الاذن الواحدة بسبب الحيلة التى لعبها ·

وقال بيل عندما عادا يستأنفان رحلتهما ·

« سأقيدها الليلة قيدا بعيدا عن منالها · »

ولم يزد ما قطعاه بعد ذلك عن مائة ياردة عندما مال هنرى على الارض وكان في مقدمة المسيرة والتقط شيئا كان قد اصطدم بحذائه ولم يستطع أن يراه للونه الداكن ولكنه عرفه باللمس والقى به الى الوراء فاصطدم بالزحافة ثم قفز ثانية فاصطدم بحذاء بيل ·

وقال هنرى

« ربما كنت في حاجة الى هذه العصا فى تنفيذ ما اعتزمت القيام به الليلة · »

واعرب بيل عن دهشته اذ كانت هذه العصا هى كل ما تبقى من سبانكر وهى العصا التى كان قد قيده بها ·

وقال بيل

« لقد أكلته الذئاب لحما وعظما وجلدا ولم تبق منه حتى سير الجلد الذى يقيده بالعصا فهى نظيفة كالصفارة · لابد أنها جائعة جدا وستبقينا فى حالة تكهنات مستمرة بقية الرحلة · »

وضحك هنرى فى تحد وقال :

« لم يسبق أن تعقبتنى الذئاب كما فعلت هذه المرة ولقد مررت بعدد كبير من المشاق التى تفوق مشقة الذئاب هولا واحتفظت بصحتى· ولابد من أن يمر المرء ببعض هذه المشاق يابنى لكى تصبح رجلا متينا وأهلا لمثل هذه الرحلات · »

وتمتم بيل فى تشاؤم قائلا

« لا أعرف · لا اعرف · »

« ستعرف عندما ندخل ماجيورى · »

« لا اشعر بأى حماس · »

ـ لقد شحب لون وجهك · وانت فى حاجة الى الكينا وسأجعلك تشرب منها الكثير عندما نصل الى ماجيورى · »

واعرب بيل عن عدم رضاه عن هذا التشخيص وراح فى صمت عميق · وكان اليوم كالايام السابقة · اذ طلع النهار فى الساعة

التاسعة صباحا · وسرى الدفء في الجو فى الساعة الثانية عشرة اذ كانت الشمس عند الافق الجنوبى وان لم تظهر لاعينهما ثم بدأت برودة فترة بعد الظهر التي لا تستغرق اكثر من ثلاث ساعات حتى يهبط الليل ·

وبعد أن بذلت الشمس جهودا غير مجدية للظهور جذب بيل البندقية من بين أغطية الزحافة وقال

« عليك يا هنرى أن تستمر فى المضى وسأذهب أنا لارى ما اذا يمكن أن أراه » ·

« خير لك أن تبقى بجوار الزحافة فليس لديك سوى ثلاث خرطوشات ولا يدرى أحد ماذا يمكن أن يحدث · »

وقال بيل فى انتصار :

« من الذى يبكى الآن ؟ »

ولم يرد هنرى · ومضى يسير وحده وهو يكثر من التلفت المتلهف الى الوراء حيث اختفى رفيقه فى القفر المكفهر ·

وبعد ساعة جاء بيل بعد أن اختصر الطريق الى الزحافة بفضل الدروب بين منحنيات الطريق التى لابد للزحافة من أن تمضى فيها · وقال :

« ان الذئاب منتشرة فى دائرة واسعة وهى بهذا تبقى على اتصالها بنا وتبحث عن صيد لها فى نفس الوقت وهى كما يرى مطمئنة الى الحصول علينا الا أنها تنتظر أوان ذلك بينما هى فى نفس الوقت راغبة فى التقاط مايتيسر لها مما يمكن أكله · »

واعترض هنرى قائلا

« هل تقصد أنها واثقة من الحصول علينا ؟ »

ولكن بيل تجاهله واستطرد يقول :

« لقد رأيت بعضها وهى غاية فى الهزال ويبدو أنها لم تأكل شيئا منذ اسابيع فيما عدا الكلب البدين وضفدع وسبانكر · وهذه الذئاب كثيرة العدد · ولم تبتعد عنا كثيرا · انها غاية فى النحافة وضلوعها بارزة وبطونها خاوية ملتصقة بسلاسل عظمها الفقرية وهى الى ذلك غاية فى التهور والاندفاع وقد تصاب بالجنون ولهذا يجب الانتباه · »

وبعد بضع دقائق أطلق هنرى الذى يسير الآن وراء الزحافة صفيرا منخفضا فيه انذار · والتفت بيل نحوه ونظر اليه واوقف الكلاب بهدوء · كان وراءهما عند آخر منحنى تجاوزاه وفى أثرهم شكل ذو

فراء يتسلل ركضا ولهذا الشيء أنف يتشمم الاثر على الارض وهو فى مسيره خفيف لا يبذل جهـــدا • وعندما توقفا توقف هذا الشيء ورفع رأسه فى الهواء ونظر اليهما نظرة صارمة وخياشيمه فى حركة دائمـة وهى تلتقط رائحتهما وتفحصها •

وقال بيل

« انها الذئبة »

ورقدت الكلاب على الارض وتجاوزها بيل ماضيا نحو صـاحبه فى الزحافة وراقبا معا الحيوان الغريب الذى ظل يطاردهما عدة أيام وقضى على نصف كلابهما •

وبعد فحص دقيق ركض الحيوان بضع خطـوات الى الامام وتكرر هذا عدة مرات حتى أصبح على بعـد مائة ياردة منهمـا • وتوقف ورفع رأسه بالقرب من مجموعة من اشـــجار التنـوب الفضى وأخذ يفحص الرجلين اللذين يراقبانه مستخدما حاستى البصر والشم ونظر اليهما نظرة شوق غريب كما يفعل الكلب ولكنه شوق ليس فيه شيء من شوق الكلب الذى يتميز بالحب بل هو شوق مثاره الجوع فهو كامن فى قسوة أنيابه وفى جموده الذى يحكى جمود الجليد نفسه •

ويزيد حجمه عن حجم الذئب العـادى واطاره الهزيل يدل على انه ينتمى الى اكثر أنواع الذئاب حجما •

وقال هنرى :

« ان عرض كتفيه يبلغ قدمين ونصف قدم ، وأراهن على أن طوله لا يقل عن خمسة اقدام • »

وقال بيل :

« ولونه غريب يخالف لون الذئاب ولم يســـبق لى أن رأيت ذئبا احمر من قبل قط ولونه اقرب الى لون القرفه • »

ولم يكن الحيوان بالتأكيد فى لون القرفة بل كان فراؤه فراء ذئب حقيقى واللون الغالب على فرائه هو اللون الرمادى ومع ذلك فهناك أثر من لون يميل الى الاحمرار وهو لون خداع يظهر ثم يختفى وكأنه خدعة من الخـدع البصرية فهو تارة رمادى واضح وتارة أخرى يبرق بريقـا يميل الى الحمرة لون لا يمكن تحديده على ضوء الخبرة العادية •

وقال بيل :

« انه يبدو كلبا ضخما من كلاب الاسكيمو المخصصة لجر الزحافات ولن يثير دهشتى لو أنه هز ذيله • »

وناداه بيل ·
« تعال يا كلب الاسكيمو · تعال هنا كائنا ما كان اسمك » ·
وضحك هنرى وقال
« انه غير خائف منك · »
ولوح بيل بيده ناحية الذئب مهددا وصاح بصوت عال ولكن لم يظهر على الحيوان أى أثر للخوف وكل ما حدث فيه من تغيير ولم يستطيعا ملاحظته هو دقة انتباهه وهو يرقبهما بعينين فيهما شوق الجوع الذى لا يرحم فهما بالنسبة له لحم وهو جائع وبوده أن يقتحمهما وأن يأكلهما لو أن لديه الجرأة لذلك ·
وقال بيل وقد خفض صوته بدرجة الهمس عن غير قصد وذلك بسبب ما يفكر فيه :
« اسمع يا هنرى · لدينا ثلاث خرطوشات ولو صوبنا اليه اصابة قاتلة لما أفلت منها · ولقد أكل هذا الذئب ثلاثة من كلابنا ولابد من أن نضع حدا لهذا · فما رأيك ؟ » ·
وأومأ هنرى برأسه موافقا · وجذب بيل البندقية من الزحافة فى حذر · وكانت البندقية فى طريقها الى اتخاذ مكانها فوق كتف بيل ولكنها لم تصل لان الذئبة فى تلك اللحظة قفزت جانبا من الطريق واختفت بين مجموعة اشجار التنوب الفضى ·
ونظر كلا الرجلين الى الاخر · وصفر هنرى بفمه طويلا فى فهم ·
وأنب بيل نفسه بصوت عال وهو يعيد البندقية الى مكانها قائلا :
« كان يجب أن أعرف ذلك فالذئب الذى يعرف كيف يأتى الى الكلاب وقت تناول الطعام لابد أن يعرف كل مايتصل باطلاق الاسلحة النارية · اسمع ياهنرى ان هذه الذئبة هى سبب متاعبنا · كان يجب أن يكون لدينا ستة كلاب الآن بدلا من ثلاثة لولا تلك الذئبة · واسمع أيضا ياهنرى لابد أن اقتلها · وهى أشد ذكاء من أن تقتل صراحة ولهذا سادبر مكيدة لقتلها ساتصيدها بين الاشجار وأنا واثق من قدرتى على ذلك ثقتى بأن اسمى بيل » ·
وحذره رفيقه قائلا :
« لا حاجة بك الى الشرود بعيدا للقيام بهذا العمل لانه اذا بدأ هذا القطيع من الذئاب الوثب عليك فلن تساوى الطلقات الثلاث أكثر من سعال فى الجحيم فتلك الذئاب جائعة جدا واذا بدأت الهجوم فثق بانها ستأكلك ·

وبكرا تلك الليلة بنصب مخيمهما · اذ ما كانت ثلاثة كلاب بقادرة على جر الزحافة بنفس السرعة أو نفس المسافة التى تستطيعها ستة كلاب وخاصة وقد بدا عليها الأنهاك · وبكر الرجلان فى النوم ولكن بعد أن استوثق بيل من قيد الكلاب على نحو لا يسمح لواحد منها بفك قيده ·

ولكن الذئاب زادت جرأتها وأيقظت الرجلين من نومهما أكثر من مرة واقتربت الذئاب منهما الى حد أن الكلاب أصيبت بالذعر واصبح من الضرورى تجديد النار من آن لآخر لابقاء الذئاب المغامرة بعيدة بدرجة تجعل الرجلين أكثر أمنا ·

وقال بيل بعد أن عاد الى الفراش عقب تجديد النار فى احدى المرات :

« لقد علمت أن الملاحين يتحدثون عن سمك القرش الذى يتبع السفن والذئاب هى اسماك القرش على الارض وهى أكثر منا علما بمهمتها وهى لا تتعقب أثرنا مراعاة لصحتها بل انها ستغتالنا وهى واثقة من أنها ستغتالنا يا هنرى · »

ورد هنرى عليه بحدة قائلا :

« أنك بحديثك هذا تهيىء نفسك لان تغتالك · فالانسان يصبح نصف قتيل اذا هو قال ذلك · وانت نصف مأكول على ضوء تصرفك ازاء الذئاب » ·

ورد عليه بيل قائلا :

ـ لقد سبق أن افترست الذئاب رجالا خيرا منا » ·

وقال هنرى :

« كف عن عوائك فانك تزيدنى تعبا » ·

ومال هنرى غاضبا على جنبه ولكن أدهشه أن بيل لم يغضب كما غضب · ولم يكن هذا هو اسلوب بيل فهو سريع الغضب اذا هو سمع كلمات عنيفة · وأطال هنرى التفكير فى ذلك قبل أن ينام وبينما كانت اهدابه تلتقى ويروح فى نعاسه حدثه عقله قائلا :

« لا شك فى أن بيل غاضب ولابد من أن أصالحه غدا ·· »

الفصل الثالث
نداء الجوع

وبدأ اليوم بداية سعيدة اذ لم يفقدا شيئـــا من الكلاب الثـلاثة الباقية أثناء الليل ومضيا على الطريق وفى الصـمت والظلام والبرودة بروح طيبة ، وبدا على بيل أنه نسى ما ازعجه فى الليلة الماضية بل انه مازح الكلاب عندما قلبت الزحافة عند الظهر ٠

وكانت الاشياء قد اختلطت اختلاطا سخيفا عندما انقلبت رأســا على عقب وانضغطت بين جذع شجرة وصخرة كبيرة واضـطرا الى فك قيود الكلاب لاصلاح وضـع الزحافة ٠ وانحنى الرجـلان فوق الزحافة محاولين اصلاح وضـعها ولاحظ هنرى أن الـكلب ذا الاذن الواحـدة يتسلل مبتعدا عنهما ٠

وصاح بعد أن اعتدل فى وقفته واستدار نحوه :

« انتظر يا ذا الاذن الواحدة » ٠

ولكن ذا الاذن الواحدة كان قد بدأ الجرى فوق الجليد مخلفا وراءه اثاره على الجليد ٠ وهناك فوق الجليـد وبعيـدا وراء الزحـافة كانت الذئبة تنتظره ، واقترب منها وأصابه الحذر فجـأة فأبطـأ حركتـه واصبحت مشيته يقظة وئيدة ثم توقف ٠ وأخذ ينظر اليها فى شك ومع ذلك كانت له رغبة فيها ٠ وبدا عليها أنها تبتسم له كاشفة عن أنيـابها واقترب منها ذو الاذن الواحدة وهو محتفظ بيقظتـه وحذره وقد رفع ذيله واذنيه فى الهواء وشمخ برأسه ٠

وحاول أن يحك أنفها بأنفه ولكنها تقهقرت فى مداعبة مستدرجة اياه ٠ وكلما تقدم خطوة تقهقرت هى خطوة مماثلة ٠ وظلت تغريه على الابتعاد عن الامان الذى يجده فى صحبة البشر خطوة خطوة ٠ وحدث ذات مرة أن بدا عليه أنه ينصت لانذار خفى فأدار رأســه والتفت الى الزحافة المقلوبة والى الـكلبين الآخرين البـاقيين عنـدها والى الرجلين اللذين يناديانه ٠

ولكن الذئبة قضت على أية افكار تدور فى ذهنه بأن تقدمت نحـوه

وحكت أنفه بأنفها لحظة خاطفة ثم عادت تتقهقر تقهقرها المغرى وجدد هو تقدمه نحوها ٠

وفى أثناء ذلك فكر بيل فى البندقية ولكنها كانت مضغوطه تحت الزحافة المقلوبة هى الاخرى ٠ وفى الوقت الذى ساعده هنرى فيه فى اصلاح وضـع الزحافة كان ذو الاذن الواحدة والذئبـة قد ازدادا قربا كلاهما من الآخر واصبحت المسافة بعيدة بعـدا لا تسـمح بالمخـاطرة برصاصة ٠

وادرك ذو الاذن الواحدة غلطته بعد فوات الأوان ٠ ورأى الرجـلان الكلب يستدير ويأتى مسرعا نحوهما دون أن يريا السبب الذى دفعـه الى ذلك ٠ ثم رأيا عشرة ذئاب هزيلة ضامرة غبراء تقطـع عليه طريق التقهقر وتثب عليه فوق الجليـد وسرعان ما ذهب عن الذئبـة ما كانت تظهره من مداعبة واغراء ووثبت عليـه مكشرة عن انيـابها فدفعها عنه بكتفيه وبالرغم من قطع الطريق عليه فأنه ظل مصـمما على العـودة الى الزحافة ٠ وغير مجـرى سيره بأن جعله دائريا ليصـل الى الزحافة ٠ وتكاثرت الذئاب وزاد عددها مع كل لحظة واشتركت فى المطاردة وظلت الذئبة على بعد خطوة واحدة وراء ذى الاذن الواحدة لا تتقدم ولا تتأخر عن ذلك ٠

ووضع هنرى يده على ذراع رفيقه وقال :

« الى أين انت ذاهب ؟ »

وأبعد بيل يد صاحبه عنه وقال :

« لن احتمل ذلك ٠ ولن تأخـذ تلك الذئاب هذا الـكلب ما دام فى استطاعتى أن امنعها » ٠

ومضى بين الشـجيرات الصـغيرة المجاورة للطريق وبندقيته فى يده وكانت نيته واضحة ٠ وجعل الزحافة مركز الدائرة التى يصنعها ذو الاذن الواحدة وأراد أن يصل الى محيط الدائرة فى نقطة ما قبل أن تصل اليها الذئاب المطاردة ورأى من المحتمل والبنـدقية فى يده وفى وضح النهار أن يخيف الذئاب وينقذ الكلب ٠

وناداه هنرى :

« اسمع يا بيل ٠ كن حذرا ولا ترتكب مخاطرة » ٠

وجلس هنرى على الزحافة وظل يرقب ما يحدث اذ لم يكن لديه ما يصنعه غير هذا ٠ واختفى بيل عن ناظريه ولكن ذا الاذن الواحدة ظل من لحظة الى اخرى يظهر ثم يختفى بين الشـجيرات الصـغيرة ورأى

هنرى أنه لم يعد هناك أمل فى انقاذ ذى الاذن الواحـدة وادرك الكلب الخطر المحدق به أدراكا تاما ولكنه أخذ يوسع الدائرة التى يجرى فيها بينما الذئاب تضيق دائرة ركضـــها ومن العبث أن يخطر ببال المرء أن يستطيع الكلب البعيد كل البعد عن مطارديه اقتحام الدائرة والعودة الى الزحافة ٠

واقتربت الخطوط المختلفة بسرعة من نقطة ما ٠ وحالت الاشجار دون أن يرى هذه المطاردة التى تجرى على الجليـد ولكنه عرف أن كلا من قطيع الذئاب والكلب وبيـــل يقتربون بعضهم من بعضــهم الاخر للالتقاء فى نقطة ٠ وقد حدث هذا فعلا باسرع مما كان يتوقع ٠ وســمع صوت طلقة نارية ثم صوت طلقتين أخريين ٠ وعرف هنرى أن ما لدى بيل من ذخيرة قد نفذ ثم سمع عواء ونباحا وميز صـيحة الالم والرعب الصادرة عن ذى الاذن الواحدة وسمع صيحة ذئب تدل على أن صاحبها أصيب ولم يسمع بعد ذلك شيئا ٠ كف العواء والنباح وخيم الصمت من جديد على الارض الموحشة ٠

واطال الجلوس على الزحافة ٠ ولم تكن به حاجة الى الذهاب ورؤية ما حدث اذ عرف كل ما وقع كما لو انه وقع بمرآى من عينيه ٠ ونهض فى فزع وأسرع بأخراج البلطة من مـكانها بالزحافة ٠ ولكنـه عاد الى الجلوس فترة أطول سادها التأمل وظل الكلبان البـاقيان قابعين عند قدميه يرتعدان ٠

وأخيرا نهض متعبا وكأنما قد خلا جسمه من كل قدرة على المقاومة وقيد الكلبين بالزحافة ووضع أحد الحبال على كتفه وسـاعد كلبيه فى جر الزحافة ٠ ولم يمض بعيدا اذ حالما بدت أولى طلائع الظـلام اسرع بنصب المخيم واهتم بالاكثار من وقود النار واطعم الكلبين وطها طعـامه وأكل عشاءه وبسط فراشه على كثب من النار ٠

ولكنه لم ينعم بالفراش طويلا اذ قبل أن يغمض عينيه كانت الذئاب قد اقتربت منه على نحو لم يعد معه يأمن على ســـلامته ٠ ولم يكن فى حاجة الى اجهاد عينيه لرؤية الذئاب التى احاطت به وبالنار فى حلقـة ضيقة ورآها بوضوح على ضوء النار راقدة أو قابعـــة أو زاحفـــة على بطونها أو متراجعة أو متقـــدمة ٠ بل ان بعض الذئاب نام وقد طوى جسده كما يفعل الكلب ينام بعد أن حرم النوم على هنرى ٠

وابقى النار مشتعل غاية الاشتعال علما منه بأنها الحاجز الوحيد الذى يمنع الذئاب من الاقتراب منه ٠ وظل كلباه قريبين جدا منه وهو

يتوسطهما . وكانا يستندان اليه طلبا لحمايته يزمجران بصوت منخفض وأحيانا يعويان بصوت عال اذا ازداد أحد الذئاب قربا . وفى اللحظة التي يرتفع فيها صوت عواء الكلبين تتحرك حلقة الذئاب التى تقف على أقدامها متوثبة الى الامام وهى تعوى ثم تعود الى الرقود . ومن لحظة لاخرى يستيقظ واحد منها .

ولكن هذه الحلقة استمرت تضيق عليه شيئا فشيئا وفى كل مرة تضيق بمقدار بوصة اذ يبدأ ذئب فيزحف على بطنه هنا ويزحف آخر على بطنه هناك . وضاقت الحلقة حتى أصبحت الوحوش على بعد وثبة واحدة . وعندئذ أمسك حزمة من الاعواد المشتعلة وألقى بها على القطيع واسفر هذا عن تراجع الذئاب بسرعة الى الوراء وهى تزمجر زمجرة الغضب والخوف كلما أصاب عود مشتعل جسم ذئب جرى فى تقدمه .

وجاء الصباح فاذا الرجل منهك القوى شاحب اللون وقد اتسعت عيناه من أثر الحاجة الى النوم . وطها طعامه وتناول افطاره فى الظلام. ولما جاءت الساعة التاسعة وطلع النهار ابتعدت الذئاب عنه ومضى ينفذ الخطة التي ظل ليله كله يدبرها . فقطع الاغصان الصغيرة الغضة وجعل منها شبكة وكون من الشبكة منصة متينة فوق جذوع الاشجار على ارتفاع كبير من الارض واستخدم قيود الكلاب فى ربط المنصة بالاشجار ورفع صندوق الميت فوق المنصة . وقال للجسد المسجى فى الصندوق :

« لقد افترست الذئاب بيل وقد تفترسنى أنا ولكنها لن تصل اليك أيها الشاب » .

وخف حمل الزحافة ومضى بها وقد اسرع بها الكلبان اللذان يعرفان أن السلامة انما هى فى بلوغ قلعة ماجيورى . واصبحت الذئاب الان أكثر صراحة فى مطاردتها وهى تثب فى اتزان وراء الزحافة وتحيط بها من جانبيها وقد تدلت ألسنتها الحمراء بينما كشف اديمها عن اضلاعها البارزة . كانت غاية فى النحافة والهزال مجرد جلد على عظم تتخللهما العضلات . ولقد بلغت نحافتها حدا كبيرا حتى عجب هنرى من بقائها تجرى على اقدامها دون أن تصاب بانهيار فوق الجليد .

ولم يجرؤ على الاستمرار فى السفر حتى هبوط الليل فما انتصف النهار وأدفأت الشمس الافق الجنوبى ورفعت حاجبها الاعلى شاحبا ذهبى اللون على خط الافق حتى اعتبر هنرى ذلك اشارة له لنصب مخيمه وكان النهار قد بدأ يطول والشمس بدأت تعود . ولكن حالما راحت

بهجة ضيائها دخل مخيمه مع أنه كانت هناك عدة ســـاعات باقية من النهار تنقضى فى ضياء أغبش اللون يليها غسق مـكفهر واستخدم هذه الساعات فى قطع كمية كبيرة من خشب الوقود ·

وجاء الرعب مع قدوم الليل · ذلك أن الذئاب الجـــائعة ازدادت جراءه كما أن وطأة الحاجة الى النوم زادت شــدتها · وراح فى نعــاس بالرغم منه فجلس بجوار النار وغطى كتفيه بالاغطية ووضع البلطة بين ركبتيه واستند الكلبان اليه كلاهما من جانب·واستيقظ ذات مرة فرأى أمامه وعلى بعد لا يزيد عن عشرة أقدام ذئبا أغبر بالغ الضخامة هو من أكبر ذئاب القطيع وفيما كان ينظر اليه تعمد الوحش أن يتمطى كمـــا يفعل الكلب الكسول وتثاءب فى وجهه تثاؤبا عريضا وحدق النظر فيه كما لو كان هنرى مجرد وجبة غذائية سرعان ما تدخل فمه ·

كانت هذه الثقة واضحة فى وجوه القطيع كله واســتطاع أن يعد منها عشرة وكلها تحدق النظر فيه فى جوع شديد أو نائمــة فى هدوء على الجليد · وذكره منظرها هذا بأطفال تجمعوا حول مائدة منصــوبة ينتظرون السماح لهم بالبدء فى تناول الطعام · انه هو نفسه الطعـــام الذى ستأكله الذئاب وتساءل كيف ومتى ستبدأ الذئاب آكله ؟

وبينما كان يكوم حطب الوقود فوق النار اكتشف فى نفسه ميــلا الى تقييم امكانياته الجسدية على نحو لم يحــــدث له من قبــل وراقب عضلاته فى حركتها واهتم ببراعة أصابعه فى الحـــركة وما تتصف به هذه البراعة من ذكاء · وأخذ يثنى أصابعه فى بطء ويكرر هذه الحركة فى ضوء النار مرة يفعل ذلك بأحد اصابعه ومرة أخرى يفعله بأصابعه كلها دفعة واحدة ينشرها على آخر امتدادها أو يقبضها بسرعة · وفحص تكــوين أظـــافره ونخس أطراف أظافره مرة بقـــوة ومرة برفق ليقيس الاحساس العصبى الناشىء عن ذلك · وفتنته هذه التجـــربة واصبح فجأة مغرما بمرونة جســـمه أثنــاء حركته الجميلة اليسيرة الرقيقة · ويعقب ذلك بأن يلقى نظرة خوف على حلقة الذئاب التى ازدادت اقترابا منه فى ترقب وتبين أن جســـــده هذا · هذا اللحم ليس أكثر من لحم ستأكله الذئاب المفترسة بأنيابها الجـائعة بعد أن تمزقه اربا وتقطعه شرائح ليكون غذاء لها يبقى على حياتها تماما كما كان يجد غذاءه الذى يبقى على حياته فى لحم الايائل والارانب ، وأحس فى هذا التبين ضربة هوت عليه ·

وافاق من غفوة كانت اشبه شيء بالكابوس رأى فيه الذئبة ذات اللون الاحمر واقفة امامه على بعد لا يزيد عن ستة أقدام فوق الجليد تنظر اليه نظرة اشتهاء لأكله بينما الكلبان عند قدميه يعويان ولكنها لا تعيرهما اهتماما بل تنظر الى الرجل الذى يبادلها النظر بعضا من الوقت • وليس فى نظرتها ما يوحي بالتهديد بل هى تكتفى بالنظر اليه فى لهفة شديدة ولكنه يعلم أن هذه اللهفة مشربة بجوع شديد • انه هو الطعام كما أن منظره يثير فيها حاسة المذاق • وانفتح فمها وسال منه لعابه ولعقت أضلاعها وهى تستمتع باللذة المنتظرة •

وسرى فى جسده تشنج عضلى من أثر الخوف • وبسط يده الى قطعة من الحطب المشتعل ليلقى بها على الذئبة ولكنه ما كاد يمد يده وقبل أن تطبق أصابعه على قطعة الحطب حتى كانت الذئبة قد وثبت بعيدا الى حيث تكون آمنة وعرف من ذلك أنها تعودت أن يلقى الناس عليها اشياء • وكشرت عن انيابها وهى تثب الى الوراء فكشفت عن جذور أنيابها واختفت لهفتها وشوقها وحل محلهما خبث الافتراس الذى جعله يرتعد ونظر الى يده الممسكة بقطعة الحطب ولاحظ رقة اصابعه فى امساك قطعة الحطب وهى تلائم بين نفسها وبين خشونة سطح تلك القطعة فهى تنثنى فوق الخشب الخشن وتحته وحوله ومنها اصبعه الخنصر القريب كل القرب من الجزء المحترق من قطعة الحطب وهى غاية فى الحساسية فاذا اشتدت الحرارة تراجعت الاصابع الى مكان أكثر أمنا • وفى نفس الوقت تصور هذه الاصابع الدقيقة وهى تتحطم وتتمزق بين أنياب الذئبة البيضاء • ولم يسبق له قط أن أحب جسمه كما أحبه الآن حين أصبح احتفاظه به محفوفا بالخطر •

وظل طول الليل يصد عنه الذئاب الجائعة بقطع الحطب المشتعلة وعندما غفا رغما عنه أثاره عواء الكلبين • وجاء الصباح ولكنه لاحظ لاول مرة أن ضوء النهار لم يفرق الذئاب • وانتظر الرجل عبثا أن تتفرق الذئاب التى بقيت تحيط به وبناره من كل جانب ومظهرها ينطق بغرور السيطرة عليه مما هز شجاعته التى كان ضوء الصباح قد أوجدها فيه •

وقام بمحاولة يائسة لبدء الرحيل • ولكن ما أن خرج من نطاق حماية النار حتى وثب عليه أكثر الذئاب جرأة ولكنه لم يصل اليه اذ انقذ الرجل نفسه بالقفز الى الوراء وانطبق أحد فكى الذئب على الفك الآخر على بعد ست بوصات من فخذه ونهضت بقية الذئاب وتدافعت

نحوه واصبح من الضرورى له أن يلقى الحطب المتقد يمينا وشمالا لدفعها عنه الى بعد يكون معه آمنا على نفسه ·

وبالرغم من وضح النهار فانه لم يجرؤ على مغادرة مكان النار للاحتطاب وكانت اشجار التنوب الفضى الميته على بعد عشرين قدما منه · وقضى نصف النهار وهو يمد نيرانه نحو الشجرة وقد وضع بعض القطع الملتهبة بالقرب منه ليلقى بها على أعدائه فلما بلغ الشجرة فحص الغابة المحيطة به ليكشف أقرب شجرة يمكن أن يحتطب منها وقودا ·

وجاءت الليلة صورة مكررة من الليلة السابقة فيما عدا سيطرة احساسه بالحاجة الشديدة الى النوم سيطرة لا قبل له باحتمالها أو مقاومتها · وفقد عواء كلبيه فاعليته · وفضلا عن ذلك فان عواءهما ظل مستمرا كما أن احساسه الذى خدره النعاس لم يعد يحدد مدى ما يعتور هذا العداء من عمق أو قوة · واستيقظ فزعا · ووجد الذئبة على بعد ياردة واحدة منه فاندفع اليها بدون حاجة الى تفكير أو تدبير ودس قطعة حطب مشتعلة فى فمها المفتوح · وقفزت الى الوراء تعوى من فرط الالم وابتهج وهو يشم رائحة لحمها وشعرها المحترقين وأخذ يرقبها وهى تهز رأسها غضبا على بعد عشرة أقدام ·

ولكنه فى هذه المرة وقبل أن يغلبه النعاس مرة أخرى ربط كتلة محترقة من خشب الصنوبر بيده اليمنى ولم يغمض عينيه اكثر من بضع دقائق حتى ايقظه وهج النار · واتبع هذا البرنامج عدة ساعات · وفى كل مرة ايقظه فيها الوهج أبعد عنه الذئاب بقذف الحطب المتقد عليها وجدد وقود النار وأعاد ترتيب كتلة الصنوبر المحترقة بيده · وسارت الامور سيرا حسنا ولكن جاء وقت لم يحكم فيه ربط كتلة الصنوبر فلما أغمض عينيه سقطت من يده ·

ورأى فيما يرى النائم أنه بلغ قلعة ماجيورى والمكان دافىء ومريح وهو يلعب الورق مع الوكيل · وبدت له القلعة تحاصرها الذئاب وهى تعوى عند أبواب القلعة نفسها · وكان يقف احيانا هو والوكيل عند الابواب لينصتا ويضحكا من الجهود العابثة التى تبذلها الذئاب لاقتحام الابواب · وعندئذ حدث شىء غريب غرابة الحلم نفسه اذ انفتح الباب عنوة واندفعت الذئاب مقتحمة غرفة الجلوس الكبيرة بالقلعة واخذت تثب عليه هو والوكيل مباشرة · وزادت قوة عواء الذئاب مع فتح الباب عنوة وازعجه هذا العواء · وتحول حلمه الى شىء آخر لم يعرفه ولكن العواء ظل طول الحلم مستمرا ومتصلا

وعندئذ استيقظ فوجد العـواء حقيقيا • وكانت الذئاب منـدفعة نحوه مكشرة عن انيابها • بل انهـــا احاطت به وهجمت عليه واطبقت اسنان احدها على ذراعه • فقفز الى داخل النار بدافع غريزى وفيما هو يقفز أحس نابا آخر يقطع لحم ساقه • وعندئذ بدأ القتال بالنار وحمى القفاز المتين يديه مؤقتا والقى الفحم المتقد فى الهواء فى كل ناحية حتى بدت نيران المخيم كفوهة بركان •

ولكن لم يكن من الممكن أن يســـتمر ذلك طويلا وآلمه وجهـه تحت وطأة الحرارة الشديدة واحترق شعر حاجبيه وأهدابه واصبحت قدماه عاجزتين عن احتمال النار وأمسك بكلتا يديه قطعة حطب مشـــتعلة وقفز الى حافة النار • وكانت الذئاب قد ابتعدت • وأخذ الثلج يغلى فى كل ناحية سقط فيها الفحم • ومن لحظة لاخرى كان ذئب يقفز عاليـا وهو يعوى ألما مما يدل على أن قطعة فحم مشتعلة قد احرقت قدمه •

والقى الرجل الحطب المشتعل بيديه على أقرب أعدائه ودس قفازه المحترق فى الجليد وأخذ يدق بقدميه على الجليد ليخفف حدة احتراقهما ولم يعد لكلبيه أثر وعرف جيـدا أن الذئاب قد أكلتهما أثناء انتظـــار أكله هو كوجبة غذائية رئيســـية من المتـوقع أن تحدث خلال الايام المقبلة •

وصاح فى الوحوش الجائعة وهو يهز قبضتيه فى وحشية :

« لم تحصلوا على بعد »

وحرك صوته حلقة الذئاب المحيطة به واشتركت فى العواء واقتربت الذئبة منه وأخذت ترقبه فى لهفة الجوع •

وبدأ تنفيذ فكرة جديدة خطرت له • بدأ توسيع حلقة النار وجلس داخل هذه الحلقة وقد وضـــع تحته الاغطية لتحميه من برودة الثلج الذائب ولما اختفى على هذا النحـو وراء اللهب عن أعين الذئاب اقتربت هذه فى فضـــول من حافة الدائرة لترى ماذا حل به • ولم تســـتطع الذئاب حتى هذه اللحظة الدنو من النار فاستقرت فى حلقة قريبة جدا منه وهى ترمش بعيونها وكأنما هى مجموعة من الكلاب العديدة وتتثاءب وتتمطى فى الدفء غير المألوف • وعندئذ جلست الذئبة ومدت أنفهـا نحو النجوم وأخذت تعوى • وحذت الذئاب حذوها واحدا بعد الآخر حتى أصبح القطيع كله مقعيا على خلفيته وأنوفه نحو النجوم مطلقا نداء الجوع •

وجاء الفجر ثم طلع النهار · وخمدت النار قليـلا · ونفذ الوقود واصبحت هناك حاجة الى احضار وقود جديد · وحاول الرجل أن يخرج من الحلقة الملتهبة ولـكن الذئاب تدافعت للقـائه وطردها عنـه بحزم اللهب فقفزت جانبا ولكنهـــا لم تعد تقفز الى الوراء · وعبثا حاول أن يدفعها الى الوراء · وكف عن المحـاولة وعاد داخـلا الحلقة ووثب عليه ذئب ولكنه أخطأه وهوى بسيقانه الاربع فوق الفحم الملتهب وعوى فى فزع وزمجر مكشرا عن أنيـابه وقفز عائدا الى الوراء ليبرد أقـدامه فى الجليد ·

وجلس الرجل على أغطيتـه منحنيـــا وقد امتد جســمه الى الامام واسترخت كتفاه ومالتا ووضع رأسه على ركبتيه مستسلما لقدره ومن حين لاخر كان يرفع رأسه ليرى احتضـــار النــار · وبدأت حلقة اللهب والفحم تتكسر أجزاء تفصل بينها فتحات واتسع حجم الفتحات وتضاءل حجم الاجزاء ·

وتمتم قائلا :

« الآن تستطيعون القدوم والحصـــول على وعلى كل حال فسـأنام وليكن ما يكون » ·

واحس الضعف ورأى عند احدى الفتحات فى الحلقة فى مواجهته الذئبة وهى تحدق النظر فيه ·

وازداد احساسه بالضعف · وبعد قليل وان بدا هذا القليل عنـده ساعات حدث تغيير غامض · وكان هذا التغيير من الغمـــوض بحيث ايقظه تماما ، لقد حدث شىء لم يستطع فهمه فى أول الأمر ، ولم يبـق سوى الجليد يحمــل أثار أقدام تدله على مــدى قرب تلك الذئاب حين كانت تحيط به · وعاد النوم يفرض ســلطانه عليه من جديد وغاصت رأسه بين ركبتيه ثم نهض مستيقظا منتبها فجأة ·

وكانت هناك صيحات رجال وضوضاء زحافات وصـــليل لجسم وعواء كلاب الزحافات ، ووقفت أربع زحافات عند حوض النهر بالقرب من المخيم المجاور للاشجار · ووقف ستة رجال حول الرجل الجـــالس القرفصاء وسط حلقة النار الخامدة · وأخذوا يهزونه وينخسونه حتى يفيق ونظر اليهم نظرة مخمور وهو يقول بصوت غريب ناعس ·

« ذئبة حمراء ·· تأتى مع الكلاب وقت تناولها الطعـام ·· بدأت بأكل طعام الكلاب ثم أكلت الكلاب ·· وبعد ذلك أكلت بيل ·· »

وصاح أحد الرجال فى أذنه وهو يهزه بخشونة :

« أين اللورد الفريد ؟ »

وهز رأسه ببطء وقال

« كلا لم تأكله ·· بل هو مقيم على شجرة عند آخر مخيم » ·

وصاح الرجل :

« هل هو ميت ؟ »

« نعم ميت » ·

وهز هنرى كتفه يخلصها من قبضة سائله وقال

« دعنى وشأنى ·· فأنا متعب ·· طاب مساؤكم جميعا » ·

واغمض عينيه · وهوت ذقنه على صــدره ·· وعنــدما مددوه على الاغطية ارتفع صوت شخيره فى الهواء البارد ·

ولكن كان هنـــاك صوت آخر · وكان الصوت نائيــا وضعيفا فى الفضاء البعيد · كان صوت عواء قطيع الذئاب الجائعة وهى تتبــع أثر لحم آخر غير الرجل الذى فقدته لتوها ·

الجزء الثانى

الفصل الأول
معركة الأنياب

كانت الذئبة أول من التقط صدى أصوات الرجال وعواء كلاب الزحافات فقفزت مبتعدة عن الرجل وهو فى مركزه الحرج وسط حلقة اللهب المحتضر ولم يكن القطيع راغبا فى التخلى عن الصيد بعد أن طاردوه طويلا وتلكأ عدة دقائق يستوثق من حقيقة وجود هذه الاصوات وأخيرا ركض القطيع فى أثر الذئبة ٠

وبدا فى مقدمة القطيع ذئب ضخم ، هو واحد من عدة زعماء ، لكنه هو الذى يوجه سير القطيع فى أعقاب الذئبة فيكشر عن أنيابه محذرا صغار الذئاب ويهم بها بأنيابه عندما يدفعها الطموح الى محاولة تجاوزه ، وهو الذى يزيد السرعة عندما يرى الذئبة تخطو فوق الجليد ٠

وتمهلت الذئبة حتى أصبح محاذيا لها كما لو كان هذا هو موقفها المقرر ومضت بالسرعة التى يمضى بها القطيع ولم يكن يكشر لها عن أنيابه عندما تدفعها احدى وثباتها الى وضع تتقدمه فيه بل يبدو عليه انه شديد الرفق بها والرضا بأن يتبعها لانه يميل الى العدو بالقرب منها ولكنه اذا ازداد قربا منها كشرت له عن أنيابها وأحيانا تلمس كتفه بأنيابها فى حدة ولا يغضب بل يثب جانبا عدة وثبات وهو يشبه فى سلوكه عاشقا ريفيا خجولا ٠

هذه هى مشكلته الوحيدة فى قيادة القطيع أما هى فلها مشاكل أخرى اذ يجرى بجانبها من الناحية الاخرى ذئب هزيل عجوز أشيب بفرائه عدة آثار التحام جروح اصابته فى معارك عديدة فى الماضى ٠ وهو يجرى دائما الى يمينها وربما يرجع ذلك الى أنه ذو عين واحدة هى العين اليسرى ٠ وهو بدوره مدمن مزاحمتها والميل نحوها حتى يلمس أنفه جسدها أو كتفها أو فتصد هى هذا التقرب بأسنانها كما تفعل مع رفيقها الذى يجرى الى يسارها فاذا غازلها الذئبان فى وقت واحد وجدت فى هذه المزاحمة الخشنة ما يكرهها على الهجوم

هجمـــات سريعة يمنة ويسرة لابعاد العاشـــقين عنها والابقـــاء فى نفس الوقت على معدل ركضها مع القطيع ورؤية الطريق أمامها • وفى مثل هذه الاوقات يكشر صاحباها عن أنيـــابهما ويزمجر كلاهما في الاخر وقد يشتبكان فى قتال ولكن حتى المغازلة وما تثيره من مزاحمة يجب أن تنتظر حتى يتم اشباع الحاجة الملحة الى الطعام •

وبعد أن يتلقى الذئب العجوز مثل هذا الصـــد يبتعـد فجأة عن الذئبة المحبوبة وأنيابها الحادة فتصطدم كتفه بكتف الذئب الشـاب الذى يبلغ من العمر ثلاثة أعوام ويجرى بجواره الى يمينه الـذى فيه عينه العمياء • وهذا الذئب الشاب مكتمل الحجم واذا هو قورن ببقية أعضاء القطيع الذين يغلب عليهم الضعف والجوع لاتضح انه يتصف بالقدرة والحيوية وبالرغم من ذلك فأنه يجرى ورأسه فى محاذاة كتف رفيقه الاكبر سنا • واذا هو غامر فسبق الذئب العجوز وهو أمر نادر الحدوث كان كافيا أن يكشر له هذا عن أنيابه ليرتد الى مـكانه فى محاذاة كتف الذئب العجوز • وهو أحيانا يتراجع في حذر الى الوراء متخذا مكانه بين الذئبة والذئب العجوز فيجد لهذا العمل اسـتنكارا مزدوجا بل قد يشترك فى الاستنكار الذئب الزعيم • وعنـدما تكشر الذئبة عن انيابها معبرة بذلك عن عدم رضاها يدور الذئب العجـــوز على الذئب الذى يبلغ من العمر ثلاثة أعوام وأحيـــانا تدور هى معه وأحيانا يشاركهما الزعيم الشاب الذى الى اليسار هذا الدوران •

وفى مواجهة هذه المجموعات الثلاث من الانياب المتوحشة يتوقف الذئب الصغير على الفور ويلقى بثقله على مؤخرته بعد أن يثبت قائمتيه الاماميتين ويبرز فمه مهددا وقد انتصب شعر مؤخرة عنقه • ويحدث هذا الارتباك فى مقدمة القطيع المتحرك دائما ارتباكا فى المؤخـرة اذ تصطدم الذئاب التى وراء الذئب الشاب وتعبر عن استيائها بعضـه فى ساقيه الخلفيتين وفى جنبيه بأنيابها الحادة وبهذا يسبب المتاعب لنفسه لانه من شأن نقص الطعام أن يعجل بالضيق والتبرم ولكنـه بدافع من ايمانه بشبابه ذلك الايمان غير المحدود بالضيق يظل يكررهذه المناورة من حين لاخر بالرغم من أنه لم ينجح أبدا فى كسـب شىء له سوى القهر والغم •

ولو توافر الغذاء لكان المجال كبيرا للعشق والقتال فى مكان فسيح كهذا ولانفرط عقد القطيع • ولكن موقف القطيع كان موقف القنوط فالذئب نحيف جائع منذ وقت طويل ولهذا فهو يجـرى بسرعة دون سرعته العادية • وفى المؤخرة يعرج الضعاف من أعضاء القطيع الصغار

المعنين فى الصغر والكبار المعنين فى الكبر تاركين المقدمة للاقوياء ومع ذلك فالكل أقرب الى الهياكل العظمية منهم الى الذئاب الممتلئة الاجسام وبالرغم من كل ذلك فباستثناء من يعرجون كانوا جميعا يمضون دون بذل جهد أو معاناة تعب · وبدت عضلات الذئاب المعتدلة حافلة بالطاقة التى لا تنضب فوراء كل تقلص عضلة هى أشبه شىء بالحديد الصلب تقلص عضلة أخرى لا تقل عنها متانة فعضلة ثالثة فرابعة الى مالا نهاية له ·

وقطعت الذئاب عدة أميال يوميا وهى تعود ليلا حتى اذا طلع النهار التالى وجدها مستمرة فى عدوها · وكانت تعدو فوق سطح عالم ميت متجمد لا حركة فيه ولا حياة ، فكانت وحدها هى التى تتحرك فى ذلك الخمول الفسيح الارجاء · وكانت وحدها التى تطفر حيوية فى بحثها عن أشياء حية أخرى لكى تفترسها وتستمر فى الحياة ·

وعبرت الذئاب المنحدرات المنخفضة والغدران الصغيرة ثم صادفت آيلا ضخما فيه لحم وفيه حياة ولم يكن فى حراسة نيران غامضة أو قذائف نارية · وكانت الذئاب تعرف الحوافر المفرطحة والغزلان الصغيرة فتخلت عن صبرها المعتاد وحذرها المعهود · وكان قتالا قصيرا ووحشيا اذ احاطت الذئاب بالآيل من كل جانب ونطحها بقرنيه وفتح بطون بعضها وهشم جماجم بعضها الاخر وهو يركلها بحوافره القوية حتى غرسها فى الجليد أثناء القتال الذى ساده التمرغ على الارض ولكن مصير الآيل كان محتوما من قبل اذ هوى على الارض بعد أن نهشت الذئبة حلقه وغرست فى جسمه أنياب ذئاب أخرى تلتهمه حيا قبل أن يكف عن النضال أو ينتهى أمره ·

وكان فيه غذاء وفير · اذ كان يزن أكثر من ثمانمائة رطل نال منها كل فم عشرين رطلا كاملا من اللحم وكان عدد أفراد القطيع عشرين ذئبا · وكما تستطيع الذئاب الصيام طويلا فهى كذلك تستطيع الالتهام كثيرا ، ولم تمض لحظات حتى لم يعد متبقيا من الآيل سوى بضع عظام متناثرة ·

وتوافر الآن كثير من الراحة والنوم وبعد أن امتلأت البطون بدأ النزاع والمشاغبة بين صغار الذكور من الذئاب واستمر هذا طول الايام القليلة التالية قبل انفراط عقد القطيع · وانتهت المجاعة الى أن حلت الذئاب بأرض فيها صيد وفير ، وبالرغم من اشتراكها جميعا فى الصيد

معا فانها أخذت تصـــيد بحذر أكبر تتخير أناث الايائل البدينة أو ذكورها الكسيحة التي تقدمت بها السن ٠

وجاء يوم انقسم فيه قطيع الذئاب في أرض الصـــيد الوفير هذه ومضى كل فريق في اتجاه مخالف للاتجاه الذى مضى فيه الفريق الاخر وقادت الذئبه والذئب الزعيم الشاب عن يسارها والذئب العجوز ذو العين الواحدة عن يمينها أحد الفريقين نحو نهر ماكنزى وعبروا مجراه الى أقليم البحيرات شرقا وتناقص هذا الفريق كل يوم اثنين اثنين ذكر وانثى يتخلفان عن الفريق والانفراط منه ٠ واحيانا يتخلف ذئب ذكر بلا أنثى بعد أن تطرده أنياب مزاحميه ، وفى اخر الامر لم يبق سوى أربعة ذئاب هى الذئبة والزعيم الشـــاب وذو العين الواحدة والذئب الصغير الطموح الذى بلغ العام الثالث من عمره ٠

وازدادت الذئبة وحشية وتركت أنيابها أثارها فى جلود خاطبيها الثلاثة جميعهم ومع ذلك فلم يقتص واحد من هــذه الذكور منها ولم يدفع عن نفسه هجماتها ٠ بل كانوا جميعا يديرون لها اكتافهم لتغرس فيها أنيابها بوحشية ويعملون على تهدئتها واسترضـائها بهز ذيولهم وتخطرهم فى مشـــيتهم ، وبالرغم من اعتـــدال مزاجهم ازاءها فانهم الوحشية المجسمة ازاء بعضهم مع البعض الآخر ٠ وزاد طمـــوح الذئب الصغير ذى الاعوام الثلاثة فى وحشيتة وأمسك اذن الذئب الكبير ذى العين الواحدة بأنيابه وقطعها شرائح ٠ وبالرغم من أن الذئب الصغير وهو يقضم اذنه التى فى ناحية عينه المفقودة وبالرغم من شـباب ذلك الذئب الصغير وقوته فأنه استخدم حكمة تجارب الاعوام الطويلة ، وكان ضياع عينه والجروح التى فى أنفه برهان طبيعة تجاربه ٠ لقد اجتاز عدة معارك فلم يضيع أية لحظة شك فيما يجب عليه أن يعمله ٠

وبدأت المعركة بداية عادلة ولكنها لم تنته نهاية عادلة ، ولم يكـن هناك ما يدل على النتيجة لولا أن انضم الزعيم الشاب الى الزعيم العجوز فى مهاجمة الذئب الصغير الطموح وعملا معا على القضاء عليه وهاجماه كلاهما من ناحية بأنياب لا تعرف الرحمة ونسى الزعيمـان الايام التى ذهبوا فيها جميعا للصيد معا واشتركوا فيها جميعا فى ايقاع الفريسة معا والمجاعة التى عانوها معا واصبح هذا أثرا من آثار المـاضى ٠ أما المسألة الان فهى مسألة الحب وهى مسألة أكثر جدية وقسوة من مسألة الحصول على الغذاء ٠

وفى أثناء ذلك جلست الذئبة التى هى سبب كل ذلك على مؤخرتها ترقب ما يحدث فى سرور فهذا اليوم يومها ــ ولم يحـدث كثيرا أن

نفش ذئب شعره أو أن قرع نابه بناب اخر أو غرس نابه في لحم ذئب آخر ومزقه في سبيل الحصول عليها ٠

وفى معركة الحب هذه التى خاضها الذئب الصغير ذو الاعوام الثلاثة من عمره لاول مرة خسر حياته ووقف المتزاحمان بجانبي جثته وكلاهما يحدق النظر فى الذئبة وهى جالسة على الجليد تبتسم ٠ ولكن الذئب العجوز كان حكيما وحكيما جدا سواء فى الحب أم فى القتال٠ وأدار الزعيم الشاب رأسه ليلعق جرحا بكتفه فانكشف عنقه لمزاحمه الذى رأى بعينه الواحدة هذه الفرصة فاندفع بأنيابه وغرسها فى عنق مزاحمه وانتزع منه اللحم وقطعه قطعا عميقا وقد استغرق فى ذلك وقتا طويلا ٠ وقطعت أنيابه الوريد فى عنق غريمه ٠ ثم قفز الى الوراء مبتعدا عنه ٠

وعوى الزعيم الشاب عواء رهيبا ولكن عواءه قطعه السعال ٠ وظل عنقه ينزف دما وفمه يسعل وقفز على غريمه بينما الحياة تتسلل منه شيئا فشيئا وضعفت سيقانه عن حمله وأظلم ضوء النهار فى عينيه وقصرت ضرباته وقفزاته شيئا فشيئا ٠

وفى أثناء ذلك ظلت الذئبة جالسة على مؤخرتها وهى تبتسم ٠ لقد سرتها المعركة من عدة نواح غامضة لان هكذا يكون العشق فى البرارى وهكذا تكون مأساة الجنس فى عالم الطبيعة انها مأساة للذى يموت فحسب أما بالنسبة لمن يبقى فهى ليست مأساة بل تحقيق وانتصار ٠

وعندما رقد الزعيم الشاب على الجليد وتوقف عن الحركة مضى ذو العين الواحدة نحو الذئبة وكان سلوكه سلوك المنتصر الحذر يتوقع الصد ولكم كانت دهشته اذ لم تبرز له أنيابها غضبا بل لقد استقبلته لاول مرة فى رفق وتشممت أنفه كما تشمم أنفها وأخذت تلعب معه وتقفز معه وكأنهما جروان صغيران ٠ وكان سلوكه رغم شيخوخته وحكمته وتجاربه سلوك جرو صغير بل اكثر حماقة ٠

ونسى الاثنان المزاحمين المهزومين وكتبت قصة الحب بالدماء على الجليد ، نسيا كل هذا الا فى لحظة توقف فيها ذو العين الواحدة ليعلق جراحه المتجمدة ٠ وفى تلك اللحظة زمجر ذو العين الواحدة وانتصب شعر عنقه وكتفيه عن غير قصد وعندما قبع ليقفز تشنجت مخالبه فوق الجليد وهى تحاول تثبيت وقفتها ٠ ولكنه نسى كل شىء عندما ركض وراء الذئبة التى كانت تسبقه فى اغراء نحو مطاردة فى الغابات ٠

وبعد ذلك أخذا يعدوان جنبا الى جنب كصديقين حميمين تفاهما معا ومرت الايام وحافظا على المعاشرة يصيدان معا ويقتلان معا ويأكلان معا · وبعد أن انقضى وقت أحست الذئبة بالقلق وبدا عليها انها تبحث عن شيء لا تستطيع العثور عليه وبدت التجاويف تحت الاشجار الساقطة تجذبها وأخذت تقضى وقتا طويلا فى التشمم عند شقوق الصخور الكبيرة التى يتكوم الثلج فوقها وعند الكهف في الشواطىء العالية · ولم يكن ذو العين الواحدة مهتما بشيء من ذلك ولكنه كان يتبعها راضيا في بحثها ، وعندما يطول بحثها في أماكن معينة بصورة غير عادية يرقد وينتظر حتى تستعد للذهاب ·

ولم يمكثا في مكان واحد بل استمرا يتنقلان عبر البلاد حتى عادا الى نهر ماكنزى وعبراه فى بطء ومضيا يصيدان طعامهما عند الغدران الصغيرة التى تصب ماءها فى النهر ثم يعودان الى النهر · وكانا يلتقيان أحيانا بذئاب أخرى كانت أزواجا أزواجا ولكن لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الود أو الرضا عن مثل هذا اللقاء كما لم تكن هناك رغبة في العودة الى حياة القطيع · والتقيا عدة مرات بذئاب منفردة هى دائما من الذكور التى تصر على الانضمام الى ذى العين الواحدة وانثاه· ولكنه كان يشمئز من هذا وينفر منه · وعندما تقف الذئبة معه كتفا الى كتف وتكشف له عن أنيابها يتراجع الذكر المؤمل ويدير ذيله ويمضى فى طريق عزلته ·

وفى ذات ليلة مقمرة كانا يجريان في غابة هادئة اذ توقف ذو العين الواحدة فجأة ورفع أنفه فى الهواء وتصلب ذنبه واهتزت خياشيمه وهو يتشمم الهواء محاولا فهم الرسالة التى حملها اليه الهواء · أما الذئبة فقد اكتفت بتشمم الهواء مرة واحدة وأخذت تعدو مطمئنة وبالرغم من أنه تبعها فأنه ظل متشككا ولم يستطع الامتناع عن التوقف من وقت لآخر لبحث هذا النذير بعناية أكبر ·

وزحفت الذئبة فى حذر على حافة مكان مكشوف فسيح بين الاشجار وقضت بعض الوقت واقفة وحدها وعندئذ لحق بها ذو العين الواحدة وهو يزحف في اصرار وقد تنبهت حواسه كلها وانتصب شعره وتذبذبت كل شعرة منه تذبذب الشك الذى لا ينتهى · ووقفا جنبا الى جنب يرقبان وينصتان ويتشممان ·

واستثيرت الذئبة بصورة غريبة وتشممت الهواء وزادت التشمم بابتهاج متزايد ولكن ذا العين الواحدة ساوره الشك وكشف عن خوفه وأخذ يستعد للذهاب · واستدارت هى ولمست عنقه بفمها بصورة

مطمئنة ثم نظرت ثانية الى المخيم . وبدت الرغبة مرتسمة على وجهها ولكنها لم تكن رغبة الجوع بل كانت رغبة أخرى حفزتها على المضى قدما لتكون على كثب من النار ولتتشاجر مع الكلاب متحاشية تعثر أقدام الرجال بها .

ومضى ذو العين الواحدة بجوارها فى قلق وسرى قلقه منه اليها . وعرفت ثانية حاجتها الماسة الى العثور على الشىء الذى تبحث عنه واستدارت وعادت تركض الى داخل الغابة مما دفع ذا العين الواحدة الى شعور كبير بالراحة وسبق رفيقته بركضه حتى أصبحا فى مأمن تحت الاشجار .

وبينما كانا ينزلقان بلا صوت وكأنهما ظلان يتحركان فى ضوء القمر عثرا على اثار شىء هارب ومال أنفاهما على الاثار التى كانت حديثة وسبق ذو العين الواحدة فى حذر رفيقته وهى فى أعقابه . وبسطا مخالبهما . وشاهد ذو العين الواحدة حركة غامضة لشكل أبيض ظاهر وسط بياض الثلج وأسرع بالجرى .

وأخذا يجريان فى الدرب الضيق الذى احاطت به من الجانبين شجيرات التنوب الفضى الصغيرة . وكان من الممكن رؤية اخر الدرب من خلال الاشجار وضوء القمر يغمره . وضاقت المسافة بين ذى العين الواحدة والشكل الابيض الهارب أمامه . ها هو الان على كثب منه ووثبة أخرى ويغرس اسنانه فيه . ولكنه لم يقم بهذه الوثبة فقد ارتفع ذلك الشكل الابيض عاليا جدا فى الهواء وكان أرنبا أبيض وهبط على الارض ثم قفز عاليا فى الهواء مرة أخرى .

وتراجع ذو العين الواحدة بقفزة الى الوراء فى خوف مفاجىء ثم انكمش على الارض وقبع مكشرا عن أنيابه وزمجر مهددا ذلك الارنب الذى اثار فيه خوفا لا يفهمه ولكن الذئبة تجاوزته ومضت تتم الصيد وتوقفت لحظة ثم قفزت فى الهواء تلحق بالارنب الراقص وهو فى الهواء ولكنها لم تبلغ فى ارتفاعها ما بلغه الارنب وأطبقت فكيها فى فرقعة معدنية وقفزت قفزة أخرى فثالثة .

واسترخى رفيقها فى جلسته وأخذ يرقبها . وأعرب عن عدم رضاه عن فشلها المتكرر بأن قام هو بالتجربة وقام بقفزة كبيرة وأطبق فكيه على الارنب المتكور وعاد به الى الارض ولكن كانت هناك حركة فرقعة مثيرة للشك ورأى فى دهشة غصنا رطبا من أغصان شجرة التنوب الفضى وقد مال فوقه ليضربه فأخلى فكيه عن الارنب وكشر عن

أنيابه ونفش شعره في هياج الخائف وفي تلك اللحظة اعتدل غصن الشجرة الرطب وعاد الارنب يرقص فى الهواء ثانية ٠

وغضبت الذئبة وغرست أنيابها فى كتف رفيقها مؤنبة وخاف هو ولم يدر سبب هذا الهجوم الجديد فهجم على الذئبة هائجا وانتزع بأنيابه جزءا من أنفها وهو في خوف أكبر ٠ ولم تكن تنتظر منه أن يستاء من مثل تأنيبها هذا ولهذا هاجمته غاضبة مزمجرة مكشرة عن أنيابها ٠ وعندئذ أدرك غلطته وحاول تهدئتها ولكنها استمرت فى تأديبه حتى كف عن جميع محاولات التهدئة وأخذ يدور في دائرة وهو يبعد عنها وجهه معرضا كتفيه ليتلقى عقابها بأسنانها ٠

وفي نفس الوقت ظل الارنب يرقص فوقهما ٠ وجلست الذئبة على الجليد وعاد ذو العين الواحدة الى الوثب نحو الارنب وهو الآن أشد خوفا من رفيقته من غصن الشجرة الغامض ٠ واذ عاد بالارنب بين أسنانه ظل موجها نظراته الى غصن الشجرة الذى تبعه كما فعل فى المرة السابقة وظل قابعا على الارض مترقبا ضربة الغصن القادمة له وقد وقف شعره الا أن انيابه ظلت مطبقة على الارنب ٠ ولم يصل الغصن المهتز اليه وان بقى منحنيا فوقه ٠ وعندما تحرك الذئب تحرك الغصن معه وزمجر بين فكيه المطبقين على الارنب وبقى ساكنا وظل الغصن ساكنا لا يتحرك وخرج الذئب من هذا بأن الاسلم له أن يظل ساكنا ٠ ومع ذلك فقد كان لدم الارنب الدافىء مذاق ممتع فى فمه ٠

وخلصته انثاه من الورطة التى كان فيها بأن أخذت الارنب منه ٠ وظل الغصن يتأرجح فوقها مهددا بينما انتزعت هى بأنيابها رأس الارنب من جسده بهدوء ٠ وارتفع الغصن الى فوق على الفور ولم يعد مصدر ازعاج لهما اذ احتفظ بالوضع الذى أرادته الطبيعة له وعندئذ أقبل الذئبان على التهام الارنب الذى صاداه ذلك الغصن لهما ٠

وكانت هناك ممرات ودروب أخرى تتراقص فيها الارانب على الاغصان المتحركة المرنة والذئبان يتصيدانها الذئبة تقود صاحبها وهذا يمضي فى أعقابها مراقبا متعلما طريقة السلب والنهب ، وصارت هذه المعرفة سندا له فى الايام المقبلة ٠

الفصل الثانى
العـــرين

وظلت الذئبة والذئب ذو العين الواحدة قريبين من المخيم الهندي . وكان المخيم مزعجا ومخيفا للذئب ولـكنه ظل مغريا لرفيقته فـلم تعد راغبة فى الرحيل . ولكن عندما ملأت أصوات طلقات البنادق الهواء عن قرب ذات صباح واصطدمت رصـاصة بجـذع شـجرة على بعد بضع بوصات من رأس ذى العين الواحـدة لم يترددا فى وجـوب الرحيل . ومضيا بعيدا وهما يتخطران فقطعا عدة أميال أبعدتهما عن مصدر الخطر

ولم يبتعدا كثيرا ـ اذ لم يقطعا اكثر من مسيرة يومين . وأصبحت حاجة الذئبة الى العثـــور على الشىء الذى تبحث عنه الآن ماسة جدا . واصبحت ثقيلة جدا ولم تعد قادرة على العـدو السريع . وفى ذات مرة طاردت أرنبا وكان من الممكن فى الظروف العادية أن تمسكه بسـهولة ولكنها كفت عن الاستمرار فى المطاردة ورقدت لتستريح وجاء اليهـا ذو العين الواحدة ولكن عنـــدما لمس عنقهـا بأنفه فى رفق كشرت له عن أنيابها بوحشية سريعة جعلتــه يتعثر فى تراجعه الى الوراء بصـــورة مضحكة هربا من أنيابها . وأصبحت الآن سريعــة الغضب على نحو لم تكن عليه من قبل ولكنه أصبح أكثر صبرا وقلقا .

ثم وجدت الشىء الذى تبحث عنه وكان على بعد بضعة اميال بالقرب من غدير صغير يصب ماءه خلال اشهر الصيف فى نهر ماكنزى . ولكن الغدير كان وقتئذ متجمدا ابتداء من مصـــبه فى النهر حتى منبعه فى الجبل . كان غديرا ميتا جامدا أبيض . وركضت الذئبة وهى متعبـة ورفيقها يسبقها حتى وصلا الى شاطىء مغلق من الطمى والتفتت جانبـا ومضت نحوه وكانت عواصف الربيع وذوبان الثلوج قد غسلت ما تحت الشاطىء وجعلت فى مكان منه كهفا صغيرا ضيق المدخل .

ووقفت عند فوهة الكهف ونظـــرت الى جوانبه بعناية ثم ســارت بجوار جانب الكهف وجرت بجوار الجانب الآخر على طول قاعدة الكهف. واخيرا عادت الى الفوهة الضيقة ودخلت منها وقد أحنت رأسها وثنت قائمتيها الاماميتين اذ لم يزد ارتفاع الفوهة عن ثلاثة أقدام . وبعد أن

اجتازتها وجدت داخل الكهف أكثر اتساعا واستدارة حتى بلغ قدرها ستة أقدام • وكان الكهف جافا ومريحا • وفتشته بعناية بينما وقف ذو العين الواحدة عند المدخل يرقبها فى صبر • ومالت برأسها على الارض ومضت نحو نقطة قريبة من ساقيها الخلفيتين المتلاصقتين وأخذت تدور حول هذه النقطة عدة مرات ثم تنهدت من أثر التعب ورقدت على الارض موجهة رأسها نحو مدخل الكهف • وضـــحك ذو العين الواحدة ورفع اذنيه فى اهتمام ورأت هى ذيله يهتز فى طيبة • ومالت اذناها هى الى الوراء فى راحة ودعة وفتحت فمها وتدلى لسانها فى راحة وبهذه الطريقة أعربت عن رضاها •

وكان ذو العين الواحدة جائعا • وبالرغم من أنه رقد عند المدخـل ونام فان نومه كان متقطعا • وظل متيقظا وقد نصب أذنيه ناحية العالم المتألق فى الخارج حيث كانت شمس ابريل متألقة على الجليد حتى اذا غلبه النعاس ظلت اذناه منتبهتين تلتقطان صوت رقرقة الماء الجارى فى النهر فنهض وأنصت بانتباه • وعادت الشـــمس • وكان عالم الشمال كله يناديها ودبت الحياة فى تلك المنطقة • وكانت روح الربيع مهيمنة على الجو والاحساس بالحياة الناميـة تحت الجليـــد ورحيق النباتات يصعد من الارض فى جذوعها والبراعم تنفض الثلج عن أكمامها •

ونظر الى رفيقته نظرات قلق • ولكنهـــا لم تظهر أية رغبـة فى النهوض ونظر الى الخارج وحلقت بعض طيور الجليد • وبدأ النهوض ثم عاد ينظر الى رفيقته وقبع ثانية وراح فى نعـاس • وعنـدئذ سمع طنينا دقيقا • ومســـح انفه بكفه مرة فثـــانية فثالثة وهو ناعس ثم استيقظ فوجد بعوضة تطن فى الهـواء أمام أنفـه • وكانت بعوضــة كاملة النمو • بعوضة ظلت راقدة متجمدة طول فصل الشتاء فوق كتلة خشبية جافة واذابت الشمس منها جمودها • ولم يعد مستطيعا مقاومة نداء العالم • وفضلا عن ذلك كان جائعا •

وزحف داخلا الكهف نحو رفيقته وحاول اقناعها بالنهوض ولكنهـا لم تفعل أكثر من أن كشرت له عن أنيابها فخرج وحيدا الى اشعة الشمس المشرقة ووجد السطح الجليـــدى قد لان تحت أقـدامه والسير فوقه صعبا • وغاب ثمانى ســـاعات وعاد فى الظلام وهو اشـد جوعا منه عندما بدأ رحلته ـ وجد صيدا ولكنه لم يمسكه اذ أنه كسر بثقله قشرة الجليد التى تغطى الماء فغاص فى الماء بينما استطاعت الارانب بخفتهـا المضى فوق تلك القشرة كشأنها دائما •

ووقف عند فوهة الكهف وقد ساوره شك مفاجيء · سمع من داخل الكهف اصواتا غريبة خافتة · ولم تكن هذه الاصوات صادرة من رفيقته ومع ذلك فهي أصوات مألوفة من بعيد · وزحف على بطنه داخلا الكهف على حذر وقابلته زمجرة محذرة من الذئبة وازعجه هذا لانه وان كان قد اطاع أمرها بالبقاء حيث هو على بعد منها الا أنه ظل مهتما بالاصوات الاخرى الخافتة المكتومة ·

وأبعدته الذئبة الى خارج الكهف فطوى جسمه ونام عند المدخل وعندما جاء الصباح وتسلل الضوء الخافت الى داخل العرين حاول معرفة مصدر تلك الاصوات المألوفة من بعيد · وكانت في زمجرة الذئبة نغمة جديدة · انها نغمة الغيرة فراعي فى دقة أن يكون بعيدا · وبالرغم من ذلك فأنه ميز خمسة اكياس صغيرة من الحياة غاية فى الضعف قد اتخذت مأوى لها بين سيقان الذئبة وهي تصدر نهنهة خافتة ولها اعين مغمضة لا ترى الضياء ودهش · لم تكن هذه هي المرة الاولى فى حياته الطويلة الناجحة التي يحدث فيها مثل هذا الشيء بل حدث عدة مرات من قبل ومع ذلك كانت له فى كل مرة جدته وفى كل مرة أثار دهشته ·

ونظرت رفيقته اليه في قلق وأخذت تزمجر زمجرة خافتة من لحظة لاخرى · وبدا لها أحيانا أنه اقترب منها أكثر مما يجب فارتفع صوت زمجرتها وازداد حدة · وهي لا تذكر حدوث شيء من هذا فى ماضيها فتجربتها خالية تماما من مثل هذا الشيء ولكنها فى ضوء غريزتها التى هي ثمرة تجارب كل أمهات الذئاب تذكر آباء عديدين أكلوا صغارهم الضعاف ولقد اثارت الغريزة فى أعماقها خوفا شديدا دفعها الى منع ذى العين الواحدة من الاقتراب منها ورؤية صغاره ·

ولكن لم يكن هناك خطر فان ذا العين الواحدة كان مدفوعا الى رؤية صغاره بغريزة ورثها عن آبائه الذئاب ، وهو لم يناقش هذه الغريزة ولم يشغل نفسه بها اذ هى موجودة في السجية ومن الطبيعى جدا أن يطيعها وأن يدير ظهره لاسرته الحديثة وأن يعدو بعيدا فى طريق الصيد الذى يعيش عليه ·

وعلى بعد خمسة أميال أو ستة من العرين تفرع الغدير عدة فروع بين الجبال بزوايا قائمة ومضى على الفرع الايسر حتى رأى أثرا جديدا وتشممه ووجد أنه حديث جدا فقبع على الجليد بسرعة ونظر فى الناحية التى اختفى فيها ثم استدار وسار متتبعا الفرع الايمن · وكانت آثار

الاقدام أكبر من آثار أقدامه فعرف أن لا أمل له في الحصول على أي صيد في أعقاب مثل هذا الاثر .

وبعد أن قطع نصف ميل على طول الفرع الايمن التقطت اذناه صوت اسنان تقضم الخشب فمضى في أثر الصيد ووجد هذا الصيد فاذا هو قنفد كبير الحجم واقف على ساقيه الخلفيتين مستند الى شجرة يقضم لحاءها بأسنانه . واقترب الذئب ذو العين الواحدة بحذر ولكن بلا أمل . ذلك أنه كان يعرف هذا النوع من الصيد وان لم يسبق أن التقى به من قبل في هذا الاقليم الشمالي كما أنه لم يسبق له أن اتخذ منه طعاما له . ولكنه كان يعرف على ضوء خبرته الطويلة أن هناك شيئا اسمه الحظ . واستمر في الدنو من الفريسة ولم يكن هناك أي دليل على ما عساه قد يحدث لان ما يقع من الاحداث يختلف دائما عما يتوقع له .

وتكور القنفد حول نفسه ونشر أشواكه الحادة في كل اتجاه متحديا بذلك أي هجوم من أية ناحية . وكان ذو العين الواحدة في شبابه قد اقترب ذات مرة من كرة ساكنه كهذه ذات اشواك واندفع من تلك الكرة ذيل شائك في وجهه وغرست احدى اشواك ذلك الذيل في أنفه ومضى بها وهي في أنفه وظلت عدة اسابيع وهي تؤلمه ألما شديدا حتى سقطت وحدها . ولهذا ظل راقدا في وضع مريح وأنفه على بعد قدم واحدة من القنفد ولكنه بعيد عن خط الذيل وظل هكذا منتظرا محتفظا بهدوئه التام . من يدري فقد يحدث شيء ما . كأن ينبسط القنفد فتكون هناك فرصة لان يغرس مخلبه بمهارة في بطن القنفد الناعمة الرقيقة .

وبعد انقضاء نصف ساعة نهض وزمجر غاضبا على الكرة الساكنة ومضى . وقد حدث كثيرا من قبل أن انتظر طويلا بلا جدوى . وعلى ضوء هذه التجارب عرف أنه لا جدوى في الانتظار ومضى على الطريق الايمن . وطال به النهار ولم يأت صيده بنتيجة .

وكان دافع غريزة الابوة فيه قويا ولابد أن يجد لحما . وحدث بعد الظهر أن وقع على طائر القطا بعد أن خرج من أكمة كثيفة . وكان الطائر البطيء الفهم واقعا على كتلة من الخشب على بعد قدم واحدة من أنف الذئب . ورأى كلاهما الآخر . وحاول الطائر أن يطير ولكن الذئب ضربه بمخلبه وأوقعه على الارض ثم قفز عليه وأمسكه بأسنانه حين تحرك محاولا النهوض ثانية . ولما غاصت أنيابه في لحم الطائر وعظمه

الرقيق بدأ يأكله طبعا ولكنه تذكر فاستدار عائدا ادراجه نحو عرينه حاملا طائر القطا بين اسنانه ٠

وبعد أن قطع مسافة ميل وهو يمضى بأقدامه بخفة كعادته كظل ينزلق على الجليد مترقبا أى أثر جديد تقع عينه عليه ورأى آثار الاقدام الكبيرة التى كان قد رآها فى الصباح المبكر تعقب الاثر مستعدا لمواجهة صاحبها عند كل ثنية من ثنيات الغدير ٠

وتسلل برأسه حول ركن صخرة حيث ينحدر الغدير انحناءة كبيرة بصورة غير عادية والتقطت عيناه السريعتان شيئا جعله يقبع بسرعة كان ذلك الشيء هو صاحب الاثر ٠ ذلك الشيء هو أنثى الفهد ٠ كانت قابعة أمام الكرة الشائكة فى نفس الوضع الذى كان هو فيه صباح ذلك اليوم ٠ وان كان ظله ينزلق على الجليد من قبل فأنه أصبح الآن شبحا لهذا الظل فى زحفه ودورانه مع الريح حول الصخرة وأصبح فى موقف يرى منه الحيوانين الساكنين الصيد والصائدة ٠

رقد على الجليد واضعا طائر القطا بجواره مطلا بعينيه من خلال اشواك نبات التنوب الفضى الصغير على أحد مظاهر الحياة أمامه فأنثى الفهد المنتظرة والقنفد المنتظر كلاهما حريص على حياته وهذا هو موضع العجب فى تلك اللعبة ٠ تقوم حياة أحد الحيوانين على أكل الاخر وتقوم حياة الآخر على النجاة بحياته من أن يأكله الاول ٠ وبينما كان الذئب ذو العين الواحدة قابعا فى مخبئه يؤدى دوره هو الآخر ينتظر فرصة فريدة غريبة قد تساعده فى الحصول على صيد وهذه هى طريقته فى الحياة ٠

ومر نصف ساعة ثم ساعة دون أن يحدث شيء ٠ ولم تتحرك كرة الاشواك وكأنها حجر اصم وبدت أنثى الفهد وكأنما قد تجمدت كتمثال من رخام وبدا الذئب العجوز ذو العين الواحدة كأنه ميت ٠ ومع ذلك فقد ظلت الحيوانات الثلاثة شديدة الانتباه واليقظة وقد اشتد فيها توتر الحياة الذى بلغ حد الايلام ٠ ولم يخطر لاحدها أن يكون أكثر حيوية فى أى وقت ما منه فى موقفه ذلك الذى يبدو فيه متحجرا ٠

وتحرك الذئب ذو العين الواحدة قليلا وأطل وحدد بصره فقد حدث شيء وقتئذ ذلك أن القنفد الكبير قرر أخيرا أن عدوته قد ذهبت بعيدا عنه وأخذ يبسط كرة درعه الحصين فى بطء وحذر ولم تختلج فيه أية جارحة من أثر ترقب ٠ وانبسطت كرة الشوك وطالت وأخذ الذئب ذو العين الواحدة يرقب ما يحدث بدقة ويقظة ٠ وسال لعابه فجأة عن غير قصد وقد أثاره منظر اللحم الحى وهو ينتشر أمامه كوجبة غذائية تعد نفسها لكى يلتهمها ٠

ولم يتم القنفد انبساطه تماما اذ اكتشف وجود عدوته · وفى تلك اللحظة وجهت أنثى الفهد ضربتها فى سرعة البرق · وكانت مخالبها الصلبة مثنية كأنها كلابات قد انطلقت تحت البطن الرقيقة وعادت فى حركة انتزاع سريعة · ولو أتم القنفد بسط جسده أو لو انه لم يكتشف عدوته قبيل الضربة فى لمحة من ثانية قبل أن توجه اليه ضربتها لما أصاب قدم أنثى الفهد ضرر ولكن القنفد وجه ذيله المدبب فجأة وبقوة الى داخل تلك القدم أثناء انسحابها ·

وقد حدث كل هذا فى وقت واحد ـ الضربة والضربة المضادة وصيحة الالم الصادرة من القنفد وصيحة الالم الصادرة من أنثى الفهد التى ادهشها هجوم القنفد · ونهض الذئب ذو العين الواحدة من أثر الانفعال ونصب أذنيه وانتصب ذيله وارتعش · وضاقت انثى الفهد بما حدث لها فقفزت فى وحشية على ذلك الذى سبب لها كل هذا الالم · ولكن القنفد ظل يصرخ ويزمجر وقد مزق بعض جسده وحاول أن يكور نفسه ثانية ليكفل حمايته وهو فى خلال ذلك يضرب بذنبه أنثى الفهد مرة بعد أخرى فاخذت تعوى ألما ودهشة · وعندئذ أخذت تتراجع وهى تعطس اذ امتلأ أنفها بأشواك القنفد حتى أصبح كوسادة دبابيس وحكت انفها بساقها محاولة اخراج الاشواك من جلد أنفها ووجهها ولما لم يجدها هذا نفعا حكت أنفها فى الجليد وفى النباتات القصيرة الصغيرة وفروع الاشجار وهى فى خلال ذلك تثب علوا وسفلا ويمينا وشمالا فى جنون الالم والخوف ·

واستمرت تعطس بصفة متصلة وذيلها القصير يبذل قصارى جهده فى التحرك العنيف القصير · وكفت عن حركاتها الجنونية وهدأت مدة طويلة · وأخذ الذئب ذو العين الواحدة يرقب ما يحدث ولم يستطع كبت فزعه بل ان شعر قفاه وظهره كله وقف منتصبا فى الهواء بالرغم منه حين قفزت أنثى الفهد فى الهواء وهى تعوى فجأة عواء طويلا رهيبا ثم مضت تعدو وهى تعوى مع كل وثبة تثبها ·

ولم يتحرك الذئب ذو العين الواحدة من مكانه الا بعد أن ابتعد عواؤها واختفى تماما · ومشى برقة وحذر كما لو كان الجليد كله يغطى بالاشواك المنتصبة المستعدة لان تنفذ فى كفه الناعمة · واستقبله القنفد بصراخ هائج وصرير اسنان · وكان القنفد قد استطاع أن يكون من نفسه كرة اشواك من جديد ولكن هذه الكرة لم تكن كاملة على النحو الذى كانت عليه من قبل اذ كانت عضلاته اضعف من أن تستطيع ذلك بعد أن انشطرت شطرين وأخذ الدم ينزف منها بغزارة ·

وملأ الذئب ذو العين الواحدة فمه بالجليد المخضب بالدم ومضغه وتذوقه وابتلعه وفتح هذا شهيته وزاد احساسه بالجوع زيادة كبيرة ولكنه كان قد تعلم خلال عمره الطويل من الحكمة ما يجعله لا يتخلى عن الحذر · وانتظر ورقد وانتظر والقنفد يقرض أسنانه ويزمجر ويتأوه ويصرخ صرخات جادة بين آونة واخـــرى · ولاحظ الـذئب ذو العين الواحدة أن الاشواك تتساقط من جلد القنفد الذى أخذ يرتعد ارتعادا شديدا وانتهت الرعدة فجأة وومضت اسنانه الطويلة فى تحد نهائى · وتجرد جلده من كل اشواكه واسترخى الجسد وخمدت حركته ·

وبسط الذئب ذو العين الواحدة مخلبه العصـــبى نحو القنفد ومده على طول امتداده ثم قلبه على ظهره ولم يحدث شىء · كان ميتا من غير شك وفحصه بعناية مدة لحظة ثم قبض عليه بفكيـه ومضى على طـول الغدير وهو بين حامل للقنفد وجار له مائلا برأســـه جانبا محاذرا أن يدوس بأقدامه تلك الكتلة الشائكة ، وتذكر شيئا واسقط حمله على الارض ورجع عائدا الى حيث ترك طائر القطا ، ولم يتردد لحظة اذ كان يعرف كل المعرفة ما يجب عليه عمله فعمـــل ما يجب وذلك بأن التهم طائر القطا ثم عاد يحمل حمله ·

وعندما جر ثمرة صيد يومه الى داخل الكهف فحصت الذئبة هذا الصيد ورفعت وجهها نحوه ولعقت عنقه بخفة · ولكنهـــا فى اللحظة التالية ابعدته عن صغارها بتكشيرها عن أنيابها ولكنه تكشير أقل عنفا منه فى المرات السابقة ويحمل من معنى الاعتـــذار أكثر مما يحمل من معنى التهديد · وكان خوفها الغريزى من والد جرائها قد خفت درجته اذ كان سلوكه هو الســـلوك الواجب من ذئب أب ولم يظهر أية رغبة خبيثة فى التهام الجراء الصغيرة التى جاءت بها الى الحياة ·

الفصل الثالث
الجرو الأغبر

كان يخالف أخويه وأختيه فهؤلاء ورثوا عن أمهم أنثى الذئب ذلك اللون الاحمر فى أديمهم أما هو وحده فقد ورث عن أبيه اللون الاغبر كان وحده الجرو الاغبر فى ذلك المهد ، وكان صادقا مع تراث السلالة الذئبية وكان فى الواقع أصيلا صادقا فى انتسابه الى الذئب ذى العين الواحدة نفسه من الناحية البدنية باستثناء شىء واحد فحسب وهو أن له عينين بينما لأبيه عين واحدة ·

ولم تكن عينا الجرو الاغبر مستطيلتين فى فتحتيهما ومع ذلك كان مستطيعا أن يرى بوضـــوح بل انه قبــل أن يفتح عينيه كان يحس ويتذوق ويشم وعرف أخويه وأختيه معرفة تامة وبدأ يمرح معهما على نحو ضعيف غير متقن بل وبدأ يتشـــاجر معهما ويهتز حلقه مصـــدرا صوتا مجلجلا عميقا ـ هو مقدمة الزمجرة ـ عندما ينفعـــل وقبل أن يفتح عينيه بوقت طويل عرف عن طريق اللمس والتذوق والشم أن أمه ينبوع الدفء والطعام السائل والحنان وأن لها لسانا رقيقا وديعا مهدئا وهو يمر على جسده الصغير الناعم مما كان يدفعه الى الاقتراب منهـــا حتى يلاصقها ويروح فى النعاس ·

وقضى الشهر الأول من حياته على هذا النحـــو فى النوم · ولكنه الآن يستطيع أن يرى جيدا ويقضى مستيقظا فترات من الزمن اطول مما كان يقضيه مستيقظا من قبل وبدأ يتعلم عالمه جيدا · كان عالمه مكفهرا ولكنه لم يعرف ذلك لانه لم يعرف عوالم أخرى حتى يقارنه بها · وكان عالمه معتم الضوء ولكن عينيه لم تلائما من قبل بين نفسيهما وأية اضاءة اخرى وكان عالمه صغيرا جدا حدوده هى جدران العرين ولكن لانه ليس لديه أية معرفة بالعالم الفسيح خارج العرين فانه لم يشعر بأى ضـــيق ازاء ما يحد وجوده ·

ولكنه كان قد تبين فعـــلا أن أحد جدران عالمه يختلف عن بقيـــة الجدران ذلك الجدار هو مدخل الكهف ومصدر الضوء · وقد تبين هذا الاختلاف قبل أن تتكون لديه آراء خاصة به أو ارادة واعية · وقد آثار مدخل الكهف انتباهه بصورة قوية لا تقاوم قبل أن يفتح عينيه وينظر

اليه اذ كان الضوء الآتي منه يلمس جفنيه المغمضتين فكانت عيناه وأعصابه البصرية تنبض بتأثير ومضات صغيرة كأنها الشرر بلونها الدافيء وما تبعثه من رضا غريب ، والى هذا الضوء هفت حياة جسده وكل ألياف هذا الجسد ، الحياة التى كانت مادة جسده وجزءا من حياته الشخصية كما كان هذا الضوء يجذب جسده نحوه على نفس النحو الذى تقوم به الكيمياء البارعة فى النبات لتدفع به نحو الشمس

وكان يزحف دائما نحو مدخل الكهف فى البداية وقبل أن يطلع فجر حياته الواعية . وكان اخواه وأختاه تحذو حذوه . ولم يحدث قط فى تلك الفترة أن زحف واحد من تلك الجراء نحو الأركان المظلمة فى الجزء الخلفى من الكهف . اذ كان الضوء يجتذبها كما لو كانت نباتات. كانت كيمياء الحياة التى تدخل في تكوينها تتطلب الضوء كاحدى ضروريات الكيان . وكانت اجسامها الصغيرة تزحف كيمائيا وبلا حاجة الى بصيرة وكأنما هى أطراف شجيرة العنب وبعد أن أخذ كل من هذه الجراء فى النمو منفصلا عن أخوته واصبح يدرك شخصيا الدوافع والرغبات زاد اجتذاب الضوء لها واخذت تزحف وتمتد بصفة دائمة نحو الضوء حتى تصدها أمها عن مدخل الكهف .

وعلى هذا النحو تعلم الجرو الصغير الأغبر عن أمه اشياء أخرى غير لسانها الناعم المهدىء وتبين أثناء اصراره على الزحف نحو الضوء أنفها الذى كانت تدفعه به مؤنبة اياه ثم اكتشف فيما بعد قدمها التى توقعه أرضا وتجعله يتدحرج عدة مرات وبهذا تعلم الألم وتعلم ضرورة تحاشي الآلم وذلك بعدم الاقبال على المخاطرة بما يسببه أما اذا هو أقبل على المخاطرة فان عليه أن يبتعد وأن يتقهقر وهذه أعمال واعية جاءت نتيجة لاصداره أحكاما عامة على العالم . أما قبل ذلك فأنه كان ينكمش تلقائيا من الاذى كما كان يزحف تلقائيا نحو الضوء وبعد ذلك أخذ ينكمش من الاذى لأنه اصبح يعرف أنه أذى .

وكان جروا صغيرا عنيفا وهكذا شأن أخويه واختيه وهو أمر يجب توقعه ، وكان الى ذلك حيوانا من أكلة اللحوم اذ هو من سلالة أكلة اللحوم المفترسة وأبوه وأمه يعيشان على أكل اللحوم بل ان اللبن الذى ارتضعه صغيرا لبن محول مباشرة من اللحوم والآن وقد أتم شهرا من حياته وفتح عينيه منذ أسبوع تقريبا بدأ هو نفسه أكل اللحوم التى هضمتها أمه نصف هضم ثم ردته الى الجراء الخمسة النامية بعد أن أجهدت أثداءها بارضاعها .

ولكنه كان فضلا عن ذلك اشد الجراء وحشية وزمجرته أعلى صوتا

من زمجرة أى جرو آخر من أخوته كما كان اسبقها الى تعلم دحرجة جرو آخر بضربه بكفه ضربة بارعة،وأسبقها الى امساك اذن جرو آخر وايقاعه على الارض وجره وهو يزمجر من خلال فكيه المطبقين بأحكام وهو الذى يسبب لأمه أكبر نصيب من الازعاج بمحاولتها ابقاءه بعيدا عن مدخل الكهف ٠

وزاد سحر الضوء للجرو الأغبر يوما بعد اخر ٠ وكان دائم التقدم نحو مدخل الكهف مسافة باردة فى مغامراته اليومية والتعرض للردع ٠ ولم يكن يعرف أنه المدخل لآنه لا يعرف شيئا عن المداخل أو الممرات التى يمضى فيها الواحد من مكان الى اخر ولم يكن يعرف أى مكان آخر حتى يعرف طريقا يؤدى الى مكان آخر ٠ وهكذا كان مدخل الكهف عنده جدارا ــ جدارا من ضــوء ٠ وكما كانت الشمس عند من يقيم خارج الكهف كان هذا الجدار عنده شمس عالمه فهو يجتذبه اجتذاب الشمعه للفراشة يحاول دائما أن يبلغه والحياة التى تتسع بين جوانحه بسرعة تدفعه باستمرار نحو الضوء والحياة بين جوانحه تعرف أن هذا هو المنفذ والطريق المحتوم اجتيازه ولكنه هو نفسه لم يعرف شيئا عن ذلك ولم يعرف أن فى الخارج شيئا قط ٠

وفى جدار الضــوء هذا شىء غريب فابوه « فقد عرف أباه على أنه الشريك الآخر فى عالمه وهو مخلوق كأمه ينام قريبــا من الضوء وهو الذى يأتى باللحم » يمشى قدما داخل جدار الضوء ويختفى فيه ٠ ولم يســتطيع الجرو الاغبر أن يفهم سر هذا ، وبالرغم من أن أمه لم تسمح له أبدا بالاقتراب من ذلك الجدار فأنه اقترب من الجــدران الاخرى واصطدم أنفه بالحائل الجامد وسبب هذا له ايلاما وبعد أن قام بعــدة مغــامرات من هذا اللون ترك الجدران وشأنها ودون تفكير فى الامر تقبل هذا الاختفاء فى جدار الضوء على أنه احدى خصائص أبيه كما أن اللبن والطعام نصف المهضوم خاصتان من خصائص أمه ٠

ولم يكن الجرو الأغبر فى الحقيقة محبا للتفكير ــ على الاقل التفكير الذى من ذلك النوع المألوف عند البشر ــ اذ أن ذهنه يعمــل على نحو غامض ومع ذلك فان النتائج التى يصل اليها حادة واضحة كالنتائج التى يصل اليها البشر ، وكانت له طريقته فى تقبل الاشياء دون مناقشة سببها ومنشئها لأن هذا فى الحقيقة عمل من اعمــال التصنيف ٠ لم يشغل نفسه أبدا بسبب حدوث شىء ما بل كان يكفيــه أن يعرف كيف حدث هذا الشىء ٠ وهكذا عندما اصطدم انفه بالجدار الخلفى بضــع مرات تقبل حقيقة أنه لن يســتطيع الاختفاء فى الجــدران ولكن هذه

الحقيقة لم تزعجه اطلاقا كما لم يحس أية رغبة فى اكتشاف سبب الخلاف بينه وبين أبيه اذ لم يكن المنطق أو الطبيعيات جزءا من تكوينه العقلى ٠

وشعر بالجوع مبكرا كأغلب المخلوقات البرية وجاء وقت لم يعد يصل اليه فيه اللحم وفضلا عن ذلك كفت أمه عن ارضاعه ٠ وعوت الجراء فى أول الامر ولكنها قضت معظم أوقاتها نائمة ولم يمض وقت طويل حتي راحت فى غيبوبة الجوع ولم تعد هناك منازعات بينها ولم تعد تثور أو تحاول النهنهة بل انها كفت عن القيام بمغامرة الوصول الى الجدار الابيض ٠ ونامت الجراء بينما الحياة تتسرب منها حتى نضب معينها ٠

وخيم القنوط على الذئب ذى العين الواحدة وضرب بعيدا فى صيده ولم يعد ينام الا قليلا فى العرين الذى فقد بهجته وأصبح حافلا بالشقاء ٠ وغادرت الذئبة مهدها هى الاخرى بحثا عن الطعام ٠ وفى خلال الايام الاولى التى تلت وضع الجراء كان الذئب ذو العين الواحدة يمضى نحو المخيم الهندى ويسرق الارانب فلما ذاب الجليد وجرى الماء فى الغدران انتقل المخيم الهندى بعيدا فأغلق فى وجه الذئب هذا المصدر الغذائى ٠

وعندما عادت الحياة الى الجرو الاغبر عاد يهتم بالجدار الابيض البعيد ورأى أبعاد عالمه تتناقص ٠ ولم يبق له سوى أخت واحدة أما بقية اخوته فقد ذهبت ٠ ولما ازداد قوة وجد نفسه مضطرا الى اللعب وحده اذ أن أخته لم تعد ترفع رأسها أو تتحرك فى الكهف ٠ وامتلأ جسده الصغير باللحم الذى أصبح يأكله الآن أما اخته فان الطعام كان يصل اليها متأخرا وظلت نائمة بصفة مستمرة وأصبحت هيكلا عظميا يغطيه أديم تتسرب منه الحياة شيئا فشيئا حتى انتهت هى الاخرى ٠

ثم جاء وقت لم يعد فيه الجرو الأغبر يرى أباه يظهر فى الجدار الابيض ثم يختفى أو راقدا عند المدخل ٠ حدث هذا فى آخر مجاعة اخرى حلت باسرته ولكنها كانت أقل قسوة ٠ عرفت الذئبة سبب عودة الذئب ذى العين الواحدة وكان عليها أن تعنى بالجرو الأغبر ٠ فاخذت تذهب للصيد على طول الفرع الايسر من الغدير حيث كانت أنثى الفهد تقيم ٠ وقضت يوما كاملا فى تعقب أثر الذئب ذى العين الواحدة ووجدته أو وجدت ما تبقى منه فى آخر الطريق حيث كانت عدة دلالات على المعركة التى نشبت بين الذئب ذى العين الواحدة وأنثى الفهد وعلى

انسحاب أنثى الفهد الى عرينها بعد انتصارها . وقبل أن تعود الذئبة وجدت عرين أنثى الفهد ولكن هذه الدلالات دلتها على أن أنثى الفهد داخل عرينها فلم تجرؤ على دخوله .

وبعد ذلك عمدت الذئبة أثناء صيدها الى تحاشى الفرع الايسر لأنها كانت تعرف أن لانثى الفهد جراء فى عرينها وتعرف مبلغ وحشية أنثى الفهد وسرعة غضبها وعنف قتالها الرهيب . اذ لابد من تجمع ستة ذئاب للتغلب عليها أما أن تواجهها وحدها فهذا أمر رهيب وخاصة عندما يكون لانثى الفهد جراء جائعة .

ولكن الوحوش وحوش والامومة أمومة فهى شديدة الحماية لصغارها فى كل الاوقات سواء كان ذلك فى البرية أم خارجها وسيجىء وقت تستطيع فيه الذئبة من أجل جروها الاغبر أن تجرؤ على اقتحام الفرع الايسر والعرين المختبىء فى الصخور وغضبة أنثى الفهد .

الفصل الرابع
جدار العالم

كان الجرو قد تعلم قبل الوقت الذى بدأت أمه فيه مبارحة الكهف فى رحلات صـــيدها ، القـــانون الذى يحرم عليه الاقتراب من مدخل الكهف ولم يفرض هذا القانون عليه بالقوة التى استخدمت عدة مرات عن طريق أنف أمه وكفها فحسب بل لقد نمت فيه غريزة الخوف . ولم يحدث له أثناء الفترة التى قضاها فى الكهف أن صادف شيئا يخـافه ومع ذلك فقد كان الخوف فيه اذ توارثه عن أسلاف سـابقين هم الاف الالاف من الذئاب ، وهو تراث ورثه عن الذئب ذى العين الواحدة ومن الذئبة مباشرة وهما بدورهما تلقياه من أجيال الذئاب السابقة الخوف ! تراث الحياة البرية الذى لا يخلو منه حيوان قط أو يرتضى به بديلا .

وهكذا عرف الجرو الأغبر الخوف ، وأن لم يعرف مادة الخوف . ومن المحتمل أن يكون قد تقبله على أنه أحد قيود الحياة لانه تعلم وجود مثل هذه القيود . وعرف الجوع . وعندما يعجز عن تهـدئة الجوع يحس ذلك القيد . وصلابة جدار الكهف والضربة العنيفة من أنف أمه وكفها كل هذه قيود تعلمها . وادرك من وطأة الجـــوع عدة مرات أنه ليست فى العالم حرية وأن قيودا وحدودا ضربت حول الحياة والاذعان لهذه القيود والحدود انما هو للنجـــاة من الاذى والعمـل على تحقيق السعادة .

ولم يناقش المسألة على هذا النحو الانسانى بل اكتفى بتصـنيف الاشياء ، فهناك اشياء تؤذى واشـــياء لا تؤذى . وبعد أن تم له هذا التصنيف تحاشى الاشياء التى تؤذى ليستمتع بما فى الحياة مما يبعث على الرضا وما فيها من تعويض .

وأبعدته عن مدخل الكهف طاعته للقانون الذى وضعته أمه وطاعته للقانون الذى فرضه ذلك الشىء المجهول والذى لا اسم له وهو الخوف . وظل مدخل الكهف بالنسبة له جدارا أبيض من الضوء فكان ينام معظم الوقت الذى تقضيه أمه غائبة عن الكهف وفيمـا يتخـلل فترات النوم يظل هادئا جدا ، يكبت فى حلقه حشرجة الصياح والزمجرة التى تريد أن تبرحه مثيرة ضجة .

وفيما هو راقد مستيقظ ذات مرة سمع صوتا غريبا فى الجدار الابيض ، ولم يعرف أن صاحبة هذا الصوت ذئبة كانت ترتعد من جرأتها على الاقتراب من هذا العرين وتتشمم فوهة الكهف وكل ما عرفه الجرو هو أن الصوت الصادر من هذا التشمم غريب · شيء لا يدخل فى التصنيف الذى كان قد صنفه ولهذا فهو مجهول ومخيف لأن المجهول من بين العناصر الرئيسية التى يتكون منها الخوف ·

ووقف شعر ظهر الجرو الأغبر ، ولكنه وقف فى صمت ولم تصحبه زمجرة · فكيف عرف أن هذا الشيء الذى يتشمم فى الخارج يجب أن يثير شعر الظهر ؟ انه لم يولد ولديه هذه المعرفة ، ومع ذلك فقد كان هذا هو التعبير عن الخوف الكامن فيه ، والذى لم يكن فى حياته مسبب له بل هو الخوف المصحوب بغريزة أخرى هى غريزة الاخفاء · واصيب الجرو بجنون الرعب ومع ذلك ظل راقدا بلا حركة أو صوت · ظل متجمدا متحجرا وكانه ميت تماما · وعادت أمه وزمجرت حين شمت أثر الذئبة الاخرى واندفعت داخل الكهف ولعقت الجرو بلسانها ، ولمسته بأنفها بحماس عاطفى مبالغ فيه · وأحس الجرو أنه نجا من أذى كبير على نحو ما ·

ولكن ، كانت فى الجرو عوامل أخرى تحركه أكبرها نموه · ان الغريزة والقانون يفرضان عليه الطاعة أما النمو فيفرض عليه العصيان· فرضت أمه لخوفها عليه الابتعاد عن الجدار الابيض والنمو هو الحياة والحياة تتطلب النور · ولهذا فلا يجوز أقامة سد على تيار الحياة المتزايد فى قوته وارتفاعه مع كل وجبة لحم يلتهمها ومع كل نفس يتنفسه · وفى آخر المطاف اكتسحت دفعة الحياة الخوف والطاعة ذات يوم فتمطى ، ومشى قدما نحو مدخل الكهف ،

وعلى خلاف الجدران الاخرى التى جربها من قبل بدا له هذا الجدار يتراجع الى الوراء بمقدار ما يزداد منه قربا · ولم يصطدم أنفه الرقيق الصغير بسطح جبل · وبدت مادة الجدار مطاوعة سهلة الاختراق كالضوء ودخل ما كان يعتبره من قبل جدارا وغاص فى المادة المكونة له ·

وبعث فيه الشعور بالحيرة أنه يتمدد عبر الصلابة · وازداد الضوء لمعانا وحفزه الخوف على العودة داخل الكهف ولكن النمو ساقه الى الخارج · وعلى حين فجأة وجد نفسه عند مدخل الكهف من الخارج ، واذا الجدار الذى ظن نفسه يجتازه يقفز فجأة الى الوراء أمامه ويصبح على بعد هائل لا يمكن قياسه · واصبح الضوء متوهجا بصورة مؤلمة

مبهرا لبصره . كما يهره هذا الاتساع الهائل المفاجىء فى الفضـــاء . وتلاءمت عيناه تلقائيا مع البريق ، وحددتا نظريتهمـــا لمواجهـة بعد الاشياء عنهما وفى أول الامر قفز الجدار الى ما وراء حدود رؤيته ثم عاد يراه ثانية ولكنه تناءى تنائيا ملحوظا كما تغير مظهره وتعددت الوانه وأصبح يضم الاشجار على شاطىء الغدير والجبـــل المواجه له والذى يظهر من فوق الاشجار ، والسماء وهى تبدو فوق الجبل .

وسيطر عليه خوف كبير ، فقـــد كان هذا مزيدا من المجهـــول الرهيب وقبع عند مدخل الـــكهف وحدق النظر فى العـــالم المترامى الاطراف . وكان خائفا خوفا شديدا . ولما كان مجهـولا فانه عدو له ولهذا وقف شعر ظاهر عنقه ، وتقلصت شفتاه بصورة هزيلة فى محاولة تكشيرة وحشية تثير الخوف ، وبدافع من ضالته وخوفه تحدى وهدد العالم كله .

ولم يحدث شىء ، واستمر يحدق النظر ، ونسى فى اهتمـامه هذا أن يكشر عن انيابه كما نسى الخـوف أيضا . وفى تلك اللحظـة اقتلع النمو جذور الخوف عندما اتخذ النمو قناع الفضـــول . وبدأ يلاحظ الاشياء القريبة . رأى جزءا مفتوحا من الغدير وهو يبرق تحت أشـعة الشمس ، وشجرة الصنوبر الواقعة عند قاعدة المنحـدر ، ثم المنحـدر نفسه الذى يأتى نحوه قدما ثم يقف على بعد قـدمين من فوهة الـكهف حيث جلس قابعا .

ظل الجرو الأغبر يقضى حياته كلها على أرض مستوية ولم يعان الم السقوط بل انه لم يعرف ما هو السقوط . وهـــكذا تقدم بجرأة فى الهواء وكانت ساقاه الخلفيتان على طرف فوهة الكهف ولهذا سقط على رأسه على الارض . وصدمته الارض صـــدمة شـديدة فصرخ ثم أخذ يتدحرج على المنحدر ، وظل يتدحرج وأصابه ذعر الرعب . اخيرا لحق به المجهول وأمسكه بوحشـــية وهو على وشـــك أن يلحق به الاذى الرهيب . وها هو الخوف يقتلع الاحساس بالنمـــو من جذوره وأخذ يعوى عواء أى جرو صغير فى المهد حين يخاف .

وحمله المجهول نحو الاذى المخيف ولم يكف عن العـواء وكان هذا أمرا مختلفا عن الجلوس فى خوف متجمد ، والمجهول يتربص به دائما. الآن تمكن منه المجهول وسيطر عليه ، فلا يجدى الصمت وفضلا عن ذلك فان الرعب لا الخوف هو الذى يهزه الآن .

ولكن المنحدر أصبح أكثر تدرجا وأصبح قاعدة مغطـــاة بالعشب

وهنا توقف الجرو عن الاندفاع فأطلق عواء طويلا بثه كل أمله وكأنه نحيب وولولة ومضى يلعق الطمي الجاف الذى لصق بأديمه وينظف هذا الاديم وكأنما قام بهذا العمل من قبل ألف مرة ٠

وجلس بعد ذلك ، وأخذ يحدق النظر فيما حوله كما يفعل الانسان من أهل الارض عند هبوطه على كوكب المريخ لاول مرة ٠ لقد اقتحم الجرو جدار العالم وأطلق المجهول سبيله وها هو الآن دون أذى ، ولكن الانسان حين يهبط على كوكب المريخ لن يجد فيما حوله شيئا أكثر غرابة مما وجد هذا الجرو فيما أحاط به ، دون أن تكون لديه أية معرفة سابقة أو أى تحذير بوجود مثل هذه الاشياء التى يراها وجد نفسه مستكشفا فى عالم جديد عليه كل الجدة ٠

والآن ، وقد أخلى المجهول الرهيب سبيله ، فقد نسى المجهول وأى أهوال أخرى ٠ لم يعد يدرك غير شىء واحد هو الفضول والرغبة فى معرفة جميع الاشياء المحيطة به ٠ فتش العشب تحته ونبات التوت البرى وراءه وجذع شجرة الصنوبر المقطوع والقائم على حافة فضاء مكشوف بين الاشجار ٠ وجرى سنجاب على طول قاعدة جذع الشجرة حتى وقعت فى مواجهته فأصابه بخوف شديد ٠ وانكمش وكشر عن أنيابه ٠ ولكن السنجاب لم يقل خوفا عنه فجرى صاعدا جذع الشجرة حتى اذا بلغ مأمنا أخذ يثرثر بوحشية ٠

وقوى هذا من شجاعة الجرو ٠ وان كان « الحفار » الذى صادفه بعد ذلك قد أفزعه الا أنه مضى فى طريقه قدما وهو واثق بنفسه وبلغت ثقته بنفسه الى أنه حين تقدم منه طائر ملون بكل قحة مد كفه اليه معابثا ٠ وكانت النتيجة أن نقره الطائر فى طرف أنفه بحدة بمنقاره فجعله ينكمش وينهنه ٠ وكانت الضوضاء الصادرة عن الجرو الاغبر أشد مما يحتمل الطائر فلجأ الى الطيران ٠

ولكن الجرو كان يتعلم ، وأخذ عقله الصغير الضبابى يقوم بتصنيف الاشياء بلا وعى ٠٠ هناك أشياء حية وأشياء غير حية وعليه كذلك أن يأخذ حذره من الاشياء الحية ، أما الاشياء غير الحية فهى تبقى دائما فى مكان واحد لا تبرحه بينما الاشياء الحية تتحرك ٠ وليس هناك ما يدل على ما عساها تفعله ، وما يتوقع منها حدوثه ولهذا يجب أن يكون مستعدا ٠

ومضى وهو يسلك فى سيره طريقا أخرق فكان يصطدم بالاعواد الجافة وغيرها من اشياء ٠ وقد يبدو له غصن شجرة بعيدا جدا فاذا به

فى اللحظة التالية يصدمه فى أنفه أو فى ضـــلوعه • ولم يكن سطح الارض مستويا • وكثيرا ما تعثر فى سيره ، ووقع على أنفه أو اصطدمت قدمه بشيء ما ، ثم هناك الحصى والاحجار التى تنقلب به اذا مشى عليها وعرف من ذلك أن الاشياء غير الحية ليست جميعهـا فى حالة توازن مستقر ككهفه ، وأن الاشياء الصغيرة غير الحية أكثر احتمالا للسقوط أو الانقلاب من الاشياء الكبيرة غير الحية ولكنـه تعـلم مع كل حدث سيء • وكلما زاد مشيه أتقن المشى ، وأخـذ يلائم بين نفســه وظروفه الجديدة • تعلم تدبير حركات عضلاته فعرف قيوده البـدنية وقياس المسافات بينه وبين الاشياء •

وكان حظه حظ المبتدئ • انه ولد ليكون صـائدا للحم « وان لم يعرف هو ذلك » وصـــادف اللحـم خارج باب كهفـه فى أول غزو له للعالم • وهى مجرد مصادفة ، تعثر فى عش لطائر القطا مخبوء بعناية كبيرة ذلك عندما حاول المشى على طول جذع شجرة صـنوبر واقع على الارض وهوى لحاء الشجرة المتآكل تحت أقدامه وصاح صـيحة يأس واقـدامه تنزلق حـول الجـذع المســتدير وتغـوص فى أوراق شجيرة وأعوادها حتى بلغت سطح الارض « وسط عش به سبعة من افراخ القطا واصدرت الصفار ضوضاء» واحس الخوف اول ما أحس، ثم أدرك انها صغيرة جدا ، فأصبح اكثر جراة ، وتحرك ووضع كفه على واحد منها فزادت سرعة حركته ، ووجد لذلك متعـة • وشمه والتقطه بفمه فكافح الطائر ، ودغدغ لسان الجـرو الأغبر • وفى نفس الوقت أحس وطأة الجوع ، وأطبق فكيه فكسر عظاما هشه وجرى فى فمه دم دافئ كان له طعم طيب ووجده لحما كاللحم الذى تقدمه أمه له ، نعم انه لحم حى بين اسنانه ولهذا فهو أفضل • وهكذا أكل طائر القطا • ولم يكف عن الاكل حتى اتى على الأفراخ كلها ثم انخفض بأضلعه على نفس النحو الذى تفعله أمه تماما وأخذ يزحف خارجا من تحت الشجيرة •

وصـــادف دوامـة من الريش ، وكان اندفاع الدوامـة ، وضرب الجناحين شديدين الى حد أربكه ، وأعماه فأخفى رأسه بين كفيه وأخذ يعوى • وزادت الضربات ، فقد كانت أم أفراخ القطا ثائرة هائجـة • وعندئذ غضب ونهض وكشر عن انيابه وزمجر ، ورد الضربات بكفيه • وغرس أنيابه الدقيقة فى أحد جناحى الأم ، وأخذ يجذب الجناح بقوة وكافحته أم أفراخ القطا وامطرته بضرباتها من جناحها الطليق • كانت هذه أولى معاركه • وأحس بالزهو ، ونسى كل شيء عن المجهول ، ولم يعد يخاف شيئا بل هو يقاتل ويمزق شيئا حيا يوجه اليه الضربات ،

وهذا الشيء الحي لحم وفيه شهوة القتل ، ومنذ قليل قضى على أشـياء حية صغيرة وسيقضي الآن على شيء حي كبير · وانهمك في عمله وسعد به لدرجة لم تسمح له بأن يعرف أنه سعيد · وكان في غمرة انفعـال ونشوة بما يحدث منه الآن وهو أمر جديد عليه وأكبر عنده من أي شيء عرفه من قبل ·

وظل ممسكا بالجناح ومزمجرا بين اسنانه المتشـابكة · وجرته انثى القطا خارج الشجيرة · وعندما استدارت وحاولت جره الى داخل الشجيرة من جديد ، جذبها بعيدا عن عشها حتى اخرجهـا في العراء · وظلت طول الوقت تصيح صياحا عاليا ، وتضرب بجناحها الخالي بينما الريش يتطاير منها كالبرد المتساقط ، وكانت ثورة هائلة اذ ثار فيه دم المقاتل الذي ورثه عن سـلالته ، وتدفق في عروقه حارا ملتهبا · كانت هذه هي الحياة ، وان لم يعرف ذلك · وتبين معناه واهميته في العالم وكان يقبل ما خلق لفعله وهو قتل الصيد والمقـاتلة في سبيل قتل الصيد ، وأخذ يبرر وجوده على نحو لا تسـتطيع الحياة أن تؤديه لان الحياة تبلغ ذروتها عندما تبلغ أقصى ما جهزت به من طاقات ·

وكفت أنثى القطا عن نضـالها بعد وقت ، ومع ذلك ظل ممسـكا بجناحها ،ورقدا على الارض وكلاهما ينظر الى الآخر · وحاول أن يزمجر بوحشية تهديدا لها فنقرته هي في أنفه الذي يؤلمه من أثر المغـامرات السابقة ، وجفل منها ، ولكنه ظل مستمسـكا بها ونقرته مرة ثانية فثالثة · وبعد أن جفل منها ، عوى وحاول أن يتراجـع عنها ناسيا أنه باستمساكه بها يجرها وراءه · وانهالت نقراتها على أنفه الذي ألمه ايلاما شديدا · وتضاءلت فيه روح القتـال وأفرج عن فريسـته وأدار لها ذيله ، وولى الادبار عبر الارض الفضاء في تقهقر مشين ·

ورقد ليستريح عند الطرف الآخر من الارض الفضـاء بالقرب من حافة الغابة وقد تدلى لسانه ، وأخذ صـدره في الارتفاع والانخفاض وظل أنفه يؤلمه ، ويدفعه الى الاستمرار في النهنهة · وفيما هو راقـد هكذا أحس فجأة ان شيئا رهيبا يوشك ان يحدث · وخيم عليه المجهول بكل ما فيه من أهوال وانـكمش بدافع غريزي ينشـد ماوى تحت الشجيرات · وفي اللحظة التي فعل فيها ذلك لفحه تيار شـديد من الهواء اذ مر وقتئذ فوقه طائر كبير في صمت وبصورة تنذر بالويل · كان ذلك الطائر صقرا انقض فجاة ، وكاد يلتقطه ولكنه أخطأ ·

وبينما هو راقد في الغابة يستعيد رباطة جأشه ، ويطل في خوف

نحو الجانب الآخر من المكان الفسيح ، حيث كانت القطاة الأم قد خرجت من عشها المخرب وقد انستها الخسارة التى منيت بها وجوب الانتباه الى الانقضاض المجنح من السماء • ولكن الجرو رأى ما حدث وفيه درس ونذير له •• انقض الصقر السريع وحلق على ارتفاع منخفض من سطح الارض وانشب مخالبه فى جسد القطاة الأم وصرخت الفريسة صرخة ألم وخوف ثم حلق الصقر عاليا فى السماء حاملا اياها بين مخالبه •

وانقضى وقت طويل قبل أن يبرح الجرو الاغبر مخبأه وقد تعلم الكثير • الاشياء الحية لحم وهى طيبة المذاق وكذلك اذا كانت هذه الاشياء الحية كبيرة بقدر كاف ففى استطاعتها أن تؤذى • ومن الافضل أكل الاشياء الحية الصغيرة مثل أفراخ القطا ، وترك الاشياء الحية الكبيرة مثل القطاة الام الكبيرة ، وبالرغم من ذلك فقد أحس دافع الطموح ودبيب رغبته فى معركة أخرى مع القطاة الام لولا أن الصقر قد اختطفها وحملها بعيدا • ربما كان هناك طيور قطا أخرى ولهذا فعليه أن يذهب الآن ويرى بنفسه •

ووصل الى شاطىء مرتفع على النهر • ولم يكن قد رأى ماء من قبل وبدا سطح الماء له مستويا يحسن السير عليه وتقدم على ذلك السطح فى جرأة وغاص وهو يعوى خوفا من مضيه نحو المجهول • وكان الماء باردا ولهث بسرعة واندفع الماء فى رئتيه بدلا من الهواء الذى يصحب التنفس • وكان الاختناق الذى عاناه يشبه حشرجة الموت ، ومعناه عنده هو الموت ، ولم يكن يدرك ما هو الموت ادراكا واعيا ، ولكن كانت عنده غريزة الموت شأنه فى ذلك شأن بقية الحيوانات البرية • كما أنه لديه يمثل أكبر الاذى بل هو جوهر المجهول ، وخلاصة أهواله انه الكارثة اذ تبلغ ذروتها ويصعب التفكير فيها ، وقد تقع له ولا يعرف عنها شيئا ولكنه يخاف كل ما يتصل بها •

وطفا على السطح ودخل الهواء فمه المفتوح ، ولم يسقط داخل الماء ثانية ، وأخذ يضرب الماء بسيقانه الاربع كما لو كانت هذه عادة ألفها طول حياته وأخذ يسبح وكان الشاطىء القريب على بعد ياردة واحدة منه ولكنه حين طفا على سطح الماء طفا وظهره الى هذا الشاطىء القريب وكان أول ما استقرت عليه عيناه هو الشاطىء المقابل فأخذ يسبح نحوه مباشرة وكان الغدير صغيرا ولكنه عند بلوغه البركة يتسع حتى يبلغ اتساعه عشرة أقدام •

حتى اذا توسط مجرى الغدير حمله التيار مع المجرى الى أن بلغ شلالا صغيرا جدا هوى به الى قاع البركة حيث لا فرصة للسباحة . وظل في حركة عنيفة دائمة ينقلب على ظهره مرة ويدور حول نفسه مرة أخرى ويصطدم بصخر مرة ثالثة . وكلما اصطدم بصخر عوى . وظل تقدمه في مجرى الغدير سلسلة متلاحقة من العواء ، حتى أصبح من الممكن عد مرات اصطدامه بالصخور على ضوء مرات عوائه .

وكانت عند اسفل الشلال بركة أخرى ، وهنا تلقته دوامة حملته برقة الى الشاطىء ووضعته برفق على حوض من الحصى فزحف بسرعة مجنونة مبتعدا عن الماء ، ورقد يلتقط أنفاسه وقد زادت معرفته بالعالم . الماء ليس شيئا حيا ومع ذلك فهو يتحرك وهو كذلك يبدو جامدا ، كالارض ولكن لا جمود فيه على الاطلاق والنتائج التى استخلصها من هذا كله هي أن الاشياء ليست دائما كما تبدو ، ودعم خبرته هذه خوفه من المجهول وما ورثه من عدم ثقة بالاشياء ، ومن هنا فصاعدا لن يثق في مظاهر الاشياء بل سيقف على حقيقتها قبل أن يثق فيها .

وقدر له في ذلك اليوم أن يقوم بمغامرة أخرى ، فقد تذكر أن له في هذا العالم ، وأحس أنه يريدها أكثر مما يريد أى شيء آخر في العالم ، اذ كان جسده متعبا من أثر المغامرات التى وقعت له ، كما أن عقله الصغير لم يقل عن جسده تعبا . ولم يسبق له في جميع الايام التى عاشها أن أجهد نفسه كل هذا الاجهاد في يوم واحد وفضلا عن ذلك كله فان النعاس كان يغالبه وهكذا مضى يبحث عن الكهف وعن أمه وهو يحس في نفس الوقت احساسا عارما بالوحدة والضعف .

وكان متمددا بين بعض الشجيرات عندما سمع صيحة حادة مخيفة ، ورأى أمام عينيه ومضة صفراء . ورأى بنت عرس وهي تقفز مسرعة مبتعدة عنه . كانت شيئا حيا صغيرا فلم يخف . وعندئذ رأى أمامه عند أقدامه شيئا حيا صغيرا جدا لا يزيد طوله عن بضع بوصات . انها بنت عرس صغيرة خرجت من وكرها مغامرة وهي بذلك عصت أمها كما فعل هو قبلها . وحاولت التقهقر أمامه ، فقلبها بكفه وصدر عنها صراخ حاد عجيب . وفي اللحظة التالية عاد الوميض الاصفر الى الظهور أمام عينيه وفي نفس الوقت نالته ضربة في جنب عنقه وأحس أسنان بنت عرس الأم الحادة تغرسها في لحمه .

وعندما عوى وتقهقر الى الوراء متعثرا ، رأى بنت عرس الأم وهي تقفز على ابنتها وتختفى بها في الاجمة المجاورة . وظلت عضتها تؤلمه

فى عنقه ولكن العضة آلمت احساسه أكثر ممـــا آلمت جسده ٠ وظل ينهنه فقد كانت بنت عرس الأم صغيرة جدا ولكنها شديدة الوحشية ٠ فكان عليه أن يتعلم أن بنت عرس رغم صغر حجمها وخفة وزنها أشـد القتلة فى البرية وحشية وأنتقاما وهولا ٠ أضاف الى معرفته بعض هذه الحقائق ٠

واستمر فى عوائه الخافت ونهنهته ، ولما عادت بنت عرس الأم الى الظهور لم تندفع نحوه بعد أن أصبحت صغيرتها فى امان ، بل اقتربت منه فى حذر ٠ وكانت لدى الجرو فرصة كاملة لمراقبة جسدها النحيل الذى يشبه جسد الحية ورأسها المنتصب المتحمس ، والذى يشبه رأس الحية ٠ وصرخت صرختها الحادة المهددة المتوعدة ، فجعلت شعر ظاهر عنقه ينتصب ، وكشر لها عن أنيابه منذرا اياها ولكنهـا ازدادت قربا منه ، وقفزت قفـزة أسرع من أن يلحقها بصره غير المتمـرس واختفى الجسد النحيل الاصفر لحظة من مجال رؤيته ٠ وفى اللحظـة التالية وثبت على عنقه ، وغرست اسنانها فى شعره ولحمه ٠

وزمجر فى أول الامر وحاول القتال ٠ ولكنه صغير جدا وهذا أول أيام حياته فى العالم فجاءت زمجرته نهنهة خافتة ، وقتـاله محـاولة للهرب ولم تتخل عنه بنت عرس بل ظلت قابضـة على عنقه متعلقة به وهى تحاول الوصول بأنيـابها الى حبـل الوريد الذى يتدفق فيه ماء حياته ، وبنت عرس مصاصة دماء ، تفضل دائمـا مص الدماء على قتله بقطع عنقه ٠

كان من المحتمل أن يموت الجـرو الصغير الأغبر وما عادت لتبقى هناك قصة تكتب عنه لولا مجىء الذئبة راكضة بين الاشجار ٠ فتخلت بنت عرس عن الجرو ووثبت على عنق الذئبة واخطأت العنق وقبضت على فك الذئبة التى رفعت رأسها فى الهواء كطرقعة سـوط فى الهواء فأفلت فكها من قبضة بنت عرس ، ورفعتهـا عاليا فى الهواء ٠ وبينما هى فى وضعها هذا أطبقت الذئبة فكيها على الجسـد الاصفر النحيل ، وعرفت بنت عرس الموت بين الاسنان التى طحنتها ٠

وشـهد الجرو الأغبر تعبيرا آخر عن العطف من جانب أمه وكان ابتهاجها بالعثور عليه أكبر من ابتهاجه هو بعثوره عليها وداعبتـه بأنفها ولعقت جروحها الناجمة عن اسنان بنت عرس ٠ وأكلت الذئبـة والجرو فيما بينهما مصاصة الدماء ٠ وبعـد ذلك عادا الى الكهف حيث ناما ٠

الفصل الخامس
قانون اللحم

ونما الجرو الأغبر نموا سريعـا · وركن الى الراحة يومين ثم غامر بالخروج ثانية من الكهف · وفى هذه المغامرة وجد بنت عرس الصغيرة التى اشترك مع أمه فى أكل أمها · وعمـل على أن تذهب الصغيرة الى حيث ذهبت أمها ولكنه لم يفعل أثناء هذه الرحلة شيئا كثيرا وكان قد عرف الطريق الى الكهف فلم يضل أثناء عودته ونام · وأخـذ بعد ذلك يخرج كل يوم ويتوغل فى منطقة أكثر اتساعا ·

وبدأ يقيس قوته وضعفه قياسـا أكثر دقة ، فعرف متى يجب أن يكون جسورا ، ومتى يجب أن يكون حذرا · ووجد أنه من الضرورى أن يكون حذرا دائما ، الا فى اللحظات النادرة التى يكون فيهـا واثقا من شجاعته ، وفى هذه اللحظات يسمح لنفسه بالغضب والشهوة ·

وهو دائما شيطان الغضب الصغير الصغير عندما يصادف طائر قطا شاردا ولم يفته قط أن يستجيب فى وحشية لثرثرة السـنجاب الذى قابله لأول مرة عند شجرة الصنوبر الواقعة على الارض ، وان رؤيته طائر القطا لتثيره ابلـغ اثارة لأنه لم ينس قط النقرة التى تلقـاها أنفـه أول ما قابل من نوع هذا الطائر ·

ولكن هناك أوقات لا تؤثر فيه رؤية أمثال هذا الطائر وذلك عندما يحس أنه فى خطر من جانب أحد صائدى اللحم الآخرين فهو لم ينس أبدا ذلك الصقر ، وظله المتحرك الذى ألجأه الى أقرب أجمة يقبع تحتها ولم يعد يتجول أو يمشى على مهل بل أخذ يقلد أمه فى مشيتها المتسللة المختلسـة التى بدت له لا تتطلب جهـدا ومع ذلك فهى تتميز بالسرعة والمخادعة والمفاجأة ·

أما حظه فيما يتعلق بالصيد فهو حظ المبتدىء اذ لم يصد أكثر من سبعة أفراخ القطا وبنت عرس الصـغيرة ، وقويت رغبته فى القتل بمرور الايام وأصبح يطمع فى السـنجاب الذى يثرثر كثيرا ليعـلن للوحوش جميعا أن جرو الذئب يقترب · ولكن الطيور تحلق فى السماء والسنجاب يتسلق الاشجار ولم يكن مسـتطيعا أكثر من الزحف خفية نحو السنجاب وهو على الارض قبل أن يتمكن من تسلق الشجرة ·

وكان الجـرو الأغبر يكن احتراما كبيرا لأمه ، فهى تسـتطيع الحصول على اللحم ، وتأتيه بنصـيبه دائمـا ، وفضلا عن ذلك فانها لا تخاف شيئا ولم يخطر بباله أن عدم خوفها يستند الى اساس الخبرة والمعرفة بل السبب عنده هو قوتها • فأمه تمثل عنده القوة • ولما نمـا أحس هذه القوة في ازدياد قوة كفها وهي تحذره ولم تعد تدفعه بأنفها بل عمدت الى تحذيره بالزمجرة والتكشـير عن الانيـاب • وزاد هذا احترامه لأمه التى تكرهه على طاعتها • وكلما كبر زاد ضيقها وتبرمها به

وعادت المجاعة من جديد وعرف الجرو عضـة الجوع مرة اخرى ولكن بوعى أكبر ، وأجهدت الذئبة نفسها في البحث عن اللحم وأصبح من النادر أن تنام فى الـكهف ، اذ كانت تقضى معظم وقتهـا فى تعقب الصيد عبثا • ولم يطل وقت هذه المجاعة كثيرا ، ولكنها كانت شديدة القسوة • ولم يعد الجرو يجـد لبنـا فى ضرع أمه ولم يحصل على أية قضمة من لحم •

وكان صيده في أول الامر لهوا وتسلية ولمجرد المتعة ، أما الآن فهو جاد فى صيده كل الجد ، ومع ذلك فهو لا يجـد شـيئا وزاد فشله فى الحصول على الصيد من نضجه • درس عادات السـنجاب بعناية أكبر وعمل بدهاء أكبر فى التسلل للانقضـاض عليه ومفـاجأته ، ودرس الفئران ، وحاول اخراجها من جحـورها وتعلم الكثير من عادات طير القطا والحفار • ثم جاء يوم لم يلجئه فيه ظل الصقر الى الاختبـاء فى الاجمة اذ كبر وزاد قوة وحكمة وثقة كما أصبح متهورا فهو يجلس على ساقيه الخلفيتين فى العراء بصورة واضحة ويتحدى الصـقر أن يهبط من سمائه اليه لأنه عرف أن ما يحوم فى السـماء الزرقاء فوقه لحم ــ اللحم الذى تهفو اليه معـدته بأصرار ولـكن الصـقر رفض الهبوط والاشتراك معه فى معركة • وزحف الجرو مبتعدا نحو أجمة وهناك أخذ ينهنه نادبا الاحباط والجوع •

وانتهت المجاعة ، وجاءت الذئبة باللحم الى الكهف ، وهو لحم غريب يختلف عن أى لحم جاءت به من قبل •• آنه لحم جرو فهو يشبه الجرو الأغبر ولكن حجمه يختلف عن حجم الجـرو الأغبر وتركته أمه كله له لانها كانت قد أكلت حتى شبعت فى مكان اخر ولم يعرف أن هـذا هو كل ما بقى من جراء فى مهد الفهد بعد أن شبعت ولم يعرف ماذا انطوى عليه عملها هذا من تهديد ، بل كل ما عرفه هو آن الجرو الذى بين يديه لحم فحسب وآكل مستمتعا بكل قضمة منه •

والمعدة الممتلئة تدفع الى الخمول ، ورقد الجرو فى الكهف نائمـا مستندا الى جنب أمه ولم يوقظه غير زمجرتها ، ولم يسـمعها من قبل تزمجر على هذا النحو الشديد ، وربما كانت هذه أقوى زمجرة لها فى حياتها كلها · ولذلك سبب لا يعرفه أحد سـواها · فان عرين أنثى الفهد لا ينتهك بدون عقاب ورأى الجرو انثى الفهد فى وضـح النهار قابعة عند مدخل الكهف · وانتصب شعره على طول ظهره اذ رآها · ها هو سبب واضح للخوف ولم يتطلب الامر أن يستدل عليه بغريزته واذا لم يكف النظر دلالة لكفت زمجرة انثى الفهد المهاجمـة · تدرجت هذه الزمجرة فى الارتفاع حتى أصبحت دليلا مقنعا جدا ·

وأحس الجرو دافع الحيـاة فيه ووقف وزمجـر بقوة وهو واقف بجوار أمه ولكن هذه دفعته بقسـوة وراءها · ولما كان مدخل الكهف ضيقا منخفضا فان انثى الفهد لم تستطع الدخول فيه واثبة ولما حاولت الاندفاع داخله ـ فى زحف قفزت عليها الذئبة واوقفتها مكانها · ولم ير الجرو شيئا من المعركة · كانت هنـاك زمجرة هائلة وعض وخدش · كانت انثى الفهد تستخدم مخالبها وأسنانها فى تمزيق جسد الذئبـة بينما لم تستخدم الذئبة سوى أسنانها ·

ووثب الجرو وعض ساق أنثى الفهد الخلفية وظل ممسـكا اياها باسنانه وهو يزمجر بوحشية ، ولم يدر أنه بهذا العمل عطل حركة هذه الساق ووفر على أمه الكثير من العطب · وحدث تغيير فى المعركة أسفر عن وقوعه تحت جسدى المتعاركتين وأخلى الساق من قبضة فكيه ، وفى اللحظة التالية انفصلت المتعاركتان كلتاهما عن الاخرى · وقبـل أن تعودا الى الالتحام ضربت انثى الفهد كتف الجرو الأغبر بمخلبها الضخم فشقتها حتى العظم واندفع يتدحرج نحو الجدار ، وزاد عواء الجرو من أثر الألم والخوف وضجيج المعركة ، وطال القتال الى حد أن الجرو وجد الوقت الكافى لاشباع حاجته الى العواء والنهنهة واستعادة شجاعته · وانتهت المعركة واسنان الجرو غائصة فى ساق أنثى الفهد الخلفية وهو يزمجر بوحشية من بين اسنانه ·

وماتت أنثى الفهد ولكن الذئبة كانت قد خارت قواها تماما وانتابها ضعف شديد وسقم بالغ · وفى أول الامر لعقت الجرو وكتفه الجريحة ولكنها كانت قد فقدت الكثير من الدم فذهبت قوتهـا بذهـاب الدم ورقدت بقية نهارها وليلتها كلها بجوار عدوتها الميتة دون حركة وهى تتنفس بصعوبة شديدة · وظلت اسبوعا لا تبرح الكهف الا للذهاب الى

الغدير لتشرب وهي في هذا الذهاب والعودة بطيئة الحركة شديدة الالم · وفي آخر الاسبوع كانت الذئبة وجروها قد أتما التهام انثى الفهد وبرئت جراح الذئبة بدرجة تسمح لها بالخروج للصيد من جديد ·

أما كتف الجرو فقد ظلت تؤلمه من أثر الجرح الغائر وظل يعرج بعض الوقت ولكن العالم الآن بدا غيره بالامس · ومضى فيه بثقة اكبر وباحساس بالقوة لم يكن له قبل اشتراكه في المعركة ضد أنثى الفهد · ونظر الى الحياة نظرة أكثر وحشية · لقد قاتل وغرس أسنانه في لحم عدو له · وعاش · وبسبب هذا كله مشى مشية أكثر جرأة وفيها تحد جديد عليه · ولم يعد يخاف الاشياء الصغيرة بل انتهى منه الخوف وان لم يكف المجهول عن الضغط عليه بغموضه وأهواله وتعقيده وتهديده الدائم ·

وبدأ يصحب أمه في صيدها وشهد كثيرا من صيد اللحم وأخذ يشارك فيه · وتعلم على طريقته الغامضة قانون اللحم · هناك نوعان من الحياة ، حياته وحياة النوع الآخر والاول نوعه هو وأمه ويشمل النوع الآخر كل الاشياء الحية التي تتحرك · ولكن النوع الآخر نوعان ، نوع يقتله نوعه ويأكله وهو الحيوانات التي لا تقتل والحيوانات الصغيرة التي تقتل · ونوع آخر يقتل نوعه هو ويأكله أو يقتله نوعه هو ويأكله · ومن هذا التصنيف يتكون القانون · هدف الحياة هو اللحم والحياة نفسها لحم · والحياة تعيش على الحياة · هناك الآكل وهناك المأكول والقانون هو عليك أن تأكل غيرك والا أكلك غيرك · ولم يشكل القانون بعبارات واضحة مقررة ، ولم يفكر فيه بل عاش القانون دون تفكير فيه على الاطلاق ·

رأى القانون وهو يعمل حوله من كل جانب · فقد أكل أفراخ القطا وأكل الصقر أم تلك الافراخ · وكان من الممكن أن يأكله الصقر هو الآخر · وعندما زاد حجمه فيما بعد أراد أن يأكل الصقر وأكل جرو الفهد وكان من الممكن أن تأكله انثى الفهد لو لم يقتلها ويأكلها هو وأمه · وهكذا القانون · فهو قاتل وغذاؤه الوحيد اللحم · اللحم الحي الذي يجري أمامه مسرعا أو يطير في الهواء أو يتسلق الاشجار أو يختبىء في الارض أو يواجهه ويقاتله أو يقلب الموائد ويجري وراءه ·

ولو فكر الجرو الأغبر بالنحو الذي يفكر الانسان به للخص الحياة بأنها شهوة شرهة والعالم مكان تجتمع فيه الشخصيات العديدة فيه

الشهوة الصائدة والشهوة التى تطارد والصائد وراءها . الشهوة الصائدة أكلة ، والشهوة المطاردة مأكولة وكل الشهوات عمياء مضطرب أمرها والعنف يسودها والاضطراب طابعها وفوضى النهم ، والقتل غالبان عليها . وتسيطر عليها المصادفة والقسوة بلا خطة أو غاية .

ولكن الجرو الأغبر لا يفكر كما يفكر الانسان ، ولا ينظر الى الاشياء رؤية شاملة فهو محدد الهدف ، ولا يشغل نفسه بأكثر من فكرة واحدة أو رغبة واحدة فى وقت واحد . واذا هو خالف قانون اللحم واجهته عدة قوانين أخرى أقل شأنا من قانون اللحم وكان عليه أن يتعلمها ويطيعها . ومن هذه القوانين : أن العالم ملىء بالمفاجآت وأن حافز الحياة فيه ، وعضلاته ، وحركاتها مصدر سعادة لا حد لها ، كما يبهجه التغلب على الصيد وممارسة النشوة والزهو وغضباته ومعاركه بل ان الرعب نفسه وغموض المجهول تؤدى الى كسب قوته .

وهناك التيسير والاشباع وامتلاء البطن والنعاس فى تكاسل فى ضوء الشمس . ان هذه الاشياء تعويض كامل عن جهده وما يتكلفه من مشقة بينما جهده ومشقته فى حد ذاتيهما تعويض ذاتى . انهما تعبير عن الحياة والحياة سعيدة دائما عندما تعبر عن نفسها . وهكذا لم يتنازع الجرو الأغبر مع بيئته المعادية لأنه شديد الحيوية غاية فى السعادة شديد الفخر بنفسه .

الجزء الثالث

الفصل الأول
صانعو النار

فوجيء الجرو الاغبر بالامر ، وكانت الغلطة غلطته واهمـاله لانه خرج من الكهف وجرى نحو الغدير ليشرب ، وربما يرجع السبب فى عدم ملاحظته الى أن النعاس كان غالبا عليه ، اذ قضى الليل كله فى أثر اللحم ولم يستيقظ الا الآن وربما يرجع اهماله الى تعوده الطريق الى بركة الماء اذ سبق أن قطعه من قبل ولم يحدث له شيء من قبـــل فى هذا الطريق ٠

ومضى مارا بشجرة الصنوبر الواقعة على الارض وعبر المكان العراء وركض بين الاشجار ورأى بعينيه ، وشم بأنفه فى وقت واحد خمسة أشياء حية جالسة على مؤخرتها فى صمت أمامه ، ولم يسبق أن رأى من قبل شيئا مثل هذه الاشياء وهذه هى أول مرة يرى فيها البشر ٠ ولكن الرجال الخمسة عندما رأوه لم يقفـــزوا واقفين على أقدامهم ولم يكشروا عن أنيابهم ولم يزمجروا ولم يتحركوا بل ظلوا جالســين فى صمت ينذر بالشر ٠

وكذلك لم يتحرك الجرو الاغبر ، ان كل غريزة فى طبيعته تدفعه الى الاندفاع بعيدا بسرعة لو لم تثر فيه فجأة ولاول مرة غريزة مضادة أخرى فقد هبطت عليه رهبة كبيرة وأسكتت حركته احســـــاس غالب بضعفه وضآلته ٠ هنا سيادة وقوة ـ وهــــذا أمر أكثر جـدا من أن يدركه ٠

ولم يسبق للجرو الاغبر أن رأى الانسان من قبل ومع ذلك كانت فيه الغريزة الخاصة بالانسان على نحو غامض ، الانسان ذلك الحيوان الذى ساد جميع الحيوانات الاخرى البرية بالقتال ٠ ولم ينظر الجرو الاغبر الى الانسان بعينيه الآن بل بعيون جميع أسلافه ـ بالعيـــون التى أحاطت فى الظلام بنيران المخيمات العديدة فى فصول الشـــتاء وأطلت من الاماكن الآمنة ومن أعماق الآجام على الحيوان الغريب الذى يمشى على قائمتين والذى ســـاد الاشـــياء الحية ٠ وســــيطر سر تراث الجرو الاغبر عليه وكذلك سيطر عليه الخوف والاحترام اللذان ولدا عبر قرون من النضال والخبرة التى جمعتهــا الاجيــال ٠ وكان التراث

شديد الضغط على ذئب لا يعدو أن يكون جروا . ولو كان ذئبا كامل النمو لجرى هاربا . أما هو فقد انكمش وأصابه الخوف بالشلل وهو أقرب الى تقديم خضوعه على النحو الذى فعل الذئب لاول مرة حين جاء يجلس بجوار نار الانسان لينعم بالدفء .

ونهض أحد الهنود ، وجاء اليه وانحنى فوقه . وازداد الجرو انحناء على الارض . هذا هو المجهول الذى تجسد أخيرا فى صورة من لحم ودم وانحنى فوقه ومد يده ليمسكه ، وانتصب شعره رغما عنه وتقلصت شفتاه وكشفتا عن أنيابه الصغيرة ، ووقفت اليد فوقه كأنها المصير وترددت اليد فيما تفعله وتكلم الرجل وقال ضاحكا :

« انظر ! الناب الابيض ! » .

وضحك الهنود الآخرون بصوت عال وحثوا الرجل على امساك الجرو . ومع ازدياد قرب اليد من الجرو اكثر فأكثر ثارت بين جوانحه معركة بين غرائزه . واحتدم بينها دافعان كبيران هما الاستسلام والقتال . وجاء تصرفه بعد ذلك بين بين اذ فعل الامرين معا . استسلم حتى كادت اليد تلمسه ثم قاتل اذ ومضت انيابه وغرست فجأة فى اليد الممتدة اليه . وفى اللحظة التالية تلقى لطمة على رأسه أوقعته على جنبه وهنا ذهبت عنه كل رغبة فى القتال . وسيطرت عليه روح الخضوع والطفولة . وجلس على مؤخرته وأخذ يعوى وينهنه ولكن الرجل الذى عضه الجرو فى يده كان غاضبا وتلقى الجرو لطمة أخرى على الجانب الآخر من رأسه وعاد الى الجلوس والعواء بصوت أعلى .

وزاد ارتفاع صوت ضحك الهنود الاربعة ، بينما أخذ الرجل الذى عضه الجرو نفسه فى الضحك . وأحاطوا بالجرو وأخذوا يضحكون منه وهو ينهنه رعبا وألما . وسمع خلال ذلك شيئا سمعه الهنود أيضا ولكن الجرو كان يعرف ما هو هذا الشىء ، وعندئذ أطلق عواء طويلا أخيرا فيه رنة أقرب الى الانتصار منها الى الحزن . وكف عن ضوضائه وانتظر حضور أمه . الام المتوحشة التى لا تقهر ، والتى قابلت وقتلت كل الاشياء دون أن تعرف الخوف وأخذت تزمجر وهى تجرى اذ سمعت عواء وليدها فجاءت مندفعة لانقاذه .

ووثبت فاذا هى بينهم ، وقد جعلت منها أمومتها المتحمسة المتلهفة منظرا جميلا . ولكن هياجها الذى فيه الحماية كان عند الجرو مبعث سرور له . وأطلق صيحة ابتهاج ، ووثب نحوها يستقبلها بينما تراجع الرجال الى الوراء عدة خطوات على عجل ، ووقفت الذئبة بين الجرو والرجال وهى تواجههم وقد انتصب شعرها وزمجرة عميقة تجلجل فى

حلقها . وشوهت ملامح وجهها تكشيرة تنم عن الشر والتهـــديد حتى قصبة أنفها كانت تهتز من أولها الى اخرها بصورة مدهشة كزمجرتها وعندئذ صاح أحد الرجال قائلا :

« كيش ! »

ونطقها الرجل فى تعجب واحس الجرو أن أمه تنكمش عند سماع النداء وصاح الرجل ثانية ولكن بجدة وسيطرة :

« كيش ! » .

وعندئذ رأى الجرو أمه الذئبة التى لا تعرف الخوف وهى تقترب من الارض حتى تلامس بطنها الأرض باكية تهز ذيلها ، وتاتى بحركات مسالمة ولم يســـتطع الجرو أن يفهم بل خاف . وعاد الخــــوف من الانسان يسيطر عليه من جديد . وصدقت غريزته وحققتها أمه فهى الاخرى قدمت خضوعها للانسان

وجاء الرجل اليها ووضع يده على رأسها فزادت انكماشا ولم تفتح فمها ولم تهدد بفتح فمها . وجاء الرجال الآخـرون وأحاطـوا بهـــا وتحسسوها وربتوا عليهــا بأيديهم ولم تحـاول قط أن تعـــرب عن استيائها لهذا . وكانوا غاية فى الابتهاج والرضا وخرجت من أفواههم أصوات لم ير الجرو فيها ما يدل على خطر . واقترب من أمه وقبـــع بجوارها وهو ينفش شعره من وقت لاخر ، ولكنه يبذل قصارى جهده فى الخضوع .

وقال أحد الهنود :

« ليس هذا غريبا فأبوها ذئب ، صحيح أن أمها كلبة ولـكن ألم يربطها أخى فى الغابة ثلاث ليال كاملة فى موسم التزاوج ؟ لهذا كان والد كيش ذئبا . »

وقال هندى آخر :

« لقد انقضى على هربها عام أيها السمور الاغبر . »

ورد عليه السمور الاغبر قائلا :

« ليس غريبا يا لسان السلمون ، فقد حدث ذلك وقت مجـاعة ولم يكن هناك لحم تأكله الكلاب . »

وقال هندى ثالث :

« عاشت مع الذئاب » .

ورد السمور الاغبر قائلا :

« يبدو الامر هكذا » .

ووضع يده على الجرو واستطرد يقول :

« وهذا هو برهان ذلك . »

وزمجر الجرو عند لمسه اليد ، فارتفعت اليد تلطمه وغطى الجرو أنيابه بشفتيه وغاص على الارض فى خضوع بينما عادت اليـد تلمس ما وراء أذنيه وتمر على ظهره رائحة غادية .

واستطرد السمور الاغبر يقول :

« هذا هو البرهان وواضح منه أن أمه هى كيش ، ولكن أباه ذئب ومن هنا تغلب عليه الذئبية . وأنيابه بيضاء وسيكون اسمه النـاب الابيض . وقد قلتهـــا . انه كلبي لان كيش هى كلبة أخى . وأخى مات » .

ورقد الجرو وقد أصبح له اسم في العالم وأخذ يرقب ما يجـرى واستمرت الضوضاء تخـرج من أفواه هذه الحيوانات الآدميـة وعندئذ أخرج السمور الاغبر سكينا من غمدها المعلق حول عنقه ودخل الاجمـة وعاد وبيده عصا . وراقبه الناب الابيض ، ثم ثقب العصا فى كل من طرفها ، وأنفذ من الثقبين سيرا من الجلد وأحاط عنق كيش بســـير جلدى ثم قادها الى شجرة صنوبر صغيرة وأحاط الشجرة بالســـير الجلدى الآخر .

وتبعها الناب الابيض ، ورقد بجوارها . وامتدت اليه يد لســـان السلمون ودحرجته على ظهره . ونظرت كيش اليه في قلق . وأحس الناب الابيض الخوف يزداد فيه من جديد وعجز عن أن يكبت زمجرة ولكنه لم يكشر عن انيابه وثنت اليد أصابعها وفرقت ما بينها وحكت بطن الناب الابيض فى مداعبة ودحرجته من جانب لآخر . وكان شكله وهو راقد على ظهره مضحكا وغير لائق به وقد ارتفعت ســيقانه فى الهواء ، وفضلا عن ذلك فأنه فى هذا الوضع بلا حول أو قوة أمر تنفر منه طبيعته ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا يدافع به عن نفســه ، ولو شاء هذا الحيوان الانسان أن يقصد به أذى فلا مفر منه ، اذ كيف يستطيع أن يقفز بعيدا وسيقانه في الهواء كهذا ؟ ومع ذلك فقد جعله الاستسلام يسيطر على خوفه واكتفى بالزمجرة الخافتة التى لم يستطع كبتها وخاصة وان الحيوان الانسان لم تغضبه تلك الزمجرة ولم يعاقبه عليها بضربة على رأسه وفضـــلا عن ذلك فقد كان غاية فى الغرابة أن يجد « الناب الابيض » متعة في مرور يد ذلك الحيوان الانســان على ظهره رائحة غادية وعندما تدحرج على جنبه كف عن الزمجـــرة وزاد احساسه بالمتعة عندما ضغطت أصابع تلك اليد على قاعدة اذنه . وبعد ذلك تركه الرجل لشـــأنه وابتعـد عنه وذهب الروع عن « النـــاب

الابيض » وقدر له أن يعرف الخوف عدة مرات فى معاملاته مع الانسان ومع ذلك فقد كان هذا اللقاء عربون مصاحبة للانسان خالية من الخوف قدر له أن ينعم بها ٠

وبعد انقضاء بعض الوقت سمع الناب الابيض أصـــواتا غريبة تقترب ٠ وكان سريعا فى تصنيفه فعرف أن هذه الاصـــوات آدمية ٠ وبعد بضع دقائق جاءت بقية القبيلة ٠ كانوا رجالا ونســـاء وأطفالا وعدتهم أربعون فردا يحملون معـدات وأدوات المخيـم وكلابا عديدة ، الكبيرة منها تحمل على ظهورها بعض المعدات فى أكياس تثبت بأشرطة تدور حول أجسامها وكل كلب منها يحمل ما تتراوح زنته بين عشرين وثلاثين رطلا ٠

ولم يكن الناب الابيض قد رأى كلابا من قبل ولكن حالما رآها أحس أنها من نوعه وان اختلفت عنه بعض الاختلاف الا أنها أظهرت اختلافا يسيرا عن الذئب عندما اكتشفت الجرو وأمه ٠ واندفعت نحـــوهما ٠ وانتصب شـــعر النـــاب الابيض وكشر عن أنيابه وزمجر فى وجه الـــكلاب القـــادمة فاتحة أفواهها ودخل تحتهـــا ، وأحس أنيابهـــا تغرس فى جسده من فوقه بينما هو يعض ســـيقانها وبطـــونها وهو تحتها ٠ وساد ضجيج كبير وسمع زمجرة كيش وهى تقـاتل من أجله وسمع صياح الناس وصوت العصى وهى تنهال على الكلاب ، وصياح هذه الكلاب من الالم تحت تأثير الضرب ٠

ولم تنقض سوى لحظات حتى عاد واقفا على أقدامه واســـتطاع رؤية الناس يدفعون الكلاب بعيدا بالعصي والحجارة مدافعـين عنـه ينقذونه من الانياب الوحشية وقد أدرك أن هذا النوع ليس نوعه وان لم يكن مدركا لشيء مجرد مثل العدالة ، الا أنه أحس على طريقته عدالة البشر وعرف فيهم صانعي القوانين ومنفذيها ، وقدر القوة التي ينفذون القانون بها ٠ انهم لا يعضـون ولا ينشبون مخالبهم على خلاف جميـع الحيوانات التى قابلها من قبل بل هم يفرضون قوتهم الحية بقوة أشياء ميتة والاشياء الميتة تنفذ أمرهم ٠ وكانت العصى والحجـارة بتوجيه هذه المخلوقات الغريبة تقفز فى الهواء شأنها فى ذلك شأن الاشـياء الحية وتلحق بالكلاب اذى شديدا ٠

ورأى أن هذه قوة غير عادية ٠ قوة لا يمكن ادراكها وتفوق ما هو طبيعى ، انها قوة الهيـــة ، وما كان « للنـــاب الابيض » بطبيعته أن يعرف شيئا عن الالهة بل ان معرفته على أحســن تقـدير تقتصر على الاشياء التى يلمسها ، ولكن ما أحسه من عجب ورهبـة من هـــذه

الحيوانات الانسانية يشبه ما يحسه الانسان حين يرى مخلوقا سماويا على قمة جبل يلقى بيديه قذائف الرعد على عالم مذهول مما يرى ويسمع ٠

وأبعد آخر كلب عنه وهدأت الضجة وأخذ « الناب الابيض » يلعق جراحه ويتأمل أول ما تذوقه من قسوة قطيع الكلاب ودخوله في هذا القطيع ولم يحلم قط بأن نوعه يضم غيره هو ، وذا العين الواحدة وأمه كان ثلاثتهم يشكلون نوعا منفصلا ، فاذا به هنا وعلى حين فجأة يتبين عدة مخلوقات أخرى تبدو في ظاهرها أنها من نوعه ٠ وأحس احساسا باطنيا بالاستياء من أن يهجم هؤلاء عليه وهم من نوعه ويحاولون القضاء عليه ٠ وبالمثل كان استياؤه من تقييد أمه بعصا وان كان الذين قاموا بهذا التقييد هم الحيوانات الانسانية السامية ٠ وأحس فى هذا أنه فخ واستعباد ٠ ومع ذلك فلم يكن له علم بما هو الفخ وما هو الاستعباد ٠ فهو قد ورث عن سلالته حرية التجول والجرى والرقود بارادته وها هى ذى الحرية تنتهك وحركات أمه تقيد بما لا يزيد عن طول العصا ، كما وان حريته هو أيضا محدودة بما لا يزيد عن تلك العصا ذلك لانه لم يبرح جانب أمه حتى الآن ٠

ولم يعجبه هذا كما لم يعجبه ما حدث بعد ذلك عندما نهضت هذه الحيوانات الانسانية للسير وأمسك حيوان انسانى ضئيل الطرف الآخر من العصا وقاد كيش اسيرة وراءه ومن وراء كيش سار « الناب الابيض » وهو أشد ما يكون قلقا وحيرة من هذه المغامرة الجديدة التى بدأها ٠

ومضوا فى وادى الغدير مسافة تزيد عما كان « الناب الابيض » يقطعه عادة حتى وصلوا الى آخر الوادى حيث يصب الغدير ماءه فى نهر ماكنزى وهنا كانت القوارب معلقة فى الهواء فوق اطارات أعمدة كما مدت أوانى تجفيف السمك ٠ ونصب المخيم وأخذ الناب الابيض يتطلع بعينين متعجبتين ٠ وزاد احساسه بتفوق هذه الحيوانات الانسانية فى كل لحظة اذ رأى سيطرتها على جميع الكلاب ذات الانياب الحادة وفى هذه السيطرة قوة ٠ ولكن أعظم من ذلك فى نظر جرو الذئب سيطرة هذه الحيوانات الانسانية على الاشياء غير الحية وقدرتها على تحريك مالا يقبل الحركة بطبيعته وكذلك قدرتها على تغيير وجه العالم ٠

وهذه القدرةالاخيرة هى التى أثرت فيهبوجه خاص اذ استلفتنظره رفع اطارات الاعمدة ومع ذلك فهذا فى حد ذاته لم يكن أمرا ملحوظا

جدا اذ تقوم به نفس المخلوقات التى تلوح بالعصى وتقذف الحجــارة مسافات بعيدة حتى اذا غطيت الاطارات بالقماش والجلد وأصــبحت خياما ذهل الناب الابيض وتأثر أبلغ التأثير بضـخامة أحجـامها ٠ وانتشرت حوله من كل جانب أشكال حية هائلة سريعة النمو ٠وشغلت قرابة محيط رؤيته ، وأصابه الخوف منها وبدت فوقه منــذرة بشر مستطير ولما حركها النسيم حركات قوية انكمش فى خوف وترك عينيه ترقبانها في يقظة وانتباه شديدين ٠ وأعد نفسه للقفز بعيدا ان هى حاولت أن تقع عليه ٠

ولكن سرعان ما ذهب عنه الخوف من الخيام ، ورأى النســاء والاطفال يدخلونها ويخرجون منها ، ورأى الكلاب تحـاول دخـولها فتصدها الصيحات الشديدة والاحجار المتطايرة ، وبعد قليــل ترك جانب كيش وزحف فى حذر نحو جدار أقرب خيمة ، وكان فضـــول النمو هو الذى يدفعه قدما ٠ وذلك فضلا عن ضرورة المعرفة والعيش والعمل بما يعود بالخبرة ٠ وزحف مسافة البوصـــات الاخيرة نحو الجدار ببطء مؤلم وحذر شديد ، فقد أعدته أحداث اليوم لان يتــوقع ظهور المجهول بطرق هائلة لا يصل اليها التفكير ، وأخيرا لمس أنفـه القماش وانتظر ولم يحدث شيء ثم شم النسيج الغريب المشبع برائحة الانسان وأطبق على القماش اسنانه وجذبه فى رقة ٠ ولم يحدث شيء الا أن الاجزاء المجاورة من الخيمة تحركت وزاد جذبا وزادت الحركة ، وكان هذا أمرا مبهجا ثم عاد يجذب بقوة أكبـر ٠ وكرر ذلـك حتى اهتزت الخيمة كلها وعندئذ سمع صيحة حادة صادرة من انسان فى الداخل فجرى نحو كيش وهو يتعثر فى جريه ٠ ولكنه لم يعد بعـد ذلك يخاف المخيمات ٠

وبعد دقيقة أخرى ابتعد عن أمه ثانية وكانت عصاتها مقيدة بوتد فى الارض ولم تستطع أن تبتعد ، وجاء نحوه جرو أكبر منه ســنا وحجما واقترب منه فى بطء مزهوا بنفسه معتدا بأهميته عدائيـا فى سلوكه واسم هذا الجرو كما سمع « الناب الابيض » الناس ينادونه به فيما بعد هو « لبلب » وله خبرة بقتال الجراء وفيه قوة ٠

و « لبلب » من نوع « الناب الابيض » نفسه ولما لم يزد عن أن يكون جروا فانه لم يبد خطرا ولهذا استعد « الناب الابيض » للقائه بروح ودية ، حتى اذا شــدد الغريب سـيقانه وكشر عن أنيابه شـدد « الناب الابيض » هو الآخر جسمه ورد عليه بالتكشـــير عن انيابه ٠

ودار كلاهما حول الآخر نصف دورة يسبر غوره وهو يزمجر وينفش شعره · واستمر هذا عدة دقائق وبدأ « الناب الابيض » يستمتع بهذا كلون من اللعب · ولـكن « لبلب » قفز فجـأة بسرعة ملحوظة وعضـه وتراجـع الى الوراء بسرعة واثرت العضـة فى الكتف التى كانت أنثى الفهد قد اعطبتها ولا تزال تؤلمه حتى العظم فعوى « الناب الابيض » من أثر المفاجأة والالم ولكنه فى اللحظة التالية اندفع غاضبا على « لبلب » وعضه بقسوة ·

ولكن « لبلب » قضى حياته فى المخيمات واشترك فى عدة معـارك مع الجراء الاخرى وعض « الناب الابيض » عدة مرات بأنيابه الصغيرة الحادة حتى هرب « الناب الابيض » بصورة مخزية ينشد حماية أمه · كانت هذه أولى معاركه العـــديدة المتصلة مع « لبلب » لانهمـا كانا عدوين منذ البداية ، هكذا ولدا ذوى طبيعتين تميلان الى الصدام ·

ولعقت كيش جراح جروها بلسانها مواسية · وحاولت التغلب عليه لابقائه بجوارها ولكن فضوله كان شديدا وبعد عدة دقائق مضى فى بحث جديد وجاء الى حيوان انسانى هو السمور الاغبر الذى كان متربعا فى جلسته يصنع شيئا بالعصا والعشب الجاف الملقى أمامه على الارض · واقترب « الناب الابيض » منه وأخذ يرقبه وصـــدرت من السمور الاغبر أصوات فسرها « الناب الابيض » بأنهـا غير عدائيـة وهكذا ازداد قربا منه ·

وحملت النساء والاطفال مزيدا من الاعواد وفروع الاشـجار الى السـمور الاغبر وكان واضـــحا أن العمل مهم ، واســتمر « الناب الابيض » يقترب حتى لمس ركبة السمور الاغبر اذ اشتد فضـوله الى درجة نسى معها أن هذا حيوان انسانى رهيب · رأى على حـين فجـأة شيئا غريبا كالضباب يتصاعد من الاعواد والعشب بين يدى السمور الاغبر ، وعندئذ ظهر بين الاعواد نفسها شىء حى يتلوى ويدور ويشبه لونه لون الشمس فى السماء · ولم يكن « الناب الابيض » يعـرف شيئا عن النار · واجتذبه هذا الشىء كما اجتذبه الضــوء عند فوهة الكهف فى أوائل حياته · وزحف نحو اللهب عدة خطوات وســمع السمور الاغبر يقهقه من فوقه ، وعرف أن الصوت غير عدائى ثم لمس أنفه اللهب وفى نفس اللحظة مد لسانه الصغير نحوه

وأصابه الشلل لحظة · كان المجهول كامنا وسط الاعواد والعشب وقد أمسك هذا المجهول أنفه بوحشية وتعثر وهو يتراجـع الى الوراء

وانفجر في عواء المذهول • وعندما سمعت كيش هذا العواء وثبت مزمجرة الى آخر ما سمحت لها به العصا وعندئذ هاجت هياجا شديدا لانها لم تستطع نجدته • ولكن السمور الاغبر ضحك مقهقها وضرب فخذيه بكفيه وحكى قصة ما حدث على بقية من في المخيم واشترك الجميع في موجة من الضحك العالي ، ولكن الناب الابيض جلس على ساقيه الخلفيتين واستمر يعوى عواء حيوان صغير قانط يثير الشفقة وسط الحيوانات الانسانية •

وكان هذا أشد ما أصابه من أذى اذ احترق أنفه ولسانه بفعل ذلك الشيء الذى هو بلون الشمس والذى نما تحت يدي السمور الاغبر وبكي ونهنه وظل يبكي وينهنه دون توقف ومع كل صيحة ألم تنطلق ضحكات الحيوانات الانسانية • وحاول أن يهدىء أنفه بلسانه ولكن اللسان هو الاخر محترق ولما اجتمع اللسان المحترق بالانف زاد الالم فزاد البكاء والقنوط •

وعندئذ شعر بالخزى بعد أن عرف الضحك وما يعنيه • ولم يصل الينا ما يدلنا على كيفية ادراك بعض الحيوانات الضحك وادراك هذه الحيوانات أنها موضع الضحك الساخر ولكن الناب الابيض أدرك ذلك وشعر بالخزى لسخرية الحيوانات الانسانية منه واستدار وهرب لا من ألم النار ، بل من السخرية التى أشد ايلاما له وأكثر عمقا فى نفسه ، وهرب الى كيش المخلوقة الوحيدة فى العالم التى لا تسخر منه •

وجاء الغسق وحل الليل ورقد « الناب الابيض » بجوار أمه ولسانه وانفه يؤلمانه ولكن اثار حيرته أمر اخر أشد من هذا الالم وهو الحنين الى موطنه اذ أحس بين جنبيه فراغا وحاجة الى سكون الغدير والكهف ورأى ان الحياة قد أصبحت شديدة الزحام ففيها الكثير من الحيوانات الانسانية من رجال ونساء وأطفال وجميعهم يصدرون ضوضاء ، ويسببون مضايقات ، ثم فيها الكلاب المشاغبة المشاكسة التى تثير ضجة عارمة واضطرابا صاخبا وافتقد العزلة المريحة التى تتصف بها الحياة الوحيدة التى عرفها • هنا ينبض الهواء نفسه بالحياة وفيه طنين ودوى لا ينتهيان وتتغير كثافة هذا الطنين وذاك الدوى باستمرار وتتغير حدته فجأة فيؤلم اعصابه وحواسه ويزعجه باستمرار توقع الاحداث •

وراقب « الناب الابيض » الحيوانات الانسانية وهى تدخل المخيم

وتخرج منه وتتحرك حوله ونظر الى الحيوانات الانسانية أمامه على نحو يشبه من بعيد حال البشر وهم ينظرون الى الهة من صنعهم . وهـذه الحيوانات الانسانية عنده مخلوقات سامية وآلهة حقيقية وهى فى ادراك البشر هى مخلوقات ذات تسلط ولها كل امكانيات المجهـول والمستحيل وهى تسيطر على كل ما هو حى وكل ما هو غير حى وتلزم كل شىء يتحرك بالطاعة لها وتهب الحركة لكل مالا يتحرك وتصـنع الحياة .. الحياة اللاسعة التى فى لون الشمس من العشب الميت والخشب انها صانعة النار ، انها الالهة !

الفصل الثانى
الأســـر

وعاش « الناب الابيض » أياما حافلة بالتجارب وظل طوال الايام التى قضتها كيش مقيدة بالعصا يجرى فى جميع أنحاء المخيم يفحص ويفتش ويتعلم وعرف الكثير من أساليب الحيوانات الانسانيه بسرعه، ولكن هذه الالفة لم تبعث فيه الشعور بازدراء تلك الحيوانات الانسانية بل انه كلما ازداد معرفة لها زاد لديه تأكيد تفوقها وزادت فى نظره مظاهر قواها الغامضة وزادت مشابهتها للالهة ٠

وكثيرا ما حزن الانسان وهو يرى آلهته سقط من عروشـها ومذابحه وهى تتهدم أما الذئب والكلبة البرية اللذان جاءا يقبعان عند قدمى الانسان فانهما لم يعانيا هذا الحزن . وتتميز آلهة الانســان بأنها غير منظورة وأنها وليدة التكهن المبالغ فيه وأنها أبخرة وضـباب صنعها خياله فهى تروغ من ثوب الحقيقة وأنها أطياف الطبيعة والقوة المرجوة والهائمة وأنها نتاج ذاتى متشابك فى دنيا الروح ٠ أما الهـة الذئب والكلبة البرية اللذين جاءا الى النار فهى الهة من لحم حى متين عند لمسه تشغل حيزا من الارض وتستغرق وقتا فى تحقيق أغراضها ووجودها ٠ وليس ضروريا بذل جهد من الايمان بمثل هذه الالهة ولا يجدى بذل أى جهد من ارادة للاغراء بعدم الايمان بمثل هـــذه الالهة ولا مهرب منها ٠ ان واحد هذه الالهة يقف على قدميه والعصا بيده له قوة هائلة وهو متحمس وغاضب ومحب ٠ انه الغموض والقـوة وقد اجتمعا فى لحم يدمى اذا جرح ومذاقه طيب كأى لحم آخر ٠

وهكذا كان الامر مع النـــاب الابيض فهو يرى فى الحيـــوانات الانسانية الهة لا يمكن اخطاؤها ولا مهرب منها ٠ وقد قدمت أمه كيش ولاءها لتلك الالهة عندما صاحت تلك الالهة اسمها لاول مرة وهكـذا بدأ يقدم ولاءه هو الاخر ٠ فأقر بأن الطريق والمرور فيه امتياز لهـذه الالهة من غير شك واذا رآها تمشى فى الطريق أفسحه لها ، واذا نادته لبى النداء ، واذا هددته انكمش وانطـوى على نفســـه ، واذا أمرته بالابتعاد اسرع على عجل بالابتعاد عنها ، لان وراء أية رغبة من رغباتها قوة تستطيع فرض تنفيذها بالقوة ، وهى قدرة تؤذى قـدرة تظهـر

صورتها فى الركل والعصى والحجارة المتطايرة ولسعات السياط ٠

كان تابعا لتلك الالهة شأنه فى ذلك شأن كل الكلاب وهى التى تتحكم فى أعماله ، كما أن جسده ملك لها تنهشه وتدوسه وتحتمله هذا هو الدرس الذى تلقنه بسرعة ، وكان درسا قاسيا لانه مضاد لكل ما هو قوى ومسيطر فى طبيعته ، واذا كان يكرهه أثناء تعلمه الا انه بدأ يتعلم كيف يحبه دون علم منه بذلك ٠ وكان بهذا يضع مصيره فى أيدى غيره ، وينقل مسئوليته عن وجوده الى عاتق غيره وهذا فى حد ذاته تعويض لان الاستناد الى اخر اسهل دائما من الوقوف الذاتى ٠

ولكن تسليمه نفسه جسدا وروحا للحيوانات الانسانية لم يحدث كله فى يوم واحد ٠ فما كان مستطيعا أن يتخلى مباشرة عن تراثه الوحشى وذكريات حياته البرية وجاءت أيام زحف فيها الى حافة الغابة ، ووقف وانصت الى شىء يناديه من بعيد جدا ، ولكنه عاد دائما قلقا لا يشعر بالراحة لينهنه فى حزن بجوار كيشى ، وليلعق وجهها بلسان متحمس متسائل ٠

وتعلم « الناب الابيض » بسرعة طرق الحياة فى المخيم وعرف ظلم وجشع الكلاب الاكبر سنا عندما يلقى اللحم والسمك لها لتأكله ٠ وعرف أن الناس اكثر عدلا وأن الاطفال أشد قسوة ، وان النساء أكثر رحمة وقابلية لان يلقين اليه بقطعة من لحم أو عظم ٠ وبعد مغامرتين أو ثلاث مغامرات مؤلمة مع أمهات الجراء النامية بعض النمو عرف أنه من الحكمة دائما أن يدع مثل هذه الامهات وشأنها والابتعاد عنها ما أمكنه ذلك وتحاشيها عند رؤيتها قادمة ٠

ولكن أكبر ما نغص عليه حياته الجرو لبلب ، فهو اكبر منه حجما وسنا وأقوى منه ٠ وقد اختاره لبلب ليخصه باضطهاده ٠ وكان « الناب الابيض » يقاتل عن طيب خاطر ولكن لبلب كان متفوقا عليه اذ انه أكبر منه كثيرا ولقد أصبح كابوسا مخيفا له ٠ وكلما ابتعد عن أمه ظهر لبلب وجاء فى أعقابه يزمجر فيه ويكشر له عن أنيابه ويترقب فرصة لا يكون فيها أحد الحيوانات الانسانية قريبا ليقفز عليه ويكرهه على القتال وهو واثق من انتصاره عليه مما جعله يستمتع بذلك استمتاعا كبيرا ٠ وأصبح هذا أكبر بهجة له فى الحياة كما أصبح أكبر عذاب « للناب الابيض » ٠

ولكن هذا لم يؤد الى اخضاع « الناب الابيض » اذ بالرغم من أنه كان يتحمل معظم العطب وكان نصيبه الهزيمة دائما ، الا ان روحه

ظلت عالية ، ومع ذلك فقد أسفر هذا عن نتيجة سيئة ذلك أن « الناب الابيض » أصبح شريرا مشاكسا . كانت الوحشيــــة طبعا فيه بحكم مولده ولكنه صار أكثر وحشية بفضل هذا الاضطهاد الذى لا نهاية له ولم يعد للجانب الطفولى العابث اللاهى منه وجود . ولم يعد يلعب مع الجراء الاخرى فى المخيم لان لبلب لم يســمح له بذلك اذ حالما يظهــر « الناب الابيض » بالقرب من تلك الجراء يأخذ لبلب فى مشــاكسته ومعاندته ، أو مقاتلته حتى يبتعد عنها .

واسفر هذا عن سلب « الناب الابيض » طفــولته ، وجعله أكبر سنا من حقيقته . ولما حرم من منفذ لطاقاته عن طريق اللعب انطوى على نفسه وانطلق فى عمليات عقلية . وأصبح ماكرا لما لديه من الفــراغ الذى شغله فى ابتكار الحيل . ولما حرم من الحصول على نصــيبه من اللحم والسمك وقت اطعام كلاب المخيم أصبح لصــا ماهرا ، اذ كان عليه أن يكفل أمر طعامه بنفسه وأجاد تدبير ذلك وأصــبح كارثة على المخيم اذ تعلم التسلل حول المخيم والمكر ومعرفة ماذا يجــرى فى كل مكان ورؤية وسماع كل شيء وابتكار وسائل ناجحة ليتحاشى مضطهده الذى لا يلين .

وفى الايام الاولى من اضطهاده لعب أول لعبة ماكرة كبيرة حقيقية له وبهذا حقق أول انتقام له . فكما كانت كيش اثناء حياتها مع الذئاب تغرى الكلاب بالخروج من المخيمات لكى تلتهمها الذئاب كذلك فعــل « الناب الابيض » على نحو يشبه هذا بعض الشيء عنــدما أغرى لبلب وأتى به الى فكى كيش المنتقمتين . وذلك بأن أخذ يتقهقر أمام لبلب ويهرب منه بطريقة غير مباشرة داخل المخيمات العديدة وخارجهــا وهو يجيد العدو ، ويفوق فى السرعة أى جرو من حجمه كمــا يفــوق لبلب نفسه الا أنه لم يجر أثناء هذه المطاردة بمــلء قوته بل احتفــظ بوجود مسافة قصيرة بينه وبين لبلب .

وأثارت المطاردة لبلب ودفعه القرب المستمر بينه وبين « النــاب الابيض » الى نسيان الحذر والمكان . وعندما تذكر المكان كان الاوان قد فات . اذ جاء مندفعا بأقصى سرعته حول أحد المخيمات فاصــطدم بكيش وهى راقدة عند أحد طرفى العصا ، وصاح صيحة رعب واحدة ثم أطبقت فكيها عليه . كانت مقيدة ولكنه لم يستطع الافلات منهــا بسهولة . وقلبته على ظهره فلم يستطع الجرى وعضته بأنيابها عــدة مرات .

وعندما تدحرج بعيدا عنها زحف واقفا على اقدامه وهو مشعث، وقد أصابه الاذى جسدا وروحا • وكان شعره منتصبا حول جسده وأطلق عواءه الصغير الكسير • ولكنه لم يستمر طويلا في العواء اذ لم يسمح له « الناب الابيض » بذلك بل غرس اسنانه في أحد ساقيه الخلفيتين ولم تكن في لبلب أية طاقة للقتال فجرى بصورة مخزية وفريسته في أعقابه يزعجه طول طريق عودته الى مخيمه • وهنا جاء الهنود لنجدته وقد تحول الناب الابيض الى شيطان ثائر واضطر الى الابتعـــاد تحت وابل الحجارة •

وجاء اليوم الذى رأى فيه السمور الاغبر أنه لم يعد من المحتمـل أن تهرب كيش فأطلق سراحها وابتهج الناب الابيض بحـــرية أمـه وصحبها في تجوالها في أنحاء المخيم وهو مبتهج كل الابتهـاج اذ انه ما دام قريبا منها فان لبلب يظل بعيدا عنه مسافة بعيدة • بل ان « الناب الابيض » كان ينفش شعره ويمشى متوتر الســيقان ، ولكن لبلب أخذ يتجاهل التحدى لانه لم يكن أحمق • ومهما اشتدت رغبته في الانتقام فأنه استطاع الانتظار حتى ينفرد بالناب الابيض وحده •

وبعد ظهر ذلك اليوم شردت كيش و « النــاب الابيض » حتى أطراف الغابة المجاورة للمخيم • وكان هو الذى قاد أمه الى هناك خطوة خطـــوة • حتى اذا توقفت حاول اغراءها بالتدخل في الغابة اذ كان الغدير والعرين والغابات الهـــادئة تناديه وأراد لامه أن تمضى معه ، وجرى بضع خطوات ثم توقف ونظر وراءه ولكنها لم تتحرك وبكى لها متوسلا وأخذ يجرى هنا وهناك مداعبا تحت الشجيرات القصـيرة •• وجرى نحوها ولعق وجهها ثم عاد يجرى مبتعدا عنها ثانية ومع ذلك لم تتحرك ، وتوقف وأخذ ينظر اليها وكله اصرار وحمـــاس ظهـرا في تعبيرات جسده ولكن هذا كله ذاب واضمحل عندما أدارت رأســـها ووجهت أبصارها الى المخيم •

كان في البرارى شيء يناديه • وسمعت أمه أيضا هذا النداء ولكنها سمعت أيضا النداء الاخر الاعلى صوتا ــ نداء النار والانسان • النداء الموجه الى الذئب والكلبة البرية وهما اخوان دون جميع الحيوانات .

واســـتدارت كيش ، وأخذت تركض عائدة الى المخيم فقد كانت سيطرة المخيم عليها أقوى من قبضة العصا • ظلت الالهة غير المنظورة مسيطرة عليها لا تسمح لها بالذهاب وجلس « النـاب الابيض » في ظل شجرة التامول وأخذ يبكى بصوت خافت • كانت في الهواء رائحة

الصنوبر القوية وعبير الغابة الوديع يذكرانه بحياة الحرية القديمة قبل أيام أسره · ولكنه لم يعد أن يكون جروا ناميا بعض النمو وكان نداء امه اقوى من نداء الانسان أو نداء الغابة فهو يعتمد عليها كل ساعات حياته القصيرة ، ولم يأت بعد أوان الاستقلال وهكذا نهض · وأخذ في قنوط عائدا الى المخيم وهو يتوقف بين لحظة وأخرى ويجلس ويبكى وينصت الى النداء وهو يرن في أعماق الغابة ·

والفترة التي يقضيها الصغير مع أمه في البرارى فترة قصيرة ولكنها فى مملكة الانسان أقصر أحيانا · وهكذا كان الامر مع « الناب الابيض » · كان السمور الاغبر مدينا لصديقه الذى أزمع الرحيل على طول نهر ماكنزى نحو بحيرة العبد الكبير فسدد السمور الاغبر دينه هذا لصديقه شريطا من القماش القرمزى وجلد دب وعشرين خرطوشة وكيش . ورأى « الناب الابيض » أمه وهى تنقل الى قارب الصديق، وحاول أن يتبعها فضربه الصديق ضربة أوقعته على الارض ، ومضى القارب ، وقفز فى الماء وسبح وراءه وهو لا ينصت لصيحات السمور الأغبر اذ يأمره بالعودة وتجاهل « الناب الابيض » الحيوان الانسانى الذى يراه الها له تحت تأثير الهلع الذى انتابه لفقد أمه ·

ولكن الالهة تعودت الطاعة ، وركب السمور الاغبر الغاضب قاربا وراءه وعندما بلغ « الناب الابيض » مد يده وأمسك قفاه ورفعه من الماء ولم يضعه فى قاع القارب على الفور ، بل ظل ممسكا به بيده فى الهواء وأخذ يضربه باليد الاخرى ضربا مبرحا ، ويد السمور الاغبر ثقيلة وكل ضربة تحمل « للناب الابيض » ألما جديدا وتعددت الضربات

وانهالت الضربات على « الناب الابيض » مرة فى جنب ومرة اخرى فى الجنب الاخر ، وحركته مع كل ضربة مرة يمينا ومرة أخرى شمالا كأنه بندول الساعة · واختلفت العواطف التى ثارت بين جنبيه · سيطرت عليه المفاجأة في أول الامر ثم سيطر عليه خوف مؤقت حين صاح عدة صيحات من أثر الضرب وقوة وقع اليد · ولكن جاء عقب ذلك الغضب وأكدت طبيعته الحرة ذاتها وكشف عن انيابه ، وزمجر فى غير خوف في وجه الاله الغاضب · ولكن هذا لم يسفر الا عن زيادة الغضب وتلاحقت الضربات وزاد ايلامها ·

واستمر السمور الاغبر فى الضرب واستمر « الناب الابيض » فى الزمجرة ولكن هذا لم يكن ليستمر الى الابد ، ولابد من أن يكف أحدهما عما هو فيه · وكان الذى كف عما هو فيه « الناب الابيض »

اذ هيمن الخوف عليه من جديد . فلأول مرة فى حياته يضربه انسان ضربا حقيقيا فعهده بالضربات بين حين واخر بالعصا والاحجـــار مما تعرض له من قبل وهى لمســـات هينة اذ هى قورنت بما يلقاه الان · وانهار وبكى ·· وظل بعض الوقت يبكى لكل ضربة ، ولكن الخـوف استحال رعبا وأخيرا تعاقب بكاؤه واصبح متصلا ولم يعد يتقطـع مع مرات الضرب ·

وأخيرا أوقف السمور الاغبر يده وظل الناب الابيض معلقـا فى حذر وهو يبكى واحس سيده أن هذا يرضيه فالقى به فى خشـــونة فى قاع القارب · وفى أثناء ذلك مضى القارب فى الغـــدير · والتقط السمور الاغبر المجداف وكان « الناب الابيض » معترضا طريقه فأزاحه بقدمه فى قسوة وفى تلك اللحظة عادت طبيعة « الناب الابيض » الحرة اليه ثانية وغرس اسنانه فى قدم سيده وهى بحذائها ·

وكان الضرب الذى ناله لا يقاس بما انهال عليه بعد هـــذا · اذ أصبح غضب السمور الاغبر رهيبا ، وبالمثل أصبح خـوف « النـــاب الابيض » . ولم يكتف سيده بضربه بيده هذه المرة بل استخدم المجداف الخشبى أيضا فى ضربه وأصيب جسده الصغير بعدة جراح وآلام حتى القى به ثانية فى قاع القارب · ومرة أخرى ركله السمور الاغبر بقدمه متعمدا ، ولم يكرر « الناب الابيض » هجومه على قدم سـيده · فقد تلقى درسا اخر من دروس الاسر ولن يجرؤ أبدا فيما بعد مهما كانت الظروف على عض الاله الذى هو سيده ومولاه · وأصبح جسد سيده ومولاه مقدسا لا يجب أن تدنسه أسنان كأسنانه · فهذه بداهة كبرى الجرائم والذنب الذى لا يغتفر ، ولا يجوز تجاهله ·

وعندما لمس القارب الشاطىء ظل « الناب الابيض » قابعا فى قاعه يبكى وينهنه ولا يأتى بحركة منتظرا ارادة الســـمور الاغبر ، وأراد السمور الاغبر له أن يذهب الى الشاطىء فألقى به على الشاطىء حيث وقع على جنبه فآلمته جراحه من جديد ، وزحف مرتعدا حتى وقف على أقدامه وهو ينهنه ، واندفع لبلب الذى شهد العملية كلها من الشاطىء نحو الناب الابيض وأوقفه على الارض وغرس فيه أســـنانه ، وكان الناب الابيض من الضعف بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفســه ولولا اندفاع قدم السمور الاغبر نحو لبلب ورفعها اياه فى الهـــواء بكل ما فيها من عنف الى حد دفعـه على بعد عشرة أقدام لطـال ايلام لبلب اياه ، هذه هى عدالة الحيوان الانسانى وحتى ذلك الوقت وبالرغم

من المحنة المثيرة للشفقة التى كان « الناب الابيض » فيها فأنه أحس هذا العرفان بالجميل . وهكذا تعلم « الناب الابيض » أن حق العقاب شيء تحتفظ به الالهة لنفسها وتنكره على المخلوقات التى هى دونها .

وفى تلك الليلة ، والدنيا سكون تذكر « النـــاب الابيض » أمه وحزن لها ، وحزن بصوت عال فأيقظ السمور الاغبر فنال ما استحقه من عقاب لهذا الايقاظ . وبعد ذلك أصبح وديعا فى حزنه فى حضرة الالهة . ولكنه أحيانا كان يشرد وحيدا حتى طرف الغابة ، وهنـــاك يستسلم للحزن ويصرخ عاليا منتحبا منهنها .

وفى خلال هذه الفترة انصت لذكريات العـــرين والغدير وجرى يعدو عائدا الى البرارى . ولكن ذكرى أمه استوقفته . وكمـا تذهب الحيوانات الانسانية للصيد وتعود ، كذلك قد تعود أمه يوما ما وهكذا بقى فى الأسر ينتظرها .

ولكن الاسر ليس شقاء كله ، فهناك شيء كثير يثير اهتمامه . شيء يحدث دائما ، ولم يكن هناك حد للاشياء الغريبة التى يفعلهـا هؤلاء الالهة وفضـــوله دائم للرؤية . وفضلا عن ذلك فقد بدأ يتعلم كيف يساير السمور الاغبر . وكان المنتظر منه أن يكون مطيعا طاعة عمياء لا انحراف فيها ، وفى مقابل ذلك لا يناله ضرب وتصبح حياته محتملة

وأحيانا يلقى السـمور الاغبر اليه قطعة لحم ويدافع عنه ضـد الكلاب الاخرى ، وهو يأكل قطعـــة اللحم ولها قيمتهـــا ، ولم يكن السمور الاغبر يربت عليه أو يدلله ، وربما كان ثقل يد السمور الاغبر أو عدالته أو مجرد قوته أو هذه كلها معا هى التى تؤثر فى « النـاب الابيض » لان رابطة معينة بدأت تتشـكل بينه وبين مولاه الواثق من نفسه .

واغلال أسر « الناب الابيض » هى المكر والدهاء ، وقوة العصـــا والحجارة وضربة اليد وجعلت صـــفاته النوعية فى البداية من الممكن أن يقترب من نيران البشر ، وهى صفات قابلة للنمو ، وقد نمت فيه، وكانت نيران المخيم المشحونة بالشقاء تزداد قدرا عنده طول الوقت ، ولكنه لم يدرك ذلك . لم يعرف سوى الحزن لفقد كيش والامـل فى عودتها واللهفة المتعطشة للحياة الحرة التى كانت له من قبل .

الفصل الثالث
المنبــوذ

واستمر لبلب على سلوكه هذا مع « النــاب الأبيض » يجعل أيامه كلها سوداء حتى اصبح « الناب الأبيض » شريرا ومتوحشــا على نحــو يزيد كثيرا عما تؤهله له طبيعته ، لقد كانت الوحشية جزءا من تكوينه ولكن الوحشية التى اكتســـبها من معــاملة لبلب له زادت كثيرا عن وحشيته الطبيعية بل لقد اشتهر بالشر حتى بين الحيوانات الانسانية نفسها . اذ كلما ثارت متاعب وضجة وقتـــال ونزاع أو صــياح أحد الهنود بسبب سرقة قطعة من اللحم ، كان مؤكدا أن « للناب الأبيض » ضلعا فى هذا الأمر ، بل انه اســـاسه عادة . ولم يشــــغلوا أنفسهم بالبحث عن اسباب سلوكه بل اكتفوا برؤية الآثار وهى آثار سيئة . كان لصا متسللا مؤذيا ومسببا للمتاعب . وكان الهنود يقولون رأيهم هذا فيه فى وجهه بينما ينظر اليهم فى يقظة واستعداد لتفادى أى حجر قد يلقى عليه كان ذئبا حقيرا مقدرا له أن ينتهى نهاية سيئة .

ووجد نفسه منبوذا وسط المخيم الآهل بالسكان . وحذت جميــع الكلاب الصغيرة حذو لبلب . ربما أحســـوا فيه أنه من اصــل برى فشعروا نحوه شعورا غريزيا بالعـــداوة ، وهو الشــعور الذى تكنه الكلاب المستأنسة للذئب . ولكن كائنا ما كان الامر فان هــذه الكلاب الصغيرة انضمت الى لبلب فى اضطهاده « الناب الأبيض » . واذ أعلنت هذه الكلاب عداوتها كثيرا ما نالها أذى من أنيابه فهو اذا انفرد بأحدها انهال عليه عضا والجأه الى الفرار ولكن الكلاب لم تسمح له فى الغالب بأن يلقاها فرادى . وكلما بدأ قتال ضد « الناب الأبيض » توافرت كل كلاب المخيم للاشتراك فى مهاجمته .

وتعلم من هذا القتال الجماعى شيئين هامين هما كيف ياخذ حذره فى قتاله ضد القطيع وكيف يحدث فى الكلب الواحد أكبر عطب ممكن فى أقل فترة ممكنه من الزمن . وكان الثبــات فى الموقف وسط كتلة معادية معناه الحياة وهذا أمر أجاد فهمه وتعلمه . واصبح كالقط مهارة فى الوقوف على أقدامه . حتى الكلاب الكبيرة كانت تقلبه الى الوراء أو

الى أحد الجنبين بدفعه بأجسامها الثقيلة ولكنـه في كل حالة من هذه يحتفظ بأقدامه ثابتة تحته ٠

وعندما تتقاتل الكلاب تقدم للقتال الفعلي بالزمجرة والتكشير عن الانياب ونفش الشعر وتوتر السيقان ٠ ولكن « الناب الأبيض » تعـلم كيف يخوف هذه المقدمات اذ أن في التـأخير احتمـال لتعرضه لهجوم جميع الجراء بينما يجب عليه أن ينهى عمله بسرعة ويهـرب ، وهكذا تعلم ألا يقدم نذيرا بما يعتزمه بل يندفع ويعض على الفور بدون انذار وقبل أن يستطيع عدوه الاستعداد له . هكذا تعلم كيف يلحق بعدوه عطبا شديدا سريعا كما تعلم قيمة المفاجأة ٠ والكلب الذى يؤخذ على غرة وتنشق كتفه أو تمزق اذنه شرائح قبل أن يعرف ماذا يجرى له يذهب عنه نصف قوته ٠

وفضلا عن ذلك فقد أصبح سـهلا عليه بدرجة ملحـوظة أن يقلب كلبا بالمفاجأة ، فاذا انقلب انكشـــف باطن عنقه الغض مدى لحظة ــ وهذا هو المكان المعرض للهجوم ، والذى يمكن ضربه فيه والقضـاء على حياته ٠ وعرف « الناب الأبيض هذه النقطة وهى معرفة ورثها مباشرة عن جيل من الذئاب الصائدة ٠ فطريقة « الناب الأبيض » فى الهجـوم هى أن يجد جروا وحيدا أولا ، وأن يفاجئه ويوقعه على الارض ثانيا وأن يقبض بفكيه على عنقه ثالثا .

ولما كان ناقص النمو فان فكيه لم يكونا كبيرتين أو قريبتين بدرجة كافية لجعل هجمته قاتلة وكثيرا ما حملت الجراء فى المخيم آثار « الناب الأبيض » فى أعناقها من تمزق وتهتك ٠ واستطاع ذات يوم أن يتصيد أحد أعدائه وحده عند حافة الغابة ، وأن يقلبه عدة مرات ، وفى كل مرة يهاجم عنقه ، وفى احدى هذه المرات قطع وريده فقضى على حياته ٠ وفى تلك الليلة ثارت ضجة كبرى اذ رآه القوم وهو يقوم بهذا العمل وبلغ الخبر صاحب الكلب الميت وتذكر الهنود حوادث سرقات اللحم وانزعج السمور الأغبر من الاصوات الغاضـــبة ولكنه أبقى باب خيمته عليه محكما واحتفظ داخلها بالمجرم ورفض السماح لاحد بالانتقام منه ٠

وأصبح الناس والكلاب كارهين « للناب الأبيض » ٠ وفى أثناء هذه الفترة من نموه لم يعرف للامن طعما ٠ أصبح ناب كل كلب ســلاحا مشهرا ضده وكذلك كانت يد كل انسـان ضـده . فالكلاب تبادره بالزمجرة والبشر يواجهونه باللعنات وقذف الاحجـار وعاش فى توتر فكان دائما منتبها متوثبا للهجوم حذرا ضـد أى هجـوم قد يقع ضده

يفتح عينيه مخافة اية حجارة تلقي عليه مفاجاة ، وهو مستعد دائمـــا للعمل فورا وبهدوء وللوثب مهاجما كاشفا عن أنيـابه أو الوثب هاربا مكشرا عن أنيابه متهددا متوعدا ٠

وهو من ناحية الزمجـرة أشـــد رهبة من أى كلب اخر فى المخيم صغيرا كان أم كبيرا والمقصود بالزمجرة التحذير أو التخويف ، ولابد من معرفة متى يجب استخدامها ٠ ولقد عرف « النــاب الأبيض » كيف يستخدمها ومتى يســـتخدمها ٠ وهو يضمن زمجـرته كل شر وخبث وهول . فانفه المتغضن من اثر التقلصات المستمرة ، وشعره المنتفش فى موجات متعاقبة ولسانه المتدلى كأنه حية حمراء واذناه المفرطحتـان الى أدنى وعيناه البراقتان تنفثان كراهية وشفتاه المنكمشـــتان الى الوراء وأنيابه المكشوفة ، كل هذا معا يكره أى مهـــاجم على التوقف ٠ وهذا التوقف المؤقت من جانب المهاجم يتيح الفرصة الحيـوية للناب الابيض لكى يجدد العمل الذى يقوم به ولكن غالبا ما يطول هذا الموقف وينتهى بعدول المهاجم عن هجومه ٠ وساعدت الزمجرة الناب الابيض أكثر من مرة أمام الكلاب الكبيرة فى التقهقر بصورة كريمة ٠

ولما كان « الناب الأبيض » منبوذا من القطيع فان وسائله الدموية وكفايته الملحوظة جعلت القطيـع يدفع ثمن نبـــذه اياه ، ذلك أنه لم يستطع أحد أفراد القطيع الابتعاد عن القطيع لأن « الناب الأبيض » لم يكن يسمح بذلك بما كان يعمد اليه من ترصـــد وترقب ، الامر الذى أصبح مبعث خوف الجراء فتعمد الى التجمع بقصد الحماية المتبادلة ضد عدوها الرهيب ، الا أن لبلب لم يكن يسلك هذا السلوك ٠ وكان معنى وجود جرو منعزل عند شاطىء النهر أنه يعرض نفسه للموت أو ليعود الى المخيم ليثير ضجة هائلة بعوائه من أثر الالم الذى ينـــاله من جرو الذئب ٠

ولكن اعمال « الناب الأبيض » الانتقـــامية لم تكف حتى بعـد أن تعلمت الجراء تماما وجوب تجمعها ، اذ كان يهاجمها فرادى وكانت هى تهاجمه جماعات ويكفى جدا أن تراه لتبـدأ هجـومها عليه ، وفى هذا الوقت تحمله سرعته عادة الى مأمن ٠ وويل عندئذ للكلب الذى يســبق رفاقه فى مطاردة « الناب الأبيض » فقد تعلم هذا أن يســتدير فجأة ، وينقلب على مهاجمه الذى يكون قد سبق القطيع ويمزقه قبل وصـول بقية القطيع وكثيرا ما حدث هذا اذ عنـــدما تتجمع الكلاب وتتصـايح وتندفع جماعة تنسى انفسها فى نشوة المطاردة بينما لا ينسى « الناب

الأبيض » نفسه أبدا بل هو يختلس النظرات الى الوراء أثناء جريه وهو دائما على استعداد للاستدارة فجأة ومواجهة المطارد الذى يبالغ فى تحمسه ويسبق رفاقه ·

ولابد للجراء من اللعب وقد وجدت فى عمليات الهجوم على « الناب الأبيض » لعبة لها ، وهكذا أصبحت مطاردة « الناب الأبيض » أكبر لعبة عند هذه الجراء وهى لعبة قاتلة وخطرة على كل المشتركين فيها · أما « الناب الأبيض » من ناحية أخرى فأنه لما كان اسرع جريا فهو لا يخشى المغامرة بالذهاب الى أى مكان · وفى خلال الفترة التى انتظر فيها عودة أمه عبثا قاد القطيع عدة مرات وهو يطارده الى الغابات المجاورة · ولكن القطيع فى كل مطاردة كان يفقد أثره · وضوضاء القطيع وصيحاته تنذر « الناب الأبيض » بوجوده بينما هو وحده يمضى فى سكون بأقدامه المخملية كالشبح بين الاشجار على نحو ما كان ابوه وأمه يفعلان من قبل · وفضلا عن ذلك فهو اكثر ارتباطا بالبرية من تلك الكلاب وأكثر منها علما باسرارها واستراتيجيتها · ومن أحب حيله اليه هو محو أثره بالماء الجارى وعندئذ يرقد فى هدوء فى اجمة قريبة بينما تتعالى أصوات الكلاب من حوله ·

وزادت فى نموه كراهية الكلاب وكراهية البشر له لما كانتا تسببانه من حرب دائمة عليه ، وحرب دائمة من جانبه عليها · ولم يكن المجال مجال حب أو عطف · ولم يكن يدرى شيئا قط عن مثل هذه الامور والقانون الذى تعلمه هو أن يطيع القوى وأن يضطهد الضعيف · وكان السمور الأغبر الها وقويا · ولهذا اطاعه « الناب الأبيض » أما الكلب فأصغر منه سنا وحجما وهو ضعيف ولهذا لابد من القضاء عليه · وكان نموه فى اتجاه القوة · ولكى يواجه الخطر الدائم خطر الاذى بل والقضاء عليه نمت فيه صفات الافتراس والوقاية وأصبح اسرع حركة وجريا ، واشد دهاء ووحشية ومرونة من الكلاب الاخرى · كما أصبح أكثر نحافة منها واشد صلابة عضلات وأقوى احتمالا واعنف قسوة وأكبر ذكاء ، ولابد له من كل هذه الصفات والا لما استطاع البقاء فى هذه البيئة المعادية التى وجد نفسه فيها ·

الفصل الرابع
طريق الآلهة

واتيحت الفرصة للناب الابيض لكي يتحرر فى أواخر العام حين قصر النهار وبدا البرد في الهواء ٠ وساد الهرج والمرج القرية عدة أيام كان القوم خلالها يفكون الخيام ، ويحزمون أمتعتهم استعدادا للرحيل لصيد الشتاء وراقب « الناب الأبيض » كل ذلك بعينين متحمستين وعندما حزمت الخيام وشحنت القوارب فهم « الناب الأبيض » كل شيء ٠ وبدأت القوارب الرحيل واختفى بعضها في أفق النهر ٠

وقرر ، في اصرار ، أن يتخلف عن السفر ، وانتظر فرصته للتسلل من المخيم الى الغابات وهنا وعلى صفحة الغدير حيث بدأ الثلج يتكون اخفى أثره وزحف الى قلب اجمة وانتظر ٠ ومر الوقت ونام نوما متقطعا ساعات طويلة ٠ وعندئذ أيقظه صوت السمور الأغبر ، وهو يناديه باسمه ثم سمع اصواتا اخرى ٠ وسمع « الناب الأبيض » أهل السمور الأغبر يشتركون في البحث عنه وبينهم ابنه ميتساه ٠

وارتعد « الناب الأبيض » خوفا ، وأحس دافعا يدفعه للزحف خارجا من مخبئه وقاوم هذا الدافع ٠ وبعد انقضاء بعض الوقت لم يعد يسمع صوتا وبعد ذلك بقليل خرج من مخبئه ليستمتع بنجاح تدبيره٠ وعندئذ ، وعلى حين فجأة ، شعر بالوحدة ٠ وجلس يتدبر أمره وأنصت لصمت الغابة وأزعجه هذا الصمت . وبدا له خمود الحركة والصمت أمرا منذرا بالشر ٠ وأحس الخطر الكامن ، والذى لا تمكن رؤيته ولا يمكن التكهن به ٠ وتتابعت في بصيرته الباطنية صور متلاحقة من الذكريات ٠ رأى المخيم ووهج النار ، وسمع أصوات النساء المجلجلة واصوات الرجال العريضة الخشنة وزمجرة الكلاب ٠ وشعر بالجوع وتذكر قطع اللحم والسمك وهى تلقى اليه أما هنا فلا وجود للحم والسمك ٠ لا شيء سوى الصمت المهدد ٠

ولقد رقق الاسر طباعه ، كما أضعفه عدم تحمله أية مسئولية ونسى كيف يكسب قوته ٠ وتثاءب الليل من حوله ٠ وتعطلت حواسه بعد أن الفت طنين ودوى المخيم وتتابع المناظر والاصوات ، ولم يعد لديه

ما يعمله ولا يراه أو يسمعه • وأرهف اذنيه لعله يســـمع شيئا يقطع الصمت ، أو يرى مايفكك جمـــود الطبيعــة وأفزع حواسه الخمـول ، والاحساس بأن شيئا رهيبا يوشك أن يقع •

واجتاحته نوبة خوف اذ رأى شيئا هائلا بلا شـكل محدد • وكان ذلك الشيء ظل شجرة القاه القمر بعد أن انزاحت عنه كتل الغمام • ولما اطمأن بكى بصوت خافت ، وعندئذ كفكف بكاءه مخافة أن يجذب اليه انتباه الاخطار الكامنة •

وانكمشت بعض فروع شجرة من أثر برد الليل ، فأصدرت صوتا عاليا وكانت فروع هذه الشجرة فوقه مباشرة وعوى خـوفا ، وسيطر عليه الذعر وجرى في جنـــون نحو القرية ، وأحس رغبــة عارمة في حماية الانسان وصحبته وملأت رائحة دخان المخيم خياشيمه ، وكانت اصوات المخيم وصــــيحاته ترن عالية في اذنيه ، وخرج من الاجمة الى المكان الفسيح الذى غمره ضوء القمر ولم تعد به ظـلال أو ظلام • ولم ير أثرا للقرية وكان قد نسى •• لقد ذهبت القرية •

وكف خوفه البرى فجأة • لم يعد هناك مكان يلجأ اليه • وسار في قنوط في ارجاء المخيم المهجور يتشمم أكوام القمــامة والخرق • وأثار الآلهة ، ولكم كان يسعده وقتئذ أن لو تســـاقطت عليه الاحجـار وقد القاها هندى غاضب ولكم كانت تسعده وقتئذ يد السمور الأغبر لو أنها هوت عليه غاضبة بل انه كان يرحب في ابتهاج بلبلب والقطيع المزمجر من حوله •

وجاء الى حيث كان مخيم السمور الأغبر وجلس وسط المكان الذى كان يشغله ورفع أنفه الى القمر ، وأحس حشرجة زمجــرة في حلقه ، وفتح فمه وعوى عواء كان صيحة القلب الكســـير وهو يشــكو وحدته وخوفه وحزنه على كيش وكل احزانه وشقائه السابق وكذلك خوفه مما ينتظره من عناء وأخطار وكان عواؤه عواء الذئب الطويل ملء حنجرته والذى ضمنه كل حزنه • وكان ذلك أول عواء له في حياته •

وبدد مجيء النهار مخاوفه ولكنه زاد حدته • وفرضت عليه الأرض العارية التى كانت منذ قليل آهلة بالسكان حدة الشعور بالوحدة ولم يستغرق وقتا طويلا في اتخاذ قرار فمضى داخل الغابة ، وسار محاذيا شاطيء النهر • وجرى طول نهاره ولم يتوقف للراحة ، وبدا عليه أنه صمم على أن يجرى الى الابد • وتجاهل جسده الحـديدى كل نصب •

وحتى بعد أن شعر بالتعب دفعه تراث الاحتمال الذى ورثه عن آبائه الى المضى قدما الى مالا نهاية له وساعده على دفع جسده الشاكى الى الامام ٠

وكلما جاور مجرى النهر جرفا عاليا خطرا تسلق الجبال العالية وراء هذا الجرف ٠ وعند ملتقى الانهار ، تحاشى الانهار المتعارضة مع مجرى النهر أو سبحها ٠ وغالبا ما أتخذ طريقه فوق حافة الماء المتجمدة وقد حدث أكثر من مرة أن انهار الجليد تحت أقدامه وهوى فى الماء الشديد البرودة وكافح التيار العنيف لينجو بحياته وهو لاينفك متتبعا طريق الآلهة ، وفى احتماله أن يكون هذا الطريق قد ترك النهر ومضى داخل الارض ٠

وكان الناب الأبيض يفوق متوسط ذكاء نوعه ٠ ومع ذلك فان بصيرته لم تتسع بدرجة تكفى لأن تشمل الشاطىء الآخر لنهر ماكنزى الا يحتمل أن يمضى طريق الآلهة الى ذلك الجانب ، لم يخطر هذا السؤال بباله قط ٠ وفيما بعد عندما يزيد نصيبه من الرحلات ويصير أكبر سنا وحكمة وتزيد معرفته للطرق والانهار ربما يستطيع وقتئذ أدراك وتقدير مثل هذه الاحتمالات ٠ ولكن مثل هذه الطاقة العقلية كانت وقتئذ فى ضمير الغيب ٠ أما الآن فانه ظل يجرى على غير هدى لا يدخل فى حسابه سوى شاطىء نهر ماكنزى الذى يجرى عليه ٠

وظل يجرى طول الليل ويخطىء فى الظلام فيصطدم بالعوائق والعقبات التى تعطله ولكنها لا تحول دون مضيه فى طريقه ٠ وفى ظهر اليوم التالى كان قد قطع ثلاثين ساعة وهو يجرى وبدأ الحديد فى لحمه يلين ويتعب وظل احتماله العقلى يبقى عليه القدرة على الجرى ٠ وبلغ ما قضاه أربعين ساعة لم يذق خلالها طعاما فأنهكه الجوع وزاده تكرار وقوعه فى الماء المثلج هو الآخر تعبا وأفسد مظهر فرائه وآلمته كفوف أقدامه من أثر ما الم بها من جراح وأخذت تنزف دما ٠ وظل يعرج وزاد هذا العرج مع مرور الساعات ٠ ومما زاد الامر سوءا تلبد السماء بالغيوم وتساقط الجليد باردا رطبا يذوب ويتعلق بالفراء ويجعل الارض زلقة تحت أقدامه ويخفى عنه المناظر التى أمامه كما أخفى ما بالارض من عدم استواء الامر الذى جعل السير أشق وأكثر ايلاما لاقدامه ٠

وكان السمور الأغبر قد اعتزم أن يخيم تلك الليلة على الشاطىء الآخر لنهر ماكنزى حيث الطريق الى الصيد ٠ ولكن حدث على هذا الشاطىء حيث يجرى الناب الأبيض قبل هبوط الظلام أن كان أيل آتيا

الى النهر ليشرب ورأته كلوكوش وهي زوجة السمور الأغبر ولو لم يأت الأيل ليشرب ولو لم يبتعد ميتساه ابن السمور الأغبر عن الركب بسبب الجليد ولو لم تر كلوكوش هذا الأيل ولو لم يصده السمور الأغبر بطلقة صائبة من بندقيته لتغير سير الاحداث التالية • ولما خيم السمور الأغبر على الجانب القريب من ماكنزى لتجاوزهم الناب الأبيض دون أن يراهم ولو تجاوزهم لظل يمضى فى طريقه اما ليموت واما ليجد طريقه الى أخوته فى البرية وليصبح واحدا منها ـ ذئبا حتى آخر أيامه

وهبط الليل وزادت كثافة الجليد وأخذ الناب الأبيض يعوى بصوت خافت وهو يتعثر ويصرخ حين وقع على أثر جديد على الجليد • وكان الآثر جديدا فعرفه على الفور • ونهنه بحماس وتتبع الآثر وهو يبتعد عن النهر ويمضى بين الاشجار والتقطت اذناه أصوات المخيم ورأى وهج النار وكانت كلوكوش تطهو طعاما والسمور الأغبر يمضغ قطعة من الدهن النيىء ، وهو جالس • كان فى المخيم لحم طازج !

وتوقع الناب الأبيض الضرب • وأقعى على مؤخرته ونفش شعره قليلا عندما فكر في هذا الامر ثم تقدم مرة أخرى وخشى وكره الضرب الذى عرف أنه ينتظره ولكنه عرف الى جانب ذلك أنه سيشعر براحة الدفء وحماية الآلهة وصحبة الكلاب وان كانت صحبة اعداء الا أنها على كل حال صحبة تشبع حاجته الى الجماعة •

وتقدم زاحفا متذللا فى ضوء النهار وراه السمور الأغبر وكف عن المضغ وزحف الناب الابيض فى بطء وتذلل زاحفا فى ضعة وخضوع وزحف قدما نحو السمور الأغبر وهو يزداد بطئا مع كل بوصة يقطعها وأخيرا رقد عند قدمى سيده وسلم نفسه لسيطرته راضيا مختارا جسدا وروحا • جاء بمحض اختياره ليجلس بجوار نار الانسان وليحكمه الانسان • وارتعد الناب الأبيض ينتظر العقاب • ولكن الضربة لم تنزل عليه واختلس نظرة الى أعلى • كان السمور الأغبر يقدم له قطعة من الدهن ! وتشمم قطعة الدهن فى أول الامر برقة شديدة وفى شك ثم مضى يأكلها • وأمر السمور الأغبر بأعطائه اللحم وحماه من الكلاب الاخرى أثناء تناوله الطعام • وبعد ذلك رقد الناب الأبيض عند قدمى السمور الأغبر راضيا شاكرا وأخذ يحدق النظر فى النار التى بعثت الدفء فى جسده وأخذ يرمش بعينيه ويروح فى النعاس وهو مطمئن الى علمه بأن العز سيحل عليه وهو فى مخيم الحيوانات الانسانية مع الآلهة التى قدم لها نفسه وعليها أصبح معتمدا •

الفصل الخامس
العهـــد

وبعد أن انتصف شهر ديسمبر مضى السمور الأغبر في رحلة على طول نهر ماكنزى ومضى ميتساه وكلوكوش معه · وقاد السمور الأغبر زحافة تجرها الكلاب التى اشتراها أو استعارها وقاد ميتساه زحـافة اخرى أصـــغر من زحافته تجرها بعض الجراء · وكانت هذه الزحافة الصغيرة أقرب الى اللعبة منها الى أى شىء آخــر · ومع ذلك فقد كانت مصدر ابتهاج لميتساه الذى أحس أنه بدأ يعمـل عمـل الرجال فى هذا العالم · كما بدأ يتعلم قيادة الكلاب وتدريبها · وفضــــلا عن ذلك فان الزحافة كانت تستخدم فى أغراض أخرى اذ كانت تحمل قرابة مائتى رطل من المعدات والغذاء ·

ورأى الناب الأبيض كلاب المخيم وهى تجهد نفســـها وهى مقيدة بالزحافة ولهذا لم يشعر باستياء كبير من وضع السير حول جســـده وأحاطة عنقه بطوق محشو بالعشب شد بقطعتين من الجلد الى شريط أحاط بصدره وظهره · وفى هذا الشريط ثبت حبـل طويل يجذب به الزحافة ·

ويضم فريق الناب الأبيض ستة جراء اخرى كانت قد سبقته فى المولد ذلك العام فأعمارها تتراوح بين تسعة وعشرة اشهر بينما الناب الأبيض لم يزد عمره عن ثمانية اشهر · وكان كل كلب مقيدا بالزحافة بحبل واحد · ولم يكن بين هذه الحبال حبلان يشـــتركان فى الطول ويبلغ الفارق فى الطـــول بين كل حبل والآخر طول جسد أحـد تلك الكلاب · وينتهى كل حبل بحلقة فى مقـدمة الزحافة المفرطحة والتى ثنى طرفها الامامى حتى لا تغرس فى الجليـــد وبهذا التـكوين أصبح ثقلها موزعا على أكبر مساحة ممكنة من الجليـــد لان الجليـد كالبللور المسحوق غاية فى النعومة · وراعت الكلاب نفسها مبدأ توزيع الثقـــل فانتشرت بحبالها كالمروحة حتى لا يدوس كلب منها على قدم كلب آخر ولشكل المروحة فضيلة اخرى فالحبـــال المختلفة الاطوال منعت

الكلاب التي تجرى في المؤخرة من مهاجمة تلك التي تتقدمها · اذ لكى يستطيع كلب مهاجمة كلب آخر لابد له من أن يستدير نحو كلب مقيد بحبل اقصر من الحبل الذى قيد هو به · وفي هذه الحالة يجد نفسه وجها لوجه أمام الكلب الذي يهاجمه كما يجد نفسه في هذه الحالة في مواجهة سوط قائد الزحافة ولكن أهم جميع الفضـائل أن الكلب الذى يعمل على مهاجمة كلب آخر أمامه يجذب الزحافة فيزيد سرعتها وكلما زادت سرعة الزحافة زاد ابتعاد الكلب المتقدم عن الـكلب الذى يتعمـد مهاجمته وتزيد سرعة الزحافة · وكلمـا اسرع الـكلب المهـاجم اسرع الكلب المعرض للهجوم وأسرعت كل الكلاب وبهذا تمضى الزحافة بسرعة وهكذا استطاع الانسان بدهائه السيطرة على الوحوش ·

وكان متساه يشبه أباه وورث عنه الحكمة · كان في الماضي يرقب اضطهاد لبلب للناب الأبيض ولبلب وقتذاك كلب رجل آخر · وما كان ميتساه يجرؤ وقتئذ على أكثر من أن يقذفه بحجر والان أصبح لبلب كلبه وكانت وسيلته فى الانتقام منه أن يقيده بأطول حبل ويجعله المقدم على فريقه وهذا أمر في ظاهره تكريما بينما هو فى الواقع انتزع منه كل تكريم وبدلا من أن يكون قويا وسـيدا على القطيع وجد نفسـه محـل كراهية القطيع واضطهاده ·

فانه لما كان مقيدا بأطول حبل أصـبحت بقية الـكلاب تراه وهو يجرى أمامهـا وكل ما تراه منه هو ذيله الكثيف الشـعر وسـاقاه الخلفيتان وهما تجريان ـ وهو منظر أقل وحشـية واخافة من معرفته الثائرة وأنيابه البراقة · وطبقا للعمليات العقلية عند الكلاب فان منظر لبلب وهو يجرى امام الكلاب خلق فى نفوسها الرغبة فى الجرى وراءه والاحساس بأنه يهرب منها ·

ومنذ أن بدأت الزحافة السـير والفريق يجـرى وراء لبلب فى مطاردة تستمر طول النهار · وأوشك فى أول الامر أن يسـتدير على مطارديه غاضبا لكرامته ولكن ميتسـاه فى مثل هذه الظروف يضربه بسوطه الذى يبلغ طوله ثلاثين قدما فيصـيب وجهه ويضـطره الى الاستدارة والمضى قدما · ويسـتطيع لبلب أن يواجه القطيع مجتمعا ولكنه لا يستطيع مواجهة ذلك السوط فلا مفر عنـدئذ من أن يجد فى الجرى حتى يبعد جنبيه عن أنياب رفاقه ·

ولكن ذهن الهندى يدخر دهاء أكبر من هذا · فان ميتسـاه أبقى على المطاردة الى مالا نهاية بأن فضله على الكلاب الاخرى فأخذ يخصـه

دونها بالاعطيات وبهذا زادت غيرتها منه وكراهيتها له ٠ فكان ميتساه يخصه بقطع اللحم على مرأى من الـكلاب الاخرى ممـا كان يسبب لها الجنون فتثور هائجة غاضبة وتدور في هياجها وغضبها ولكن في حلقة لا يصل اليها السوط عندها بينمـــا يلتهم لبلب اللحم تحت حمـــاية ميتساه ٠ واذا لم يكن الوقت وقت طعام يبقى ميتساه الكلاب الاخرى بعيدا ويتظاهر بتقديم اللحم الى لبلب ٠

وتلقى الناب الأبيض هذا العمل في رفق فقد قطع مسافة اطول من المسافة التي قطعتها الكلاب الاخرى في الاستســـلام لحكم الالهة وفهم تماما عدم جدوى معارضة ارادة الالهة وبالاضافة الى ذلك فان الاضطهاد الذي ناله على يد القطيع جعل الانسان اقرب اليه من القطيـع لم يتعلم الاعتماد على نوعه في المصاحبة ٠ وفضلا عن ذلك فان كيش ذهبت ولم يعد لها أثر والمنفذ الوحيد لتعبيره هو الولاء للالهة التي قبل أن تكون سادة له ٠ وهكذا عمل جادا وتعلم النظـــام والطـــاعة ٠ وتميز عمله بالاخلاص والرضا ٠ وهذه ميول أســـاسية في الذئب والكلب البرى عند استئناسهما وهي في الناب الأبيض أكثر وضـــوحا بصورة غير عادية ٠

وكانت هناك صحبة بين الناب الأبيض والكلاب الاخرى ولكنهـــا صحبة حرب وعداوه ٠ لم يتعلم أن يلعب معها بل لم يعرف سوى القتال فهو يقاتلها ويرد اليها ما كانت تنـاله به من عض وزمجـرة أمام زعامة لبلب للقطيع ٠ ولكن لبلب لم يعد الزعيم ٠ وان تقدمهـــا فانما يكون ذلك حين يجر الزحافة والكلاب الاخرى وراءه ٠ وعندما يخيمـــون ليلا يظل على كثب من ميتساه أو السمور الأغبر أو كلوكوش ولم يجرؤ على الابتعاد عن الالهة لان انياب الكلاب أصبحت كلها ضده ٠

ومن الممكن أن يصبح الناب الأبيض زعيم القطيع بعد خلع لبلب من الزعامة ٠ ولكنه حزين شـــديد العـزلة بحيث لا يصلح للزعامة ٠ واكتفى بضرب رفاقه وفيما عدا ذلك فأنه يتجاهلها ٠ وأخذت تبتعـد عن طريقه اذا دنا ٠ ولم يجرؤ اكثرها جرأة على سرقة نصيبه من اللحم بل أنها كانت تلتهم انصبتها من اللحم على عجل مخافة أن ينتزعها منها٠ وكان الناب الأبيض يعرف القانون جيدا ٠ وهو قانون اضطهاد الضعيف وطاعة القوى ٠ وكان يأكل نصيبه من اللحم بأسرع ما يســـتطيع ثم يدنو من الكلب الذى لم ينته من تناول نصيبه بعد فيزمجر ويكشر عن

أنيابه ويندب الكلب حظه ويشكو للنجـــوم همه بينمـــا ينوب الناب الأبيض عنه فى التهام نصيبه ٠

وقد يثور كلب أو آخر من لحظة الى آخرى ولكنه سرعان ما يخضع وهكذا ظل الناب الأبيض مستمرا فى تدريبه ٠ كان حريصا على عزلته وسط القطيع وغالبا ما كان يقاتل للاحتفاظ بهذه العزلة ولكن القتـال لم يكن ليطول اذ كان يفوق كل أفراد القطيع سرعة ٠ فكان يصيبهـــا بقطع فى لحمها وينزف دمها قبل أن تنتبه الى ما يحدث لها ويهزمها قبل أن تبدأ القتال ٠

وبمثل صرامة نظام الالهة كان نظـــام الناب الأبيض بين رفاقه لم يسمح لها بأى تقارب منه بل كان يكرهها على احترامه احتراما لا تهاون فيه ٠ ولها أن تفعل ماتشاء فيما بين بعضها والبعض الآخر اذ أن هـذا لا يهمه ٠ وكل الذى يهمه أن تدعه وشأنه فى عزلته وتخلى له الطريق حين يشاء المشى بينها وأن تعترف له طول الوقت بسيادته عليها ٠ فاذا صلب بعضها سيقانه أو رفع شفته أو نفش شعره انهال عليها جميعها بلا رحمة بل بقسوة شديدة ليقنعها بما فى اسلوبها من خطأ ٠

كان ظالما رهيبا ٠ وكانت سيطرته صـــلبة كالحـديد الصلب ٠ واضطهد الضعيف بانتقامه ولم يشأ أن يغفر مالقيه من كفاح قاس فى سبيل حياته فى الايام التى كان فيها جروا حين كان وأمه وحدهما بلا عون فى البيئة المتوحشة فى البرية أو يغفر كيف تعلم أن يمشى فى رقة حين تمر به الحيوانات القوية ٠ فاضطهد الضعيف ولكنه احترم القوى وفى خلال الرحلة الطويلة مع السمور الأغبر ســـار فى رقة حقـا بين الكلاب الكاملة النمو فى مخيم الحيوانات الانسانية الغريبة التى التقوا بها ٠

ومرت الشهور واستمرت رحلة السمور الأغبر ٠ ونمت قوة الناب الابيض خلال الساعات الطويلة فى الطريق والعمل المسـتمر بالزحافة وقد يبدو أن نموه العقلى أصبح قريبا من الكمال ٠ وقد عرف العـــالم الذى يعيش فيه معرفة تامة وكانت نظرته كئيبة ٠ وكان العالم لناظره عالما وحشيا عنيفا عالما بلا حنـــان عالما لا وجود فيه للمـلاطفة والحب والحلاوة البراقة ٠

لم يكن يكن حبا للسمور الأغبر ٠ صحيح أنه اله ولكنه اله متوحش جدا ٠ وكان الناب الأبيض مسرورا بالاعتراف بسيادة السـمور الأغبر عليه ولكنها سيادة تقدم على اساس التفوق فى الذكاء والقوة الوحشية ٠

وكان فى نسيج كيان الناب الأبيض شىء يجعل هذه السيادة أمرا مرغوبا فيه والا لما عاد من البرية وجاء يقدم ولاءه · وكانت فى طبيعته أعماق لم يختبرها من قبل وربما وصلت الى هذه الاعماق كلمة طيبة أو لمسة ملاطفة من السمور الأغبر ولكن السمور الأغبر لم يلمسه ملاطفا ولم يكلمه كلمة طيبة · فلم تكن هذه طبيعته · كان تفوقه وحشيا وحكمه وحشيا وهو ينفذ قصاصه بالعصا ويعاقب العدوان بالايلام بالضرب ويكافىء عن العمل الطيب لا بالرقة ولكن بمنع الضرب ·

وهكذا لم يعرف الناب الأبيض شيئا مما يمكن أن تدخره له يد الانسان من نعيم · وفضلا عن ذلك فأنه لم يحب أيدى الحيوانات الانسانية اذ كان يشك فيها · وصحيح أنها أحيانا تقدم اللحم ولكنها فى أغلب الاوقات توقع الاذى ولابد له والحالة هذه من الابتعاد عنها فهى تلقى الحجارة وتضرب بالعصا والسياط وتصفع وتوجه اللكمات · واذا هى لمسته فانما لتلدغ أو تلوى · ولقد لقى فى القرى القريبة أيدى الاطفال وعلم أن هذه الاطفال تتصف بالقسوة وفى ذات مرة كاد أحد الاطفال أن يفقأ عينه · ومن هذه التجربة أصبح يشك فى جميع الاطفال ولا يستطيع أن يحتملهم · وعندما يقتربون منه بايديهم المنذره بالشر ينهض واقفا ·

وحدث فى قرية عند بحيرة العبد الكبير أن استاء من شر أيدى الحيوانات الانسانية فغير القانون الذى تعلمه من السمور الأغبر وهو أن الجريمة التى لا تغتفر هى عض أحد الالهة فقد حدث فى هذه القرية أن جرى الناب الابيض على عادة جميع الكلاب فى جميع القرى خرج يبحث عن الطعام · وكان غلام يقطع لحم غزال متجمد ببلطة وقطع اللحم تتناثر فوق الجليد وكان الناب الابيض مارا به فى بحثه عن اللحم وبدأ يأكل القطع المتناثرة فوق الجليد · ولاحظ أن الغلام وضع البلطة على الارض وأمسك عصا قوية · فوثب الناب الابيض بعيدا وتفادى فى الوقت المناسب الضربة الهاوية وطارده الغلام · ولما كان غريبا فى القرية فأنه جرى بين خيمتين الى أن وجد نفسه محصورا وقد سد جدار عال من الطمى الطريق فى وجهه ·

ولم يجد الناب الأبيض مهربا اذ كان المخرج الوحيد واقعا بين خيمتين والغلام يعترض هذا الطريق وهو يخبىء العصا استعدادا لضربه بها وأخذ يقترب منه وهو محاصر · وهاج الناب الابيض وواجه الغلام وقد انتصب شعر جسمه وكشر عن انيابه · وثار فيه احساسه بالعدل·

كان يعلم قانون البحث عن الطعام الذى يقضي بأن تصير كل مخلفات اللحم كمثل هذه القطع المتجمدة الى الكلب الذى يعثر عليها • ولهذا فهو لم يخطيء ولم ينتهك قانونا ومع ذلك فهذا الغلام يستعد لضربه • ولم يدر الناب الابيض ما حدث اذ أنه فعل ما فعل وهو فى ثورة غضب • وجاءت فعلته سريعة لدرجة أن الغلام نفسه لم يدر هو الاخر ما حدث • وكل الذى عرفه الغلام أنه انقلب على الجليد بسرعة لم يتبينها وأن أنياب الناب الابيض مزقت ذراعه الممسكة بالعصا •

ولكن الناب الابيض عرف أنه انتهك الالهة اذ غرس أنيابه فى اللحم المقدس وهو لحم واحد من هذه الالهة ولم يعد ينتظر الا أن يناله عقاب رهيب • وهرب الى السمور الأغبر وقبع وراء ساقيه الحاميتين فى الوقت الذى جاء فيه الغلام واسرته تطلب الانتقام • ولكنهم رجعوا دون أن يحققوا انتقامهم لان السمور الأغبر دافع عن الناب الابيض وكذلك فعل ميتساه وكلوكوش • وأنصت الناب الأبيض الى الحرب الكلامية وراقب اشارات الغضب وعرف أنهم وجدوا لعمله تبريرا • وهكذا عرف أن هناك آلهة وآلهة • هناك آلهة والهة أخرى غيرها وبين هؤلاء وهؤلاء فارق • وسواء كان الحدث عدلا أم ظلما فأنه كان واجبا عليه أن يتلقى جميع الامور من أيدى آلهته • ولكنه لم يكن مضطرا الى أن يتلقى الظلم من الالهة الاخرى • ومن حقه أن يعرب عن استيائه بأسنانه • وهذا أيضا قانون من قوانين الالهة •

وقبل أن ينتهى النهار تعلم الناب الابيض شيئا اخر عن هذا القانون • فقد التقى ميتساه أثناء جمعه حطب الوقود بالفتى الذى عضه الناب الابيض • وكان معه فتيان أخرون • وتبادل الجميع كلمات ملتهبة • وعندئذ هاجم جميع الفتيان ميتساه وكان هجوما عنيفا لا قبل لميتساه به وانهالت الضربات عليه من كل جانب • ونظر الناب الابيض الى ما يجرى أمامه فى أول الامر • فقد كان هذا الامر خاصا بالآلهة ولا شأن له به • ثم تبين ان هذا هو ميتساه وهو واحد من الهته الخاصة به وأنه يتعرض لمعاملة سيئة • ولم يكن دافعا منطقيا ذلك الذى دفع الناب الابيض الى الاقدام على ما فعله وقتئذ • لقد ثار غضبه ثورة جنونية فوثب بين المتعاركين وبعد خمس دقائق امتلأت الارض بالفتيان الهاربين وقد أخذ الدم يتقاطر من أجسام بعضهم وشهدت صفحة الجليد بأن أنياب الناب الابيض لم تكن متعطلة عن العمل • وعندما قص ميتساه القصة فى المخيم أمر السمور الاغبر بتقديم اللحم الى الناب

الابيض الذى ازدرده وركن الى النار حيث وافاه النعاس وهناك عرف أنه تم التصديق على القانون ·

ومما يتفق وهذه التجارب أن تعلم الناب الابيض قانون الملكية وواجب الدفاع عما يملكه الهه يجب الدفاع عنه ضد جميع العالم حتى لو أدى الامر الى عض الالهة الاخرى ولم يكن مثل هذا العمل فى حد ذاته عملا دنسا فحسب بل هو محفوف بالمخاطر فالآلهة قوية غاية القوة ولا يستطيع أى كلب أن يكون ندا لها ومع ذلك تعلم الناب الأبيض أن يواجهها بوحشية غير هياب ولا وجل · وتغلب الواجب على الخوف وتعلمت الآلهة السارقة أن تدع ما يملكه السمور الأغبر وشأنه

وهناك أمر يتصل بهذا وقد تعلمه الناب الأبيض بسرعة وهو أن الاله الذى يسرق اله جبان وعلى استعداد للهرب حالما يسمع صوت النذير · وتعلم أيضا أنه حالما يسمع السمور الأغبر صوت النذير يسرع الى نجدته وعرف أن اللص لم يكن يهرب خوفا منه بل خوفا من السمور الأغبر · ولم يكن الناب الابيض يوجه نذيره نباحا فأنه لم ينبح قط بل كان يعمد الى مهاجمة الدخيل فورا والى غرس اسنانه فى جسمه اذا استطاع ذلك · ولما كان ميالا للعزلة وغير مخالط للكلاب الاخرى فأنه كان ملائما كل الملاءمة لمهمة حراسة أمتعة سيده وقد شجعه السمور الاغبر ودربه على هذه المهمة · واسفر هذا عن جعل الناب الابيض اكثر وحشية واكثر عزلة ·

ومرت الشهور وزاد توثيق العهد بين الكلب والانسان · كان ذلك هو العهد القديم الذى نشأ بين أول ذئب يأتى من البرية مع الانسان · وقد سار الناب الابيض على هذا العهد كما فعلت جميع الذئاب التالية والكلاب البرية · وكانت شروط العهد بسيطة · ففى مقابل حصوله على اله من لحم ودم قدم حريته وكان الغذاء والنار والحماية والصحبة بعض ما يتلقاه من الاله · وفى مقابل ذلك يقوم بحراسة امتعة ذلك الاله · ودافع عن جسده وعمل له وأطاعه ·

ويتضمن الحصول على الاله خدمته · وكانت خدمة الناب الابيض خدمة واجب وخوف لا خدمة حب · لم يعرف ما هو الحب ولم تكن له خبرة بالحب · واصبحت كيش ذكرى بعيدة · وفضلا عن ذلك فأنه لم يتخل عن البرية وعن نوعه فحسب حين استسلم للانسان ولكن شروط العهد كانت تقتضى أنه اذا قدر له أن يقابل كيش مرة اخرى فانه لا يتخلى عن الهه ليذهب معها · ولقد بدا ولاؤه للانسان قانونا على نحو ما هو أعظم من حب الحرية والنوع وذوى القربى ·

الفصل السادس
المجاعـــة

كان فصل الربيع قد اقترب عندما أتم السـمور الاغبر رحلته الطويلة وكان الشهر شهر ابريل وقد أتم الناب الابيض العـام الاول من عمره عندما دخلوا قريتهم وحل ميتساه قيود الزحافة · وان لم يتم الناب الابيض نموه الكامل الا أنه كان بعد ولبلب اكبر جراء القرية· وقد ورث عن كل من أبيه الذئب وأمه كيش الضخامة والقوة وأصبح فى مثل حجم الكلاب الكاملة النمو ولكنه لم يتم بناء جسـمه · وكان نحيف العود تكمن قوته فى عضلاته لا فى امتـلاء جسـمه · وكان فراؤه فراء الذئب الاغبر الحقيقى بل ان مظهره يقول انه ذئب · ولم تترك نسبة الكلب فيه مما ورثه عن أمه أثرا بدنيا فيه وان ظل يلعب دوره فى تركيبه العقلى ·

وأخذ يجوس خلال القرية يتعرف فى رضا على الالهة المختلفة التى كان يعرفها قبل الرحلة الطويلة ، ثم كانت هناك الكلاب والجراء التى تنمو نموه والكلاب الكبيرة التى لم يبد عليها أنها من الكبر والضخامة كما كانت صورها المنطبعة فى ذهنه عنها وأصبح كذلك أقل خوفا منها مما كان من قبل فهو يسير بينها بلا مبالاة وهذا أمر جديد عليه وأحب الاستمتاع به ·

وكان هناك الكلب العجوز باسيك الذى كان فى ماضيه يكفيه أن يكشف عن انيابه ليجعل الناب الابيض ينكمش ويقبع جانبا · وكان الناب الابيض قد تعلم منه قبلا أنه شخصيا غير مهم أما الان فانه يتعلم منه الكثير مما اعتراه هو من تغيير وتطور فبينما كان باسـيك يزداد ضعفا بسبب شيخوخته يزداد الناب الابيض قوة مع الشباب ·

وتعلم الناب الابيض مدى التغير فى العلاقات التى تربطه بدنيـا الكلاب أثناء التهام أحد الايائل عقب صيده · فحصل الناب الابيض على حافر وجزء من عظمة الساق وبها جزء كبير من اللحم · وانسحب من زحام الكلاب الاخرى الى مكان بعيد عن الانظار خلف أجمة وأخـذ

يلتهم نصيبه وهنا اندفع اليه باسيك ، وقبل أن يدرك ماذا يفعل خدش الناب الابيض ذلك المتطفل عليه مرتين ووثب بعيدا عنه . وفوجيء باسيك بجرأته وسرعة هجومه · ووقف يحدق النظر في غباء نحو الناب الابيض وبينهما عظمة الساق الحمراء ·

وكان باسيك عجوزا وقد بدأ فعلا يدرك ازدياد قوة الكلاب التى كان يميل الى مشاغبتها ، وعلمته التجارب المرة أن يعالج هذه الكلاب القوية بحكمة الشيخوخة · ولو حدث هذا الامر فى الايام الخالية لوثب على الناب الابيض فى هياج وغضب التأديب ولكن قواه الواهنة الان لا تسمح له بمثل هذا السلوك ونفش شعره بوحشية ونظر الى الناب الابيض قدرا كبيرا من الخوف القديم وبدا عليه انه سيذبل وينكمش منطويا على نفسه ويتضاءل وهو يقلبه فى خاطره لعله يجد وسيلة للتقهقر لا تكون مشينة ·

وهنا أخطأ باسيك · ولو اكتفى بنفش شعره بوحشية وبنظرة التهديد والوعيد لسارت الامور كما يشتهى ولتراجع الناب الابيض اذ كان على وشك التقهقر · ولكن باسيك لم ينتظر بل اعتبر أنه انتصر فعلا وتقدم نحو اللحم واذ مال برأسه يشم اللحم بلا مبالاة نفش الناب الابيض شعره قليلا ، وحتى فى هذه اللحظة كان قد فات أوان استعادة باسيك الموقف · ولو انه وقف بجوار اللحم رافعا رأسه محدقا البصر لدى الناب الابيض مبتعدا عنه ولكن رائحة اللحم الطازج كانت نفاذة فى أنف باسيك ودفعه الجشع الى أن يقضم منها قضمة ·

وكان هذا اكثر مما يحتمل النـاب الابيض · ولم يكن عهده بسيطرته على رفاقه فى جر الزحافة قد طال به فلم يستطع ضبط نفسه وأن يقف ساكنا بينما يلتهم كلب اخر اللحم الخاص به ، وهجم كعادته بدون انذار وأطبق فكيه على اذن باسيك فقطعها شرائح وذهل باسيك من هذه الحركة المفاجئة ولكن اكثر الاشياء وأشدها خطورة تحدث بنفس المفاجأة ووقع على الارض وعضه الكلب الصغير فى عنقه وبينما كان يحاول النهوض على أقدامه غرس الكلب الصغير أنيابه مرتين فى كتفه ، وكانت سرعة هذه الحركات مذهلة ، واندفع باسيك نحو الناب الابيض ولكنه اندفاع غير مجد اذ أطبق فمه على الهواء · وفى اللحظة التالية شق أنفه وترنح متراجعا مبتعدا عن اللحم ·

وانقلب الموقف الان ووقف الناب الابيض فوق عظمة الساق ينفش شعره ويهدد بينما وقف باسيك بعيدا عنه يستعد للتقهقر دون

ان يجرؤ على المخاطرة بالقتال مع هذا الكلب الفتى السريع الهجوم وعرف مرة أخرى وعلى نحو أشد قسوة ضعف الشيخوخة وكانت محاولته محاولة بطولية ، وأدار ظهره بهدوء نحو الكلب الصغير وعظمة الساق كما لو كانا غير جديرين بملاحظة أو اعتبار ومضى بعظمة وجلال مبتعدا عنها ولم يتوقف ليلعق جراحه الا بعد أن اختفى عن الانظار ٠

واسفر هذا الموقف عن ازدياد ثقة الناب الابيض بنفسه وزيادة كبريائه وعاد يمشي بين الكلاب الكبيرة باعتداد بالنفس وأصبح موقفه منها أقل ميلا الى المصالحة ، ولم يكن مبعث هذا انه خرج على أسلوبه في الحياة وانه أصبح ينشد المتاعب ٠٠ كلا بل انه كان يطلب أن يأخذه الاخرون مأخذ الاعتبار حين يمشي بينهم ٠ واستمسك بحقه في أن يمضي في طريقه بدون ازعاج وأن يفسح الطريق لاى كلب وكل ما في الامر أنه لابد أن يحسب حسابه لم يعد يقبل اغفاله أو تجاهله كما هو نصيب كثير من الجراء وكما هو نصيب الجراء التى تشاركه جر الزحافة ٠ فهذه الجراء تفسح الطريق للكلاب الكبيرة وتتخلى لها عن اللحم وهى مرغمة ٠ ولكن الكلاب الكبيرة كانت تقبل أن يكون الناب الابيض ندا لها وهو المنعزل الوحيد المتعالى الذى لا ينظر يمنة أو يسره ٠ وتعلمت بسرعة أن تدعه لشأنه دون أن تغامر بالقيام بأعمال عدائية ضده أو حتى التودد اليه واذا هى تركته وشأنه تركها وشأنها، وقد وجدت الكلاب الكبيرة ، هذا الامر مرغوبا فيه كثيرا بعد بضع لقاءات معه ٠

ومر الناب الابيض بتجربة في منتصف فصل الصيف ، اذ كان يركض بطريقته الصامتة ليفحص مخيما جديدا نصب عند حافة القرية حين كان غائبا عنها مع الصيادين فاذا به أمام كيش وجها لوجه ٠ ووقف ونظر اليها ٠ وتذكرها تذكرا غامضا أما هى فلم تذكره ، ورفعت شفتها له مكشرة عن أنيابها فى تهديد ووضحت ذاكرته وعادت اليه ذكرى طفولته وكل ما يرتبط بتلك التكشيرة المألوفة ٠ كانت عنده ثورة الكون قبل أن يعرف الالهة ، وعادت اليه أحاسيسه المألوفة القديمة وثارت بين جوانحه ، وتقدم نحوها مبتهجا وهو يدب بأقدامه وتلقته بأنياب حادة نفذت فى خده حتى العظم ٠ ولم يفهم وتراجع متحيرا ٠

ولكن الغلطة لم تكن غلطة كيش ٠ فالام البرية لا تسمح لها طبيعتها

بأن تتذكر جروها بعد سنة من غيابه عنها · وهكذا لم تتذكر الناب الابيض ، كان بالنسبة لها حيوانا غريبا متطفلا ولديها جراء صغيرة فلها الحق في الاستياء من هذا التطفل ·

وامتد أحد الجراء نحو الناب الابيض ، كانا اخوين من أم واحدة الا أنهما لم يعرفا ذلك ، وتشمم الناب الابيض أخاه الصغير في فضول وهنا هجمت كيش عليه مرة أخرى وخدشت وجهه ، وتراجع الى الوراء وماتت كل الذكريات القديمة وعادت الى قبرها الذى كانت قد بعثت منه · ونظر الى كيش وهي تلعق جروها الصغير وتتوقف من لحظة لاخرى لتزمجر فيه ، لم تعد ذات قيمة بالنسبة له ، فقد تعلم كيف يسير في الحياة بدونها ، نسى هجمتها ولم يعد لها مكان في تخطيطه للاشياء كما أنه لم يعد له مكان في تخطيطها للاشياء ·

وظل واقفا في غباء وحيرة وقد ذهبت عنه الذكريات وتساءل ما هو الامر وعندئذ هاجمته كيش للمرة الثالثة مصممة على طرده نهائيا من جوارها · كانت انثى من نوعه ، ويقضى قانون نوعه بألا يقاتل الذكور الاناث · ولم يعرف شيئا عن هذا القانون لانه لم يكن تصميما من صنع العقل كما لم يكن شيئا يكتسب التجربة في هذا العالم ، بل كان يعرفه كحافز خفى غريزى كذلك الحافز الغريزى الذى يجعله يعوى للقمر ونجوم الليل والذى يجعله يخاف الموت والمجهول ·

ومرت الشهور · وزاد الناب الابيض قوة وثقلا وامتلاء بينما كانت شخصيته تنمو على أساس الخطوط التى رسمتها وراثته وبيئته ·كانت وراثته مادة الحياة التى يمكن أن تشبه بالطين وفيها عدد كبير من الامكانيات ويمكن أن تتشكل أشكالا عديدة مختلفة وقامت البيئة بتشكيل الطين شكلا خاصا ، وهكذا ان لم يحضر الناب الابيض الى نار الانسان لكونته البرية ذئبا حقيقيا ، ولكن الالهة منحته بيئة مختلفة فتشكل كلبا هو أقرب الكلاب الى الذئب وظل كلبا ولم يصبح ذئبا ·

وهكذا وطبقا لطينة طبيعته وضغط بيئته تشكل تكوينه شكلا خاصا معينا ولا مفر من ذلك ، زادت عزلته ووحشيته وزاد علم الكلاب أنه من الافضل لها أن تكون على وئام معه من أن تكون في حرب معه وزاده السمور الاغبر حظوه عنده وتقديرا له يوما بعد يوم ·

وبالرغم من أن الناب الابيض بلغ سمت القوة في كل ناحية من نواحيه فانه كان يعانى ضعفا مزعجا وهو أنه لا يحتمل أن يسخر منه أحد فكان ضحك البشر منه شيئا كريها عنده ، وللبشر أن يضحكوا

ما شاء لهم الضحك فيما بينهم الا أن يضحكوا منه ، وفى اللحظة التى يتحول فيها الضحك الى السخرية منه يهيج هياجا رهيبا فذلك الوقور المحتفظ بكرامته ومهابته يدفعه الضحك منه الى أن يصبح متهوسا لدرجة مضحكة . كان الضحك منه يثيره ويزعجه لدرجة أنه يقضى الساعات وهو يتصرف تصرف مارد جبار . وفى مثل هذه اللحظة ويل للكلب الذى يسخر منه . وكان يعرف القانون الذى كونه من السمور الاغبر وهو أن وراء السمور الاغبر عصا ورأس اله أما وراء الكلاب فلم يكن شىء قط سوى الفضاء والى هذا الفضاء تهرب حال ظهور الناب الابيض اذا أثار الضحك جنونه .

وقد حدثت مجاعة فى السنة الثالثة من حياة الناب الابيض ففى الصيف لم يكن صيد السمك وفيرا وفى الشتاء هجر الجاموس البرى مواطنه المألوفة وأصبحت الايائل نادرة وأختفت الارانب تقريبا وهلكت الحيوانات المفترسة لانها بعد أن فقدت موارد غذائها الطبيعية أضعفها الجوع فافترس بعضها البعض الاخر ولم يبق غير القوى منها . وآلهة الناب الابيض حيوانات صيد دائما ، ومات القوى والضعيف من هذه الالهة على السواء . وانتشر فى القرية النحيب والولولة وخرجت النساء والاطفال للحصول على أى شىء ولو كان يسيرا يسد الرمق عندما يعود الصيادون من الغابة بدون صيد معهم .

واشتد الامر بالالهة الى حد أنها أكلت جلود أحذيتها بينما أكلت الكلاب سيورها الجلدية ونفس السياط التى تضرب بها . وكذلك أكل بعض الكلاب البعض الاخر كما أكل الالهة لحم الكلاب . وبدأت الالهة أكل الضعيف الذى لا قيمة له من الكلاب ونظرت الكلاب الباقية الى ما يحدث وفهمت سره وهجمت القلة منها وهى أشدها جرأة نيران الالهة بعد أن أصبحت هذه الالهة الآن بطيئة ثقيلة الحركة هربت الى داخل الغابة حيث انتهى بها الامر الى الموت جوعا أو الى أن تصير طعاما للذئاب .

وفى هذه المحنة ذهب الناب الابيض هو الاخر الى داخل الغابة وهو أكثر ملاءمة للحياة فيها من الكلاب الاخرى فقد تدرب فى طفولته عليها وكان هذا التدريب هاديا له ومشيرا ، وهو أكثر منها مهارة فى تصيد الاشياء الحية الصغيرة يختبىء ساعات طويلة متتبعا كل حركة من حركات السنجاب الحذر يترقب فى صبر شديد على شدة الجوع الذى يعانيه حتى يخرج السنجاب من مكمنه ويظهر على الارض وحتى

في مثل هذه اللحظة لا يتعجل الناب الابيض بل يظـل ينتظـر حتى يطمئن الى أن هجومه سيتم قبل أن يستطيع السنجاب تسلق الشجرة. وعندئذ فقط ينقض فى ومضة البرق كالســـهم الاغبر السريع سرعة تفوق حد التصديق فيصيب هدفه . هذا الهدف هو الســنجاب الذى يحاول أن يهرب ولكن سرعته أقل مما يجب .

وبالرغم من نجاحه مع السناجب فهناك صعوبه تحـول دون أن يستطيع العيش عليها بصورة تحفظ عليه بنيانه هذه الصـعوبة هى انه ليس هناك العدد الذى يكفيه من السناجب لذلك . ولهذا ركن الى صيد الحيوانات الاصغر حجما . وأحيانا يشتد به الجوع فيتصـيد الفئران من جحورها فى الارض ولم يتعفف من الدخـول فى معركة مع بنت عرس وهى لا تقل عنه جوعا وان كانت أشد منه وحشية .

وفى ذات مرة عضه الجوع بنابه فقفل راجعا الى نيران الالهة . ولكنه لم يمض قدما نحو النيران بل كمن فى الغابة متحاشيا أن يكتشف أحد مكمنه ويسرق ما عساه قد يقع فى الفخاخ من حيوان بـل أخـذ يسرق ما يقع فى فخ السمور الاغبر من أرانب فى الوقت الذى يترنح فيه سيده فى الغابة سقما واعياء ويجلس بين لحظة وأخرى طلبا للراحة من أثر الضعف فى الحركة وفى التنفس .

وفى ذات الصيف صادف الناب الابيض ذئبا صغيرا ضامرا أعجف فتكت المجاعة أوصاله ولو لم يكن الناب الابيض نفسه جائعا لصاحبه ومضى معه الى قطيعه فليس غريبا عليه . ولكنه كان جائعا فهجم عليه واوقعه على الارض وقتله وأكله .

وواتاه الحظ والتوفيق وكلما اشتدت حاجته الى الطعـــام وجـد صيدا يصيده ، وعندما أصابه الضعف اســعده حظه فلم يصـــادف الحيوانات المفترسة الاقوى منه . وفى ذات يوم أكسبه أكله أنثى فهد يومين متتالين قوة وطارده قطيع من الذئاب الجائعة . وكانت مطاردة قاسية طويلة وانه كان أكثر شبعا منها فسبقها ، ولم يسبقها فحسب بل انه استدار على أعقابه وهاجم أحد الذئاب المطـــاردة له بعـد أن انهكتها المطاردة .

وهاجر بعد ذلك من هذا الاقليم ورحل الى الوادى الذى ولد فيه ووجد كيش فى العرين القديم اذ كانت قد هربت هى الاخرى من نيران الالهة بعد أن عز الطعام من حولها ولجـأت الى العرين لتضـــــع فيه صغارها وعندما جاء الناب الابيض لم يكن قد بقى من هذه الجراء غير

واحد . ولم يقدر للوليد أن يعيش طويلا فصغار الحيوان لا تحتمل المجاعة .

وخلت تحيتها لابنها الكبير من أى عطف . ولكن النساب الابيض لم يهتم بهذا بعد أن أصبح أكبر من أمه حجما فأدار لها ظهره متفلسفا وأخذ يركض بجوار الغدير . وعند التقاء الغدير بالنهر اتجه الى اليسار حيث وجد عرين انثى الفهد التى اشترك مع أمه فى قتالها عندما كان جروا وفى العرين المهجور استقر طلبا للراحة يوما .

وفى أوائل فصل الصيف وكانت المجاعة قد شارفت نهايتها قابل لبلب وكان هو الاخر قد لجأ الى الغابات حيث كانت الحياة بائسة وصادفه الناب الابيض على غير انتظار . كانا يركضان فى اتجاهين متقابلين على طول قاعدة جرف عال ودارا ناحيته فاذا بهما وجها لوجه وتوقفا فى لحظة خوف ونظر كلاهما الى الاخر نظرة شك .

وكان الناب الابيض فى حال رائعة اذ صادفه التوفيق فى صيده وأكل ملء بطنه طول أيام الاسبوع الماضى بل انه يوشك أن يختنق من فرط امتلائه من اخر صيد له . ولكنه فى هذه اللحظة التى نظر فيها الى لبلب وقف شعره على طول ظهره دون قصد منه وهى الحال الطبيعية التى صاحبته دائما فى الماضى عندما كان لبلب يشاغبه ويضطهده وتكرر الان ما حدث فى الماضى ونفش الناب الابيض شعره وكشر عن آنيابه ولم يضع وقته سدى . وتم الامر بسرعة وبصورة كاملة . وجرب لبلب التقهقر ولكن الناب الابيض هاجمه بشدة وضرب كتفه بكتفه وانقلب لبلب على ظهره وغرس الناب الابيض انيابه فى عنق لبلب فأخذ هذا فى الاحتضار ومكافحة الموت بينما آخذ الناب الابيض يمشى حوله وقد صلب سيقانه ودقق الملاحظة ، ثم استأنف ركضه على طول قاعدة الجرف العالى .

وفى ذات يوم وصل الى حافة الغابة حيث ينحدر شريط ضيق من الارض العراء حتى نهر ماكنزى . وقد سبق له أن ركض فى هذهالارض من قبل عندما كانت جرداء أما الان فقد نشأت فوقها قرية وتوقف وهو لا يزال مختبئا بين الاشجار لدراسة الموقف. كان المنظر والاصوات والرائحة مألوفه لديه . لقد انتقلت القرية القديمة الى مكان جديد . ولكن المنظر والاصوات والرائحة لم تكن على الحال التى كانت عليها وقت هروبه منها . لم يعد هناك عويل أو بكاء . والتقطت آذناه

اصوات الرضا ، وعندما سمع صوت امرأة غاضبة عرف أن الصـــوت صادر من معدة ممتلئة ، وملأت رائحة السمك الهواء وكان هناك طعام وانتهت المجاعة ، وخرج من مكمنه فى جرأة وركض داخلا مخيم السمور الاغبر ، ولم يكن السمور الاغبر هنـــاك ولكن كلوكوش رحبـت به بصيحة ابتهاج وكمية كبيرة من السمك الطازج ورقد ينتظـر عـودة السمور الاغبر ٠

الجزء الرابع

الفصل الأول
عـــدو نوعـــه

لو أن فى طبيعة الناب الابيض أى احتمال ولو كان هذا الاحتمال ضئيلا لان يتاخى مع نوعه فان هذا الاحتمال ضاع تمـاما عندما تزعم فريق الكلاب فى جر الزحافة لان الكلاب الان أصبحت تكرهه ـ تكرهه لما يناله من المزيد من اللحم الذى يقدمه ميتساه له · وتكـــرهه لكل ما يناله من حظوة حقيقية ومتخيلة · وتكرهه لانه يتقدمها جميعا ويهز ذيله الخشن فى وجوهها على نحو يسبب لها الجنون ·

وكذلك يكرهها الناب الابيض كلها بنفس قوة كراهيتها له ، حقا كان يرضيه أن يتزعمها فى جر الزحافة اذ لم يرضه اضطراره الى الجرى أمام مجموعة الكلاب العادية ثلاث ســـنوات متتالية وهى التى كثيرا ما سيطر عليها وهددها · كان هذا يفوق طاقته على الاحتمال ،ولكنه كان مضطرا للاحتمال والا عرض نفسه للهلاك وحيـــاته بين جنبيـــه لا ترغب فى مثل هذا الهلاك ، وفى اللحظة التى يصدر ميتساه فيهـا أمره ببدء المسير يقفز الفريق كله نحو الناب الابيض وقد علا صياحه·

ولم يكن « للناب الابيض » سبيل للدفاع عن نفسه اذ لو استدار لمواجهة تلك الكلاب لالهب ميتساه وجهه بالســـوط · ولهذا لم يبق أمامه الا أن يجرى لانه لم يكن مستطيعا أن يعرض لذلك القطيع العادى ذيله وساقيه الخلفيتين فليست هذه أسلحة يســـتطيع بها مواجهة الانياب العديدة التى لا تعرف معنى للرحمة ، ولهذا أخذ يجرى متغاضيا عن طبيعته الخاصة وكرامته مع كل وثبة يثبها ومع جميع وثباته طول اليوم ·

ويسفر انتهاك الحوافز الطبيعية عن انطواء تلك الطبيعـة عـلى نفسها مثل التواء الشعرة التى خلقت لتنمو بارزة من الجسم ثم تدور بصورة غير طبيعية عائدة الى منبتها وتدخل الجسم ثانية وتكون مصدر ألم · وهكذا كان شأن الناب الابيض وكل حوافز كيـــانه تدفعه الى الوثب على ذلك القطيع الذى ينبح فى اعقابه ولكن ارادة الالهة تحـول دون ذلك ووراء هذه الارادة ما يفرضها بالقوة وهو السوط المجـدول من أمعاء الثور الذى يبلغ طوله ثلاثين قدما ولم يستطع الناب الابيض

الا أن يأكل قلبه في مرارة والا أن ينمي في نفسه الكراهية والشر بقدر يتناسب وطبيعته الوحشية التي لا تغفر ·

ولو وجد مخلوق يكن عداوة لنوعه لكان الناب الابيض هو ذلــك المخلوق لم يطلب رحمة أحد ولم يرحم أحدا · وكانت أنياب القطيــع تترك في جسده خدوشا وجروحا ويترك هو بدوره آثاره في أجساد القطيع · ومن عادة زعماء القطيع الالتجاء لحماية الالهة بالتكور على كثب منها بعد انتهاء كل رحلة ولكن الناب الابيض استنكف أن يفعل ذلك بل كان يمشي بجرأة في أرجاء المخيم يوقع في الليل عقابه على من أساء اليه في النهار وقبل أن يتزعم فريقه كانت الكلاب تفسح له الطـريق أما الان فان الامر تغير ذلك أن تلك الكلاب وقد أثارتها مطاردتها اياه طول النهار ملكها الزهو والغرور بتكرار تذكرها منظره وهو يجـــرى أمامها هاربا وغلب عليها شعور السيطرة الذى لازمها طول النهار فلم تعد ترضى باخلاء السبيل أمامه واذا ظهر بينها احتدم العراك فيبـدأ هو بالزمجرة والتكشير عن الانياب والعواء · وكان الهواء الذى يتنفسه مشحونا بالكراهية والحقد فيغذى كراهيته وحقده عليها ·

وعندما يصيح ميتساه في الكلاب بالكف عما هى فيه يطيع الناب الابيض وكان هذا في أول الامر يسبب المتاعب للكـــلاب الاخـرى · فتثب معا على الزعيم المكروه وهنا يتغير الوضع اذ يكون ميتساه وراء الناب الابيض وسوطه يغنى فى يده وهكذا فهمت الكلاب انه عنـدما يصدر الامر اليها بالسكون فعليها أن تدع الناب الابيض وشأنه أما اذا توقف الناب الابيض بدون أمر يصدر اليه بذلك أصبح مسموحا لها بالوثب عليه والقضاء عليه ان استطاعت ذلك · وبعد عدة تجارب لم يعد الناب الابيض يتوقف الا بعد صدور الامر اليه بذلـك · وتعلـم بسرعة وكان في طبيعة الاشياء ضرورة أن يتعلم بسرعة للنجـــاة من الظروف القاسية التي خلقتها الحياة له ·

ولكن الكلاب لم تستطع أن تتعلم درس تركه وشـــأنه فى المخيم فهى فى كل يوم تطارده وتنبح عليه متحدية اياه ناسية درس الليلة السابقة ثم تعود تتعلمه في تلك الليلة لتنساه عقب ذلك · هـذا الى رسوخ كراهيتها اياه فهى تحس الفارق النوعي بينها وبينه ـ وهذا فى حد ذاته كاف للبغضاء · أنها ذئاب مستأنسة مثله ولكنها استؤنست منذ أجيال متعاقبة وضاع منها أغلب ما ورثته من البرية حتى أصبحت البرية بالنسبة لها هى المجهول الرهيب الدائم التهديد والمشتبك دائما فى حرب معها أما بالنسبة له من حيث المظهر والعمـــل والدافع فان

البرية لا تزال عالقة به وهو رمز لها وهو صورتها المتجسدة ، فهى تكشر له عن أنيابها دفاعا ضد قوى التدمير الكامنة فى ظلال الغابة وفى الظلام الكائن وراء نار المخيم ·

ولكن هناك درسا تعلمته الكلاب جيدا وهو وجوب تجمعها ، فقد كان الناب الابيض شديد الوطأة على أى واحد منها ان التقى به منفردا فكانت تلتقى به جماعات والا قتلها واحدا بعد الاخر فى ليلة واحدة وهكذا لم تتح له فرصة قتلها · انه قد يدحرج واحدا منها على ظهره ولكن القطيع فى هذه اللحظة يثب عليه قبل أن يهجم هجمته القاتلة على عنق ذلك الكلب الملقى على ظهره · واذا بدت أول اشارة الى صراع تجمع القطيع كله وواجهه ، صحيح انه كانت للكلاب منازعاتها فيما بينها الا انها سرعان ما تنساها عندما تبدأ المتاعب مع الناب الابيض ومن ناحية أخرى فأنها لن تستطيع أن تقتل الناب الابيض مهما حاولت · اذ هو شديد السرعة والحكمة وأشد منها بأسا · كان يتحاشى الاماكن الضيقة ويبتعد عنها عندما يرى أنها أوشكت أن تحيط به ، أما ايقاعه على الارض فلم يكن واحد من تلك الكلاب قادرا عليه على النحو الذى يفعله كانت أقدامه تلتصق بالارض بنفس قوة تعلقه بالحياة · ومن هذه الناحية كانت الحياة والثبات على الارض مترادفين فى هذه الحرب التى لا تنتهى بينه وبين القطيع ولم يعرف ذلك أحد ما معرفة الناب الابيض اياه ·

وهكذا أصبح عدو نوعه · كانت تلك ذئابا مستأنسة رققت نيران الانسان من طبيعتها وأضعفها ظل قوة الانسان الذى تأوى اليه أما الناب الابيض فقد كان شديدا لا يلين · هكذا شكلت طينته · وقد شن حرب الانتقام على جميع الكلاب وعاش هذا الانتقام بصورة رهيبة جدا الى حد أن السمور الاغبر الذى هو نفسه وحشى شديد أصبح يعجب من وحشية الناب الابيض وأقسم انه لم يوجد من قبل مثيل لهذا الحيوان · وأقسم الهنود فى القرى القريبة التى مروا بها نفس القسم عندما شهدوا قتله كلابهم ·

ولما قارب الناب الابيض سن الخامسة من عمره اصطحبه السمور الاغبر فى رحلة كبرى اخرى · وعاشت طويلا ذكرى ما أنزله من قتل بالكلاب فى القرى العديدة على طول نهر ماكنزى وعبر الجبال الصخرية وعلى طول نهر القنفذ حتى يدكون · واستمتع بالانتقام الذى أنزله بنوعه · كانت كلابا عادية لا يخطر الشك ببالها ، ولم تكن مستعدة لسرعته أو هجومه المباشر الذى لا يسبقه انذار · ولم تعرف

حقيقته وهو القاتل الخاطف . كانت تلك الكلاب تنفش شعرها فى وجهه وتصلب سيقانها وتتحداه ، أما هو فلا يضيع وقتا فى التمهيد المنمق بل يعمل كالزنبرك الصلب ويهجم على أعناقها ويقتلها قبل أن تدرك ما هو حادث أو تفيق من دهشتها .

وأصبح ماهرا فى القتال مقتصدا فى الجهد الذى يبذله فلا يبدد قوته ولا يطيل العراك بل يسرع بالهجوم فاذا لم يصب عاود الهجوم بسرعة أكبر . كانت فيه كراهية الذئب للكلاب بدرجة غير عادية . لم يكن يحتمل الاتصال الطويل بشىء اخر ففى هذا الاتصال خطورة تدفعه الى التهور . فلابد اذن من أن يكون بعيدا وحرا واقفا على أقدامه لا يلمس شيئا حيا . كانت البرية هى التى تتعلق به وتؤكد وجودها من خلاله ، ولقد قوى فيه هذا الاحساس حياة العزلة التى عاشها منذ أن كان جروا . فهو يرى الخطر كامنا فى الاتصال بغيره والاتصال هو الفخ والفخ الدائم والخوف منه الكامن فى أعماق حياته والداخل فى نسيجه .

ولهذا لم تكن للكلاب الغريبة التى قابلها أية فرصة ضده فهو يروغ من أنيابها وينالها أو يهرب دون أن يمسه ناب فى كلا الحالين. ولكن كانت هناك حالات استثنائية من هذا . اذ تتجمع عدة كلاب وتهاجمه فى وقت واحد وتعاقبه عقابا صارما قبل أن يستطيع الافلات منها وأحيانا يهاجمه كلب واحد فينزل به هزيمة شديدة ولكن هذه كانت مجرد مصادفات فحسب . أما فى أغلب الاحيان فهو شديد الكفاية فى القتال الى حد أنه أصبح يمضى فى طريقه دون أن يعترض كلب طريقه .

وكانت له ميزة أخرى وهى صحة حكمه على الوقت والمسافة لا لانه يفعل ذلك بوعى منه فأنه لم يحسب مثل هذه الاشياء بل كان ذلك كله تلقائيا وعيناه تريان رؤية صحيحة كما أن اعصابه تنقل الرؤى نقلا صحيحا الى المخ وأعضاؤه متناسقة بعضها مع البعض الاخر على نحو أفضل مما كان عليه الحال فى الكلب العادى وهذه الاعضاء تعمل معا فى توافق واتساق بصورة أكثر كمالا منها فى أى كلب آخر . ولقد اجتمع له تناسق عصبى وعضلى أفضل كثيرا مما فى الكلاب الاخرى . وعندما تنقل عيناه الى المخ الصورة المتحركة لحركة ما يعرف مخه بدون جهد واع المكان الذى يحد تلك الحركة والوقت المطلوب لاتمامها وبهذا يتحاشى وثبة كلب آخر أو اندفاع أنيابه ويستطيع فى نفس الوقت أدراك اللمحة العابرة التى يستطيع فيها توجيه هجومه .

وكان عمل جسده ومخه كاملا دون أن يكون له الفضـــل فى ذلك بل ان الطبيعة كانت معه أكرم منها مع الكلب العادى ٠

وقد حدث فى الصيف أن وصل الناب الابيض الى قلعة يوكون بعد أن عبر السمور الاغبر المساحة المائية العظيمة بين ماكنزى ويوكون فى أواخر فصل الشتاء وقضى فصـــل الربيع فى الصيد فى ســـفوح الجبال الصخرية ٠ وبعد ذوبان الجليد فى نهر القنفذ بنى قاربا وأخذ يجدف به فى ذلك الغدير حتى بلغ ملتقاه بنهر يوكون بالقـــرب من الدائرة القطبية الشمالية ٠ وهنا كانت قلعة شركة خليج هدســـون القديمة حيث يكثر الهنود ويكثر الغذاء وفيها حركة لم يسبق لها مثيل كان ذلك فى صيف عام ١٨٩٨ وكان الاف صـــيادى الذهب ذاهبين يعبـــرون اليـــوكون الى دوســـون وكلـــونديك ٠ وكانت بينهم وبين هدفهم مئات الاميال ومع ذلك فان الكثيرين منهم كانوا قد قضوا عاما فى الوصول الى هنا وقطع بعضهم اكثر من خمسة الاف ميل بل ان بعضهم الاخر جاء من الطرف الاخر من العالم ٠

وهنا توقف الســـمور الاغبر فقد بلغت أذنيه همســـة الاندفاع نحو الذهب وكانت معه بالات من الفـراء وبالات أخـرى من القفازات والاحذية الجلدية وما كان ليقطع مثل هذه الرحلة الطويلة لو لم يتوقع أرباحا سخية ٠ ولكن ما كان يتوقعه لا يذكر بجانب ما حققه ، فاقصى ما كان يحلم به هو أن تبلغ نسبة أرباحه مائة فى المائة ولكن حقـــق أرباحا تبلغ نسبتها الفا فى المائة ونهج نهج الهندى الاصيل فاســـتقر ليتجر بعناية وبطء ولو كلفه بيع سلعه كل فصـــل الصيف وبقية فصل الشتاء ٠

وفى قلعة يوكون رأى الناب الابيض أول انســـان أبيض ٠ وكان البيض من البشر عنده جنسا اخر من الكائنات البشرية غير الهنـــود الذين عرفهم بل هم الهة تفوق الالهة الهندية ٠ وبدا البيض له ذوى قوة تفوق قوة الهنود والاله يعتمد فى سلطانه على القوة ٠ ولم يمنطق الناب الابيض هذه القضية ولم تجـر فى ذهنه العمليـــة العقلية وهى عملية التعميم الدقيقة التى تؤدى الى استخلاص أن الالهة البيض أقوى من الالهة الهنود ٠ بل كان كل ذلك مجرد احســـاس ولا شىء أكثر من ذلك ٠ ومع ذلك فأنه احساس له قوته وكما رأى فى طفـــولته فى المخيمات التى أقامها الانسان مظهرا للقوة فكذلك رأى نفس الرأى فى البيوت والقلعة الضخمة وكلها ذات أحجام هائلة ٠ هنا قوة ٠ وهذه الالهة البيضاء قوية وسلطانها على المادة اكبر من سلطان الالهة التى

عرفها والتى كان السمور الاغبر أقواها ومع ذلك فها هو السمور الاغبر أقواها ومع ذلك فها هو السمور الاغبر اله طفل بين هذه الالهة البيضاء الاقوى··

ومن المؤكد أن الناب الابيض كان يحس هذه الاشياء فحسب ولم يكن يعيها ومع ذلك فالحيوانات تتصرف بدافع من احساسها اكثر من تصرفها بدافع من تفكيرها وكل عمل يقوم به الناب الابيض الان انما هو على أساس الاحساس بأن البشر البيض هم الالهة المتفوقة · وكان أولا وقبل كل شيء فى شك من أمرها فما كان لديه من دليل على أى رعب مجهول ذلك الرعب الذى هم مصدره أو أى أذى يمكن أن يوقعوه به · وكان به فضول لمراقبتهم مخافة أن يلاحظوه وقضى الساعات القليلة الاولى قانعا بالتسلل ومراقبتهم من بعيد ثم رأى أنه لا يقع أى أذى على الكلاب القريبة منهم فازداد قربا ·

وكان بدوره موضع فضولهم الشديد فقد استرعى انتباههم على الفور مظهره الذئبى وأشار بعضهم اليه وهو يحدث غيره عنه · وجعلته هذه الاشارات يأخذ حذره · ولما حاولوا الاقتراب منه كشر عن انيابه وتراجع الى الوراء ولم ينجح أحد منهم فى وضع يده عليه ولقد أفادهم كثيرا انهم لم يستطيعوا ذلك ·

وسرعان ما تعلم الناب الابيض أن القليلين من هؤلاء البيض يقيمون فى هذا المكان بل انهم لم يتجاوزوا العشرة وكل يومين أو ثلاثة أيام تأتى باخرة « هى فى حد ذاتها مظهر هائل للقوة » الى الشاطىء وتقف عدة ساعات · وينزل البيض من هذه البواخر ويمضون بها ثانية · وعدد هؤلاء البيض كبير جدا · وقد رأى من الهنود طول حياته · ومع مرور الايام جاء غيرهم عبر النهر وتوقفوا ثم مضوا ثانية عبر النهر واختفوا ·

ولكن اذا كانت الالهة البيضاء قوية غاية القوة فان كلابها لم تكن ذات شأن وعرف الناب الابيض ذلك بسرعة وعن طريق الاختلاط بهذه الكلاب التى نزلت الى الشاطىء مع سادتها · كانت ذات اشكال وأحجام مختلفة ، بعضها قصير السيقان بل ان هذه السيقان ممعنة فى القصر وبعضها الاخر طويل السيقان غاية فى الطول · ولها شعر بدل الفراء بل ان شعر بعضها قليل جدا ولم يعرف أى واحد منها كيف يقاتل ·

ولما كان الناب الابيض عدوا لنوعه فأنه لم يكن هناك مفر من أن يقاتلها وخرج من هذا القتال بشعور احتقار شديد لها · كانت ناعمة

غاية فى الضعف وتثير كثيرا من الضوضاء وهي تتسكع وتحاول بطريقة خرقاء أن تحقق بالقوة الاساسية وحدها ما كان يحققه هو بالمهـارة والدهاء فتندفع نحوه وهي تعوى هادرة وعندئذ يميل جانبا فلا يعرف ماذا حدث له وفى تلك اللحظة يضربها فى اكتافها ويوقعها على الارض ويهجم على أعناقها ·

وقد ينجح هذا الهجوم أحيانا ويتدحرج الكلب المهاجم فى الوحل فتقفز عليه الكلاب الهندية المنتظمة وتمزقه اربا · وكان الناب الابيض حكيما فقد تعلم منذ زمن طويل أن الالهـة تغضب اذا قتلت كلابهـا وما كان البيض من البشر ليستثنوا من هذا ولذلك فهو يكتفي بقلب وقطع عنق أحد الكلاب ثم يتراجع ويترك قطيع الكلاب الهندية تهجم وتقوم بالقضاء على الفريسـة · ففى هذا الوقت يأتى الرجال البيض مندفعين وينزلون جام غضبهم على القطيع بينما الناب الابيض بعيـد لا يناله أذى وهو واقف على بعد مسافة منهم ينظر والحجارة والعصى والبلط وكل أنواع الاسلحة تنهال على رفاقه · لقد كان الناب الابيض غاية فى الحكمة ·

ولكن رفاقه اكتسبوا الحكمة هم أيضا بطريقتهم الخاصة واكتسب الناب الابيض حكمة أخرى معهم · تعلمت الكلاب الاخرى أنه عنـدما ترسو سفينة على الشاطىء ستحصل على فرائس جديدة · لانها الفت ما كان يجرى بعد افتراسـها أول كلبين أو ثلاثة كلاب غريبة يخفى الرجال البيض كلابهم فوق ظهر السفينة وينزلون انتقـامهم الرهيب بالكلاب المعتدية ، وقد حدث أن رأى رجل أبيض كلبه وهو من كلاب الصيد يمزق أمام عينيه فأخرج مسدسه من جيبه · واسرع باطـلاق ست رصاصات فهوت ستة كلاب ميتة أو محتضرة ـ وهذا مظهر اخر من مظاهر القوة ترسب فى اعماق وعى الناب الابيض ·

واستمتع النـاب الابيض بهذا كله اذ لم يكن يحب نوعه وكان بارعا فى النجاة بنفسه من أى أذى · وكان قتل كلاب الرجال البيض فى أول الامر تسلية ولم يمض وقت طويل حتى أصبح مهنته اذ هو بلا عمل اخر لانهماك السمور الاغبر فى التجارة والاثراء وهكذا ظل الناب الابيض يترقب مكان رسو السفن هو وعصابته من الكـلاب الهنـدية السيئة السيرة انتظارا لوصول السفن · وحالما تصـل سفينة تبدأ العربدة و تنقضى بضـع دقائق حتى يذهب عن الرجـال البيض أثر المفاجأة وتتفرق العصابة وتنتهى العربدة الى أن تصل سفينة جديدة·

ولكن لا يمكن القول بأن الناب الابيض عضو فى العصـابة فهو لا يختلط بأعضائها بل يظل مبتعدا عنها وهى تخافه وترهبه صحيح

انه كان يعمل معها اذ هو الذى يبدأ مشـــاغبة الكلب الغـريب بينما العصابة تنتظر حتى اذا انقلب الكلب الغريب على ظهره هجمت العصابة عليه وقضت عليه • ولكن صحيح أيضا أنه عندئذ ينســـحب تاركا العصابة تتلقى عقاب الالهة الغاضبة •

ولم يتطلب اثارة المنازعات جهدا كبيرا فكل ما عليه هو أن يظهـر للكلب الغريب حال نزوله الى الشاطىء ، وعندئذ يندفع الكلب الغريب نحوه وهذا أمر غريزى فى الكلاب الغريبة والناب الابيض عندها الشىء البرى المجهول الرهيب الدائم التهديد الشىء الذى كان يحوم فى الظلام حول نيران العالم البدائى عندما كانت هذه الكلاب تربض بالقـرب من النار تعيد تشكيل غرائزها وتخشى البرية التى ياتى منها هذا الشىء وكانت هذه الكلاب نفسها قد هجرتها من قبل ودفع هذا الخوف فى طبيعتها وتوارثتها الاجيال جيلا بعـد جيـــل • وظلت البرية قرونا عديدة تعنى الرعب والدمار فمنحها سادتها طول هذا الزمان ســلطة قتل الاشياء التى تأتى من البرية • وهى بهذا العمـــل تحمى نفسها والالهة التى ترافقها •

وهـكذا حالما تركض هذه الكلاب الآتية من عالم الجنـــوب الهادىء على اللوح الطويل المقام للمرور عليه بين السفينة والبر وترى النـاب الابيض تجد أنفسها مندفعة اندفاعا لا معقب له للهجوم والقضاء عليـه وربما كانت كلابا نشأت فى المدن ولكن الخـوف الغريزى من البرية كامن فيها بالوراثة ، انها حقا لم تكن ترى المخـلوق الذئبى الـواقف أمامها فى وضح النهار بأعينها بل كانت تراه بأعين اسلافها وبذكرياتها الموروثة وعرفت فى الناب الابيض الذئب فتذكرت العداء القديم •

ومن شأن هذا كله أن يجعل أيام الناب الابيض ممتعة اذ الافضل له أن يدفع منظره هذه الكلاب الغريبة نحوه فهى تراه فريسة مشروعة لها كما يراها هو أيضا فريسة مشروعة له •

وأفاده أن رأى ضوء النهار أول ما رآه فى عرين منعزل وأن اشتبك فى أول قتال له مع القط وبنت عرس وانثى الفهد كمـا أفاده أن زاد قسوة العيش عليه فى طفولته اضطهاد لبلب وكل قطيع الجراء ولو لم تمر به هذه الظروف لاصبح صورة أخرى غير صورته الان ولولا وجود لبلب لقضى طفولته مع الجراء الاخرى ونشأ أقرب الى الكلب واصبح أكثر ميلا للكلاب ، ولو حباه السمور الاغبر بالعطف والحب لوصـــل الى أعماق الناب الابيض وأخرج منها الى السطح كل صـــفات الرحمة ولكن الامر لم يكن كذلك ، بل شكلت طينة الناب الابيض على النحـو الذى صار اليه الان وحيدا مكتئبا متوحشـــا لا يعرف الحب بل هو عدو نوعه •

الفصل الثانى
الآله المجنون

وكان يقيم فى قلعة يوكون عدد صغير من البيض وطال عهدهم بالاقامة فيها وهم يصفون أنفسهم بأنهم « العجينة المرة » ويجرون فخرا كبيرا فى هذا الوصف ويكنون لغيرهم من المحدثين احتقارا شديدا ويطلقون على الذين ينزلون الى البر من البواخر اسم « التشيشساكو » وهؤلاء الجدد يصنعون خبزهم باضافة خميرة البيرة الى العجينة التى يصنعون منها خبزهم فلا تكون العجينة مرة ٠

ويحتقر أهل القلعة القادمين الجدد ويستمتعون برؤيتهم حزانى ويبلغ استمتاعهم مداه حين يرون التدمير الذى ينزله الناب الابيض وعصابته سيئة السيرة بكلاب هؤلاء القادمين الجدد ٠ وكلما وصلت باخرة حرص رجال القلعة على النزول الى الشاطىء لرؤية تلك اللعبة التى يترقبونها ترقب الكلاب الهندية ويستمتعون بمشاهدة الدور الوحشى الماكر الذى يلعبه الناب الابيض ٠

ولكن كان بينهم رجل يستمتع برؤية اللعبة بصفة خاصة فهو يأتى جريا حال سماعه صوت صفارة السفينة حتى اذا انتهى القتال وابتعد الناب الابيض والقطيع عاد الى القلعة فى بطء وقد ارتسم الاسف على وجهه ، وأحيانا كان هذا الرجل يرى كلبا ضعيفا من كلاب الجنوب يسقط على الارض وهو يصرخ صراخ الموت تحت أنياب القطيع فلا يستطيع ضبط نفسه بل يقفز فى الهواء ويصيح صيحة الابتهاج ويرنو دائما بطرفه نحو الناب الابيض ٠

وكان اسم هذا الرجل « الجميل » وبهذا الاسم ناداه الرجال الآخرون فى القلعة ولم يعرف أحد اسمه الاول بل هو يعرف بصفة عامة فى طول البلاد وعرضها باسم « سميث الجميل » ولم يكن بالجميل بل ان هذا الاسم من قبيل تسمية الاشياء باضدادها فقبحه أبرز مافيه اذ كانت الطبيعة شحيحة معه فهو صغير الحجم أولا وفوق جسده الضار رأس غاية فى الصغر تكاد قمته تكون مدببة بل لقد كان يسمى فى طفولته فى الواقع « رأس الدبوس » وذلك حتى أطلق رفاقه عليه اسم الجميل ٠

ورأسه ينحدر من وراء ابتداء من قمته في ميل حتى عنقه ومن أمام ينحدر نحو جبين منخفض عريض بصـــورة ملحوظة ، وهنـــا عبرت الطبيعة عن شحها بأن زادت من ضـــخامة ملامحه فعينـــاه واسعتان والمسافة بين العينين تبلغ طول العينين معا واذا قيس وجهه بجســمه لبدا هائلا • وفي فكيه بروز شديد فهما واسعتـــان ثقيلتان بارزتان الى الامام والى أسفل حتى ليبدو وجهه مستندا الى صدره • وربما كان هذا المظهر راجعاً الى ضعف عنقه النحيف وعدم قدرته على حمل ذلك الوجه الثقيل •

وتوحي فكه بقوة الارادة الوحشية وعيب فمه كبر حجمه بصـورة غير طبيعية ومع ذلك فقد كان الايحاء كاذبا اذ المعروف عنه في طـول البلاد وعرضها أنه أكثر الضعفاء ضعفا وأشد الجبناء جبنا • أما أسنانه فكبيرة وصفراء اللون تتقدمها سنان كبيرتان بارزتان تحت شفته العليا الدقيقة وكأنهما نابان وعيناه صفراوان غائمتان كما لو كانت الطبيعة قد نقضتها الصبغات فاعتصرت رواسب أنابيب الالوان لتلوين عينيه وهذا هو شأن شعره الخفيف غير منتظم النمو والذى يميـل لونه الى الصفرة الموحلة •

وسميث الجميل باختصار مشوه الخلقة وليس مسئولا عن ذلك بل هكذا خلق • وهو يطهو الطعام للرجال الاخرين فى القلعة ويغسل الصحون ويقوم بغير ذلك من أعمال حقيرة • وهم لا يحتقـــرونه بل يتسامحون معه على نحو انسانى عريض كما يتسامحون مع أى مخلوق اساءت الطبيعة تكوينه كما أنهم يخافونه فهياجه وهو هياج الجبـان يجعلهم يخافون أن يطلق على أحدهم رصاصة فى الظهـر أو يدس له السم فى القهوة • ثم لابد أن يقوم واحد بالطهو وكائنة ما كانت عيوب سميث الجميل فانه يستطيع الطهو •

هذا هو الرجل الذى تعود النظر الى النـاب الابيض وهو مبتهج بوحشية قوية ويرغب فى أن يملكه ، وبدأ يتودد الى الناب الابيض منذ البداية وبدأ الناب الابيض يتجاهله • وفيما بعد وبعد أن اســـتمر التودد طويلا نفش الناب الابيض شعره وكشر عن انيابه وتراجع الى الوراء • لم يحب الرجل وكان احساسه به ســيئا وأحس فيه الشر وخاف اليد الممتدة ومحاولات القول المعسول ولهذا كله كره الرجل

والمخلوقات البسيطة تفهم ما هو خير وما هو شر • فالخير هو فى جميع الاشياء التى تعود بالراحة والرضا والبعد عن الالم ، ولهذا فالخير محبوب • أما الشر فهو فى جميع الاشياء المشوبة بالقلق والتهـــديد

والاذى ولهذا فهى مكروهه عندها • وكان احساس الناب الابيض بسميث الجميل سيئا • كانت تنبعث من جسد الرجل المشوه وعقليته المعقدة انبعاثات غامضة من السقم الداخلى كالضباب الذى يرتفع من المستنقعات الموبوءة بالملاريا • وأحس الناب الابيض أن الرجل ينذر بالشر محمل بالاذى ولهذا فهو شئ سئ وجدير بأن يكرهه • وليس مصدر هذا الاحساس المنطق أو الحواس الخمس وحدها بل الحواس الاخرى النائية غير المرسومة •

وكان الناب الابيض فى مخيم السمور الاغبر حين زاره سميث الجميل لاول مرة ، وحالما سمع وقع خطاه من بعيد وقبل أن يراه عرف الناب الابيض من هو القادم وأخذ ينفش شعره • كان راقدا مستسلما للراحة ولكنه نهض بسرعة حتى اذا وصل الرجل تسلل مبتعدا على نحو ما تفعله الذئاب الحقيقية الى حافة المخيم ولم يعرف شيئا مما قالاه ولكنه استطاع أن يرى الرجل والسمور الاغبر يتحدثان معا • وحالما أشار الرجل اليه رد الناب الابيض على هذه الاشارة بالتكشير عن أنيابه كما لو كانت اليد قد هبطت عليه وكأنما لم يكن بعيدا عنها مسافة خمسين قدما ، وضحك الرجل لهذه الحركة وتسلل الناب الابيض مبتعدا داخل الغابات ينشد ملجأ • ومضى الناب الابيض ينزلق فى خفة فوق الارض وهو يستدير برأسه يرقب ما يحدث •

ورفض السمور الاغبر بيع الكلب قائلا انه أثرى من تجارته وليس فى حاجة الى شئ وفضلا عن ذلك فان الناب الابيض حيوان له قيمته فهو أقوى ما لديه من الكلاب التى تجر الزحافة وأحسن من يتقدم الكلاب ويضاف الى هذا أنه ليس له مثيل بين الكلاب على الاطلاق فى حوض ماكنزى أو يوكون • وفى استطاعته أن يقاتل بل انه ليقتل الكلاب الاخرى كما يقتل البشر الذباب ، وتألقت عينا سميث الجميل عند هذا القول ولعق شفتيه الرقيقتين بلسانه المتلهف ، كلا لم يكن الناب الابيض ليباع مهما كان الثمن •

ولكن سميث الجميل كان يعرف أساليب الهنود • فأكثر من زيارة مخيم السمور الاغبر وهو يخفى تحت معطفه زجاجة سوداء أو ما يشبه ذلك • ومن صفات الويسكى أنه يزيد التعطش اليه • وتعطش السمور الاغبر الى الويسكى والتهبت الاغشية المخاطية ومعدته وتطلبت المزيد منه أكثر فأكثر وسيطر عليه الحافز للشراب حتى أكرهه على الذهاب الى أى مدى فى سبيل الحصول عليه • وبدأت الاموال التى حصل عليها من بيع الفراء والقفازات والاحذية الجلدية فى التسرب من بين

يديه وزادت سرعتها في الذهاب وكلما نقص المال لديه زاد ضيق مزاجه ٠

وأخيرا ذهب ماله وذهبت بضاعته وفقد أعصابه ولم يبق عنده سوى تعطشه للويسكي ٠ وزاد هذا التعطش مع كل نفس يتنفسه وعندئذ عاد سميث الجميل يحدثه بشأن الناب الابيض ورغبته في شرائه منه ولكن الثمن المعروض هذه المرة كان زجاجات من الويسكي ولم يكن نقودا وكانت اذنا السمور الاغبر متلهفتين على الانصات وكانت اخر كلماته لسميث الجميل ٠

« امسكه وخذه فهو لك » ٠

وجاء سميث الجميل بالزجاجات بعد يومين وقال للسمور الاغبر:

« امسك لى الكلب » ٠

وانسل الناب الابيض الى داخل المخيم ذات مساءورقد بعد أن تنهد تنهد الرضا ٠ اذ لم يكن الاله الابيض المخوف هناك ٠ فقد زادت مظاهر رغبته في وضع يده عليه في الايام الاخيرة مما كان يدفع الناب الابيض أخيرا الى الابتعاد عن المخيم ولم يعرف أى شر يكمن فى اليدين بأصرارهما بل عرف فقط أنهما تهددان بشر من نوع ما وأنه من الافضل له أن يبتعد عن متناولهما ٠

ولكنه ما كاد يرقد حتى جاء السمور الاغبر اليه مترنحا وحاط عنقه بسير من الجلد وجلس بجواره ممسكا الطرف الاخر من السير الجلد بأحدى يديه وزجاجة باليد الاخرى ، وكانت الزجاجة تنقلب على رأسه من وقت لاخر بمصاحبة أصوات بقبقة ٠

ومرت ساعة على هذه الحال حتى دلت اهتزازات الارض تحت أقدام الناب الابيض على اقتراب انسان ٠ وبدأ ينفش شعره بينما السمور الاغبر منكس رأسه نعاسا ٠ وحاول الناب الابيض أن يجذب السير الجلدى بخفه من يد سيده ولكن الاصابع المسترخية توترت وأحكمت امساك السير وأفاق السمور الاغبر ٠

ودخل سميث الجميل ووقف بجوار الناب الابيض وهمهم الناب الابيض بصوت خافت فى خوف وراقب حركة اليدين مراقبة دقيقة ٠ وامتدت احدى اليدين وبدأت تهبط على رأسه ، وزادت زمجرته قوة وخشونة ، واستمرت اليد فى هبوطها ببطء واستمر هو فى الانكماش تحتها وهو ينظر اليها فى دهاء ٠ وقصرت زمجرته وزادت قصرا مع سرعة تنفسه ٠ وعلى حين فجأة فتح فمه وأبرز أنيابه وكاد يطبق فكيه على اليد ولكن الرجل سحب يده بسرعة وأطبق الناب الابيض فكيه على

فراغ فاصطكت الانياب والاسنان بصوت شديد ، وخاف سميث الجميل وغضب وربت السمور الاغبر على رأس الناب الابيض فأدناه من الارض احتراما له واظهارا لطاعته ٠

وتعقبت عينا الناب الابيض المتشككتان كل حركة ورأى سميث الجميل يذهب ثم يعود وبيده عصا قوية ٠ وعندئذ قدم السمور الاغبر الطرف الاخر من السير الجلدى ، وأخذ سميث الجميل فى المشى بعيدا وتوتر الشريط الجلدى وقاوم الناب الابيض الجذب ، ولطمه السمور الاغبر يمنه ويسره ليدفعه الى النهوض ومتابعة سميث الجميل ٠وأطاع ولكن فى اندفاع فارتطم بالرجل الغريب الذى أخذ يجره بعيدا ٠

ولم يقفز سميث الجميل مبتعدا لانه كان يتوقع هذا ورفع العصا برشاقة وهوى بها على الناب الابيض الذى وقع على الارض ٠ وضحك السمور الاغبر وهز رأسه موافقا ، وجذب سميث الجميل السير الجلدى من جديد وزحف الناب الابيض وراءه وهو يعرج وقد أصابه الدوار ٠

ولم يندفع مرة أخرى اذ كانت ضربة واحدة من العصا كافية لاقناعه بأن الاله الابيض يعرف كيف يعامله وكان أحكم من أن يقاتل القدر المحتوم ، وهكذا سار فى أعقاب سميث الجميل وهو فى استياء وذيله بين قائمتيه الخلفيتين وهو يزمجر بصوت خافت ٠ ولكن سميث الجميل ظل يرقبه بانتباه وظلت العصا مستعدة لضربه ٠

وفى القلعة تركه سميث الجميل مقيدا بأحكام وأوى الى فراشه وانتظر الناب الابيض ساعة ثم أخذ يقرض السير الجلدى بأنيابه ولم تمض عشر ثوان حتى أصبح حرا طليقا بعد أن انقطع السير الجلدى انقطاعا عرضيا وكأنما قطعته سكين ٠ وتطلع الناب الابيض الى القلعة وهو ينفش شعره ويزمجر فى نفس الوقت واستدار وأخذ يركض عائدا الى مخيم السمور الاغبر ٠ لم يكن يدين بالولاء لهذا الاله الغريب الرهيب لانه منح نفسه للسمور الاغبر ولا يزال ينتمى للسمور الاغبر فى اعتباره ٠

وتكرر ما حدث من قبل مع فارق بسيط ٠ قيده السمور الاغبر بسير جلدى وفى الصباح قدمه لسميث الجميل ٠ وهنا ظهر هذا الفارق وهو أن سميث الجميل ضربه ضربا مبرحا وما كان الناب الابيض وهو المقيد باحكام مستطيعا أكثر من أن يهيج عبثا وأن يتلقى العقاب واستخدمت العصا والسوط فى ضربه وتلقى ضربا لم يتلق مثيلا له من قبل حتى الضرب المبرح الذى ضربه اياه السمور الاغبر فى طفولته كان شيئا هينا اذا هو قورن بهذا الضرب ٠

واستمتع سميث الجميل بعمله هذا وابتهج به واحمرت عيناه احمرارا كئيبا وهو يلوح بالسوط أو بالعصا ويهوى على الناب الابيض بينما هذا يصيح ألما ويعوى ويزمجر ، ذلك لان سميث الجميل قاس قسوة الجبناء ولكم جرب سميث الجميل الانكماش والانطواء حول نفسه تحت ضربات الانسان وعباراته الغاضبة لينتقم فيما بعد من المخلوقات التى هي دونه قوة ، ان الحياة بشتى صورها تحب القوة . ولم يكن سميث الجميل استثناء لهذه القاعدة . كان محروما من التعبير عن القوة بين نوعه فلذا ينهال على المخلوقات الاقل شأنا وقوة ضربا وبهذا حقق الحياة التى بين جنبيه . ولكن سميث الجميل لم يكن هو الذى خلق نفسه وما كان لاحد أن يوجه اليه لوما بسبب صفاته هذه انه جاء الى العالم بجسد ملتو وذكاء وحشى . وهذا هو قوام طينته ولم يكن العالم هو الذى شكل هذه الطينة .

وعرف الناب الابيض لماذا ضرب . وعندما أحاط السمور الاغبر عنقه بالسير الجلدى وقدم الطرف الاخر من هذا السير الجلدى الى سميث الجميل عرف الناب الابيض أنها ارادة الهه له أن يذهب مع سميث الجميل . وعندما تركه سميث الجميل مقيدا خارج القلعة عرف أنها ارادة سميث الجميل أن يبقى هناك . واذن فقد خالف ارادة الهين وناله هذا العقاب نتيجة لذلك . ولقد رأى كلابا تغير سادتها فى الماضى ورأى الكلاب الهاربة تضرب كما ضرب الان . انه حكيم ومع ذلك ففى طبيعته قوى أعظم من الحكمة . من هذه القوى الوفاء . انه لا يحب السمور الاغبر ومع ذلك فهو مخلص له رغم ارادته وغضبه ولا حيلة له فى ذلك وهذا الاخلاص صفة من صفات الطينة التى شكل منها والصفة المميزة لهذا النوع من بين جميع الانواع الاخرى والصفة التى دفعت الذئب والكلب البرى الى الحضور من البرارى لمصاحبة الانسان .

وبعد الذى ناله الناب الابيض من ضرب مبرح جره سميث الجميل الى داخل القلعة وقيده بالعصا والمرء لا يتخلى عن الهه بسهولة وهكذا كان الامر مع الناب الابيض ، كان السمور الاغبر الهه الخاص وبالرغم من ارادة السمور الاغبر ظل الناب الابيض متعلقا به ولم يرد أن يتخلى عنه . لقد خانه السمور الاغبر وتخلى عنه ولكن لم يكن لكل هذا تأثير عليه وهو الذى سلم نفسه له جسدا وروحا . ولم يكن هناك أدنى تحفظ من جانب الناب الابيض وما كان الرباط لينفصم بسهولة .

وهكذا عمد الناب الابيض فى الليلة التالية بعد أن نام من بالقلعة

الى العصا واعمل فيها أنيابه وكانت جافة صلبة كما كانت مقيدة قريبا جدا من عنقه بحيث كانت أنيابه بالكاد تصل اليها • ولكنه استطاع بفضل الجهد العضلى الشديد الذى بذله وثنى عنقه أن ينجح فى وضع العصا بين اسنانه وثابر فى صبر هائل ساعات طويلة على عض العصا وهذا أمر لا يفترض أن تستطيعه الكلاب ولم يسبق له مثيل ولكنه الناب الابيض استطاع وحطم العصا وفى الصباح المبكر كان الناب الابيض يركض خارجا من القلعة وطرف العصا يتدلى من عنقه •

وكان حكيما ولو كان مجرد حكيم فحسب لما عاد الى السمور الاغبر الذى خانه مرتين ، ولكنه كان مخلصا فعاد ليخونه السمور الاغبر مرة ثالثة واستسلم مرة أخرى للقيد الذى أحاط به السمور الاغبر عنقه وجاء سميث الجميل مرة أخرى يطلبه • وفى هذه المرة ضربه بقسوة تفوق قسوة ضربه فى المرتين السابقتين •

ووقف السمور الاغبر ينظر فى غير اهتمام والرجل الابيض يمسك السوط ولم يحم الناب الابيض الذى لم يعد كلبه • ولما انتهى الضرب أصبح الناب الابيض عليلا • ولو كان واحد من كلاب الجنوب الناعمة فى مكانه لمات من أثر هذا الضرب • كانت مدرسة حياته أشد صلابة من مدرسة حياة كلاب الجنوب وكان هو نفسه أشد صلابة من بقية نوعه • وكانت حيويته شديدة وتمسكه بالحياة قويا • ولكنه أصبح عليلا جدا • وفى أول الامر عجز عن جر نفسه جرا واضطر سميث الجميل الى الانتظار نصف ساعة واقفا بجواره • وبعد انقضاء نصف الساعة سار فى أعقاب سميث الجميل أعمى يترنح عائدا الى القلعة •

وقيد بسلسلة من حديد تتحدى انيابه وحاول عبثا انتزاع السلسلة من قطعة الخشب المثبتة فيها يجذبها معه بعيدا • وبعد بضعة أيام رحل السمور الاغبر مفلسا مبتدئا رحلته الطويلة الى ماكنزى ، وبقى الناب الابيض فى يوكون يملكه شبه مجنون ولكنه متوحش ولكن ماذا عساه ليعرفه كلب فى وعيه عن الجنون ، كان سميث الجميل عند الناب الابيض الها حقيقيا وان كان رهيبا • كان الها مجنونا ، ولكن الناب الابيض لم يعرف شيئا عن الجنون بل عرف فقط أنه عليه أن يخضع لارادة هذا السيد الجديد وأن يطيع نزوته وخياله•

الفصل الثالث
حكم الكراهية

وأصبح الناب الابيض تحت وصاية الاله المجنون عدوا له وظل مقيدا بالسلاسل فى حظيرة فى مؤخرة القلعة وهنا أخذ سميث الجميل يعاكسه ويضايقه ويعذبه حتى يصيبه بالجنون • وقد تبين الرجل مبكرا سرعة تأثر الناب الابيض بالضحك الذى يضمنه السخرية بينما هو فى نفس الوقت يشير اليه بأصبعه مستهزئا ، وفى مثل هذه اللحظات يذهب عن الناب الابيض عقله ويهيج هياجا عظيما يجعله أكثر جنونا من سميث الجميل نفسه •

وكان الناب الابيض من قبل ذلك عدو نوعه ـ عدوا غاية فى الوحشية فأصبح الان عدوا لجميع الاشياء وأشد وحشية منه قبلا ولقد بلغ سميث الجميل فى تعذيبه حدا جعل الناب الابيض يتمادى فى كراهيته العمياء الخالية تماما من أى بصيص من العقل •كره السلسلة الحديدية التى تقيده والرجال الذين يطلون عليه من شقوق جدران الحظيرة والكلاب التى فى صحبة الرجال والتى تزمجر فيه فى خبث وهو بلا حول أو قوة • كره نفس خشب الحظيرة التى تضمه بين جدرانها وكره سميث الجميل أولا وأخيرا •

ولكن كان لسميث الجميل غرض فى كل ما كان يفعله للناب الابيض وفى ذات يوم تجمع عدد من الرجال حول الحظيرة ، ودخل سميث الجميل والعصا بيده وحل وثاق الناب الابيض الحديدى • من عنقه ، وخرج من الحظيرة وبقى الناب الابيض طليقا وأخذ يدور فى أنحاء الحظيرة فى ثورة محاولا الخروج الى هؤلاء الرجال وكان منظره رهيبا وطوله خمسة أقدام كاملة وعرض كتفيه قدمان ونصف قدم أما وزنه فيفوق وزن أى ذئب فى حجمه ، وقد ورث عن أمه مثل وزن الكلب فبلغ وزنه وهو خال من أى دهن أو لحم زائد أكثر من تسعين رطلا • كان كله عضلات وعظما وأعصابا ـ كان مقاتلا فى أحسن حالاته •

وفتح باب الحظيرة ثانية • وتوقف الناب الابيض • كان هناك شىء غير عادى يحدث • وانتظر • وزاد اتساع فتحة الباب ثم دفع كلب ضخم الى داخل الحظيرة وأغلق الباب عليهما ولم ير الناب الابيض مثل

هذا الكلب من قبل ، كان ضخما جدا · ولكن ضخامة حجم هذا الكلب أو مظهره الوحشى لم يعوق الناب الابيض ، انه يرى أمامه شيئا لا هو بالخشب ولا هو بالحديد · انه شيء يستطيع أن يصب عليه جام كراهيته فوثب عليه بانياب ذات بريق خاطف وانتزعت جانبا من عنق الكلب الضخم فهز هذا رأسه وزمجر زمجرة شديدة ووثب على الناب الابيض ولكن هذا وثب هنا وهناك وفى كل مكان متحاشيا ومرواغا دائما وهو مستمر فى وثبه يصيب بأنيابه ثم يثب مبتعدا فى الوقت المناسب متحاشيا العقاب ·

وصاح الرجال فى الخارج صيحات الاستحسان وصفقوا وسميث الجميل فى نشوة الابتهاج وهو يحدق النظر فيما يفعله الناب الابيض بغريمه وبدا لاول وهلة ألا أمل للكلب الضخم اذ كان غاية فى ثقل الوزن بطيئا فى الحركة · وبعد انتهاء المعركة دخل سميث الجميل بعصاه يحجز الناب الابيض عن الكلب الضخم الذى أخذ اصحابه يجرونه الى الخارج ودفع المتراهنون الرهان ورنت النقود فى يد سميث الجميل ·

وتطلع الناب الابيض فى حماس الى جماعة الرجال حول حظيرته كان معنى ذلك أنه قتال ، وبدت هذه هى الطريقة الوحيدة التى منحت له للتعبير عن الحيوية التى بين جنبيه ، كان الرجل يعذبه وينمى فيه عاطفة الكراهية ويبقيه أسيرا حتى لا تكون هناك وسيلة لاشباع تلك الكراهية الا بأن يحطم له كلبا اخر وقتما يشاء وكان سميث الجميل يحسن تقدير الناب الابيض لانه ينتصر دائما ، وفى ذات يوم ساق اليه ثلاثة كلاب الواحد بعد الاخر · وفى يوم اخر أدخل عليه من باب الحظيرة ذئبا صيد حديثا وجيء به من البرية ، وفى ذات يوم جيء له بكلبين معا فى وقت واحد · وكان هذا أشق قتال اشترك فيه وبالرغم من أنه قتلهما فى ختام المعركة الا أن هذا القتال كاد يكلفه حياته ·

وفى فصل الشتاء بدأ الجليد يتساقط وأخذت ألواح الثلج تسيح فوق صفحة النهر · وركب سميث الجميل والناب الابيض باخرة أقلعت من يوكون فى طريقها الى دوسون وكان الناب الابيض قد ذاع صيته فى البلاد وعرف فى طول البلاد وعرضها باسم « الذئب المقاتل » فأحاط الفضوليون بالقفص الذى وضع فيه فوق السفينة فكان يثور ويزمجر فيهم أو يرقد بهدوء ويرقبهم بكراهية باردة ولماذا لا يكرههم ؟ انه لم يوجه لنفسه هذا السؤال بل كان يعرف الكراهية فحسب واستسلم وأصبحت الحياة بالنسبة له جحيما لا يطاق · فانه لم يخلق

لحياة الاسر التى تتحملها الحيوانات المتوحشة على أيدى البشر ومع ذلك فأنه كان يعامل على هذا النحو بالذات ، يحدق الناس فيه النظر من خلال قضبان حديدية لتدفعه الى الزمجرة ثم تضحك منه ٠

وكان هؤلاء الناس بيئته وهم يشكلون طينته حتى يصبح أكثر وحشية مما خلقته الطبيعة ، وبالرغم من ذلك فان الطبيعة منحته صفة الطواعية ، ولو كان أى حيوان فى مكانه لمات غما وكمدا أو انهارت روحه المعنوية ، وكان من الممكن لسميث الجميل عدو الناب الابيض اللدود ومعذبه أن يقضى على روحه ولكن لم تبد أية دلالة على ذلك حتى الآن ٠

ولئن كان الشيطان كامنا فى نفس سميث الجميل فقد كان فى الناب الابيض شيطان مثله ولم يكف كلا الشيطانين عن الهياج على الشيطان الاخر ٠ وكان من شأن الناب الابيض من قبل الحكمة التى تدفعه الى الانكماش والخضوع لرجل بيده عصا ولكن هذه الحكمة زالت عنه الان ، اذ أصبح يكفيه أن يرى سميث الجميل ليهيج هياجا عنيفا واذا دنا أحدهما من الاخر وضربه سميث الجميل بالعصا زمجر وكشر عن أنيابه ولا يستطيع شىء أن يوقفه عن الزمجرة ولو اشتد عليه الضرب فاذا توقف سميث الجميل عن الضرب وانسحب تبعته الزمجرة المتحدية أو وثب الناب الابيض على القضبان الحديدية يصب عليه كراهيته ٠

وعندما وصلت الباخرة الى دوسون أنزل الناب الابيض على الشاطىء وهو فى قفصه وقد أحاط به الفضوليون من البشر وعرض على الناس باعتباره « الذئب المقاتل » ودفع المتفرجون عليه خمسين سنتا ذهبيا مقابل مشاهدته ، ولم يأخذ أى نصيب من الراحة واذا هو أراد النوم أيقظته وخزة عصا حادة حتى يرى الجمهور منه مقابل مادفعه ثمنا لرؤيته وكانوا يبقونه فى حالة هياج دائم لكى يكون العرض مسليا ٠ ولكن كان هناك ما هو اسوأ من كل هذا وهو الجو الذى يعيش فيه ، فقد كان يعتبر اكثر الوحوش البرية تخويفا ورأى مظاهر ذلك من خلال القضبان الحديدية فقد رأى فى كل كلمة يقولها هؤلاء الناس أو اشارة يأتونها دليلا على وحشيته الرهيبة فزاد ذلك لهب وحشيته اشتعالا ٠٠ ولم تكن لهذا سوى نتيجة واحدة هى نمو وحشيته وزيادتها وجاء هذا دليلا اخر على مرونة طينته وقابليتها للتشكل تحت ضغط البيئة ٠

وبالاضافة الى عرضه على الناس فانه كان حيوانا مقاتلا ، وأحيانا

كانوا ينظمون قتالا بينه وبين كلب اخر فيخـــرجه سميث الجميل من قفصه ويقوده الى الغابات على بعد بضعة أميـال من المدينة ، ويحدث هذا ليلا عادة وذلك لتحاشى تدخل فرسان البوليس فى المنطقة وبعد بضع ساعات انتظار يطلع الفجر ويأتى الجمهور والكلب المحدد لقتاله وبهذه الوسيلة قاتل كل أنواع الكـلاب وبشتى أحجامها ، وكانت تلك المنطقة متوحشة وأهلها متوحشون والقتال ينتهى بالموت ٠

ويدل استمرار الناب الابيض فى القتال على أن الكلاب الاخـرى ماتت وأنه لم يعرف الهزيمة ذلك لان تدريبه فى أوائل حياته عنـدما قاتل لبلب وقطيع الجراء كله قوم بناءه واكسبه الصلابة التى تثبت اقدامه فى الارض فما كان كلب يستطيع أن ينتزعه من موقفه وكانت الحيلة البارعة المحبوبة عند الكلاب المنحدرة من ســلالات ذئبية هى الاندفاع اليه سواء مباشرة أم بحركة مفاجئة على أمل دفع كتفه واسقاطه على الارض ٠ حاولت كل كلاب تلك المنطقة ايقـاعه على الارض فلـم نفلح وتأكد الجميع من ثبات أقدامه فى الارض وتناقل الناس حديث ذلك وأخذوا يرقبون مثل هذا الموقف ٠

ثم كانت له صفة أخرى الى جانب ثبات أقدامه وهى سرعته الخاطفة التى تميزه عن مناوئيه ٠ اذ مهما كانت خبرة هذه الكلاب فى القتـال فانها لم تكن لها طول تلك الخبرة وما كانت لتتحـرك بنفس السرعة التى يتحرك بها أو تضرب ضربته المباشرة ، ويلجأ الكلب العـادى الى التمهيد للعراك بالزمجرة ونفش الشعر فكان الناب الابيض يقلبه على الارض ويقضى عليه قبل أن يبدأ القتال أو قبل أن يفيق من أثر المفاجأة وكثيرا ما حدث هذا حتى أصبحت العادة امســاك الناب الابيض حتى ينتهى الكلب الاخر من استعداداته التمهيدية بل ويقوم بهجمته الاولى٠

ولكن اكبر مزايا الناب الابيض هى خبرته ٠ كان يعرف عن القتال أكثر مما يعرفه أى واحد من الكلاب التى واجهته اذ كان قد اشـترك فى معارك أكثر من المعارك التى خاضها أى واحد منها ويعرف من الحيل والخدع والطرق أكثر مما تعرف الكلاب جميعا بل لقد ابتكر هو بعض الطرق فى القتال ٠

ومع مرور الزمن قل عدد المعارك التى اشـــترك فيها فقد يئس الناس من أن يجدوا ندا له واضطر سميث الجميل الى أن يؤلب عليه الذئاب ، وكان الهنود الحمر ينصـــبون الفخاخ لصـــيد الذئاب لهذا الغرض وكان تدبير معركة بين الناب الابيض وأحد هذه الذئاب كفيلا بأن يجمع حشدا من المتفرجين ٠ وصيدت انثى فهد ذات مرة وكانت

كاملة النمو وفي هذه المرة قاتلها الناب الابيض في ســـبيل المحافظة على حياته ٠ اذ لم تكن تقل عنه سرعة أو وحشية وكان يقاتلها بأنيابه فقط بينما تقاتله هي بالناب والمخلب الحاد ٠

وبعد هذه المعركة كف القتال بالنسبة للناب الابيض اذ لم تعـد هناك حيوانات ليقاتلها أو على الاقل حيوانات جديرة بقتاله ، وهكـذا اكتفي بعرضه على المتفرجين حتي جاء فصل الربيع اذ وصـل الى تلك المنطقة تيم كينان المقامر بورق اللعب وفي صحبته كلب ضخم من نوع البولدوج فكان أول ما دخل كلونदايك من هذه الكلاب وكان لابد من أن يلتقى الناب الابيض وهذا الكلب ٠ وظل القتـــال المنتظر بينهما موضوع حديث بعض أحياء المدينة اسبوعا قبل وقوع هذا القتال ٠

الفصل الرابع
الموت المعلق

فك سميث الجميل السلسلة من حول عنق الناب الابيض وتراجع خطوة الى الوراء ·

وللمرة الاولى فى حياة الناب الابيض لم يهاجم مهاجمته المباشرة بل وقف ساكنا وقد نصب اذنيه الى الامام فى يقظة وانتباه وفضول يفحص الحيوان الغريب الذى يواجهه ولم يكن قد رأى مثل هذا الكلب من قبل ، ودفع تيم كينان الكلب الضخم الى الامام وهو يتمتم قائلا ·

« اذهب اليه »

وتهادى الحيوان نحو مركز الدائرة قصيرا ثقيلا بطيئا · وتوقف ورمش بعينيه نحو الناب الابيض ·

وتعالت صيحات الجمهور ·

« اذهب اليه يا تشيروكى ! اضربه يا تشيروكى ! كله ياتشيروكى »

ولكن تشيروكى لم تبد عليه لهفة الى القتال ، وأدار رأسه ونظر الى الرجال الصائحين وهو فى نفس الوقت يهز ذيله القصير فى طيبة لم يكن خائفا بل كان كسولا فحسب · وفضلا عن ذلك فانه لم يبد له أن المقصود من هذا الموقف هو أن يقاتل الكلب الذى أمامه · ولم يكن متعودا القتال مع كلاب من هذا النوع وانتظر أن يؤتى له بالكلب الحقيقى ·

وتقدم تيم كينان خطوات الى الامام وانحنى فوق تشيروكى ونخسه فى جانبى كتفيه بيديه ودلك جذور شعره حتى دفع جلده الى الامام · وكانت فى هذا ايحاءات عديدة كما كانت مضايقة لتشيروكى وبدأ يزمجر بصوت خافت جدا عميق النبرات فى حلقه · وكان هناك تناسب بين هذه الحركات وبين الزمجرة وارتفعت نبرة الزمجرة مع كل زيادة فى حركة يدى الرجل ثم خفتت الزمجرة لتعود الى الارتفاع من جديد مع بداية الحركة الجديدة وتوقفت الحركة واستمرت الزمجرة وعلت فجأة ·

وكان لهذا تأثيره على الناب الابيض وبدأ شعر ظاهر عنقه ينتصب وكذلك شعر كتفيه · ودفع تيم كينان كلبه الدفعة النهائية الى الامام

وتراجع الى الوراء حيث كان من قبل • وبعد أن انتهى الحافز الذى دفع تشيروكى الى الامام استمر فى المضى قدما بمحض ارادته فى جرى سريع انحنت له سيقانه وعندئذ هجم الناب الابيض وارتفعت صيحات الاعجاب والدهشة فقد قطع الناب الابيض المسافة بينه وبين غريمه بسرعة وخفة القط • وبنفس السرعة غرس فيه أنيابه ثم وثب بعيدا عنه •

ونزف الدم من شق وراء اذن تشيروكى فى عنقه الغليظ ولم تظهر منه أية دلالة على تأثيره بل ولم يزمجر أو يكشر عن أنيابه بل استدار وطارد الناب الابيض ، واستمر العرض من الجانبين سرعة من جانب وثبات من جانب اخر مما أثار روح التحيز فى الجمهور وتراهن الرجال مراهنات جديدة وزادوا رهانهم القديم وهجم الناب الابيض مرة ثانية وثالثة وطعن غريمه ووثب مبتعدا عنه دون أن يمسه اذى ومع ذلك استمر عدوه الغريب يتبعه بدون تعجل لم يكن بطيئا ولكنه كان مصمما متحققا بصورة عملية ، وكان وراء طريقته هذه هدف ــ هدف يعتزم تحقيقه ولا شىء يمكن أن يحول بينه وبين تحقيقه •

وكان سلوكه كله وكل حركة من حركاته مطبوعة بهذا الهدف • وحيرت هذه الطريقة الناب الابيض • انه لم ير مثل هذا الكلب من قبل قط • لم يكن على جسمه شعر يحميه بل كان جلده ناعما تسهل اسالة دمه منه فلم يكن هناك ذلك الغطاء السميك من الفراء الذى يضلل الناب الابيض عادة عندما يهاجم الكلاب الاخرى ذات الفراء • وفى كل مرة يضربه بأنيابه يغرس هذه الانياب بسهولة فى اللحم اللين بينما لا يبدو لدى الكلب أية قدرة على الدفاع عن نفسه • وهناك شىء محير اخر وهو أنه لم يصدر عنه أى عواء أو صياح كما تعود أن يسمع ويرى من الكلاب الاخرى التى قاتلها • وتلقى هذا الكلب الضخم عقابه فى صمت اللهم الا زمجرة أو همهمة يسيرة • ولكنه لم يتوقف عن مطاردة الناب الابيض •

ولم يكن تشيروكى بطيئا بل هو سريع جدا فى الاستدارة والدوران حول نفسه ولكن الناب الابيض كان يروغ منه دائما مما حير تشيروكى هو الاخر اذ لم يسبق له أن قاتل من قبل كلبا لا يستطيع الاطباق عليه وفى كل قتال سابق كانت الرغبة متبادلة بينه وبين الكلب الاخر فى الاطباق كليهما على الاخر ، أما هذا الكلب فأنه مبتعد دائما يرقص ويراوغ هنا وهناك وفى كل الانحاء • وعندما يغرس أسنانه فيه لا يستمر طويلا فى مثل هذا الوضع بل يتخلى عنه بسرعة ويمضى بعيدا

ولكن الناب الابيض لم يستطع الوصول الى الجزء السفلي الناعم من عنق تشيروكي فقد كان هذا الكلب غاية في القصر كما كانت ركاه الضخمتان درعا واقيا • وهجم الناب الابيض وتراجع دون أن يمسه ضرر بينما أخذ عدد جراح تشيروكي في الازدياد • وامتدت الخدوش والشقوق في جانبي عنق ورأس تشيروكي ونزف الدم منه غزيرا ولكن لم يبد عليه أى أثر للانزعاج بل استمر في مطاردته الا أنه حدث ذات مرة أن توقف توقفا تاما ورمش بعينيه للرجال الناظرين اليه وهو في نفس الوقت يهز ذيله تعبيرا عن رغبته في القتال •

وفي تلك اللحظة هجم عليه الناب الابيض وارتد عنه وفي هذه المرة قطع الباقي من احدى اذنيه • وظهر شيء من الغضب على تشيروكي وعاد الى مطاردة الناب الابيض متعمقا داخل الدائرة التي يصنعها الناب الابيض بدورانه ويحاول أن يسرع بالاطباق على عنق النـــاب الابيض فيقضي عليه ، وكاد يحقق هذه الغاية ولكنه أخطأ بمسافة قيد شعرة وارتفعت صيحات الاستحسان اذ ابتعد الناب الابيض فجأة وفي تلك اللحظة المناسبة متجها الى الناحية الاخرى ونجا من الخطر •

ومضى الوقت وبقي النـــاب الابيض يرقص ويراوغ وينثني ويثب عليه ثم يثب عنه وهو دائم احداث الاصابات به ومع ذلك ظل الكلب الضخم يجرى وراءه في ثقة كبيرة في انه سيحقق غرضه ان عاجلا وان اجلا وسيقبض قبضته التي تحقق له النصر في المعركة • وفي خلال ذلك تقبل كل عقاب استطاع الاخر أن ينزله به • اصبحت أذناه شرائح كأنها خيوط وأصيب عنقه وكتفاه بعدة خدوش وجراح كبيرة وشققت شفتاه وأخذتا تنزفان وما من أثر تلك الهجمات الخاطفة التي تفوق تنبؤاته وحذره •

وحاول الناب الابيض المرة تلو الاخرى أن يوقع تشـــيروكي على الارض ولكن الفارق بين ارتفاعهما كان كبيرا جدا • ولجأ الناب الابيض الى هذه الحيلة أكثر من مرة وواتته الفرصة في احدى انثناءاته السريعة ومخالفة الدوران ففاجأ تشيروكي اذ كان رأسه مائلا عنه وهو يدور على نحو اكثر بطئا وانكشف كتف تشيروكي فهجم الناب الابيض عليه ولكن كتفه هو كانت عالية فعند هجومه بقوة شديدة حملته دفعته فوق غريمه الى الناحية الاخرى • ولاول مرة في تاريخ قتال الناب الابيض رآه الناس وقد ارتفعت سيقانه عن الارض فأدار جسمه وهو لا يزال في الهواء وكان من المحتمل أن يقع على ظهره لو لم ينثن في مهارة القط وهو في الهواء وذلك حتى يهبط على أقدامه ولكنه وقع على جنبه • وفي

اللحظة التالية كان قد نهض على أقدامه ولكن فى تلك اللحظة أطبقت أسنان تشيروكى على عنقه ٠

ولكن تشيروكى لم يحكم اطباق فكيه وذلك لقربه من الارض واستمر تشيروكى ممسكا بعنق الناب الابيض الذى وثب ناهضا على أقدامه ودار حوله بهوس محاولا ابعاد الجسد الثقيل عنه وأصيب الناب الابيض بالهوس بسبب هذا الثقل المعلق بعنقه والذى قيد حركاته وحريته ٠ كان كالفخ واستاءت منه غريزته وتمردت عليه تمردا مجنونا٠وظل عدة دقائق مجنونا وسيطرت عليه الحياة الاساسية فيه وغلبت عليه ارادة بقاء جسده وهيمن عليه مجرد حب هذا الجسد الحياة ، وذهب عنه كل تفكير وبدا وكأنما لم يعد له عقل اذ حل محل هذا العقل لهفة الجسد العمياء للبقاء والحركة ، والحركة مهما كانت المخاطرة والاستمرار فى الحركة لان الحركة تعبير عن وجوده ٠

وظل يدور ويدور ثم يعكس دورانه محاولا التخلص من هذا الثقيل الذى يزن خمسين رطلا والمتعلق بعنقه ٠ وظل تشيروكى قابضا على العنق بفكيه واستطاع أحيانا ولكنها أحيان نادرة أن يثبت اقدامه على الارض لحظة واحدة ليثبت فى موقع ما ازاء الناب الابيض ٠ ولكنه سرعان ما يفقد هذا الثبات اذ يجره الناب الابيض معه ويدور به فى جنون وعرف تشيروكى بغريزته أن عمله هذا هو الصواب وأنه يجب عليه أن يظل ممسكا بعنق الناب الابيض وأشعره هذا بالرضا وأحس هزة الرضا وفى اللحظة التى يغمض فيها عينيه ويسمح لجسده بالتأرجح هنا وهناك طبقا لجذب الناب الابيض اياه دون أن يهتم بأى اذى يلحق به نتيجة لهذا ظل متمسكا بتلك القبضة على عنق غريمه ٠

ولم يكف الناب الابيض عن هذه الحركة الا بعد أن انهكه التعب لم يعد مستطيعا أن يفعل شيئا ولم يستطع أن يفهم سر ذلك ٠ انه أمر لم يحدث له قط طول عهد قتاله فالكلاب التى قاتلها لم تقاتل على هذا النحو ٠ لم يكن قتاله معها يكلفه اكثر من اطباق فم أو غرس أنياب ثم الابتعاد عنها ٠ ويكرر ذلك عدة مرات ٠ ورقد على جنبه تقريبا وهو يلهث ، واستمر تشيروكى مطبقا فمه ويدفعه بجسمه ليلقيه على جنبه تماما ٠ وقاوم الناب الابيض وأحس ضغط الفكين يخف قليلا ثم تطبقان ثانية فى حركة مضغ فى كل انتقال من هذه الانتقالات وكانت طريقة الكلب الضخم أن يظل متمسكا بما بين أنيابه وأن يزداد امعانا فى الامساك كلما أتيحت له الفرصة لذلك ، واتيحت له الفرصة عندما كف الناب الابيض عن الحركة وعندما كافح الناب الابيض اكتفى تشيروكى بالامساك ٠

وكان ظاهر عنق تشيروكي البارز هو الجزء الوحيد من جسده الذى يمكن لاسنان الناب الابيض أن تنال وأمسك بقاعدة ظاهر العنق عند اتصاله بجسده بين الكتفين ولكنه لم يكن يعرف طريقة المضغ فى القتال كما أن فكيه لم تكونا لتتلاءما مع هذه الطريقة وأخذ ينشب أنيابه فى ظاهر عنق تشيروكي فى حركة تشنجية ويمزق فيه · ثم حدث تغيير فى موقفيهما فابعده عما كان فيه اذ استطاع تشيروكى أن يقلب الناب الابيض على ظهره وأن يصبح فوقه وهو لا يزال ممسكا بعنقه ، وضم الناب الابيض ساقيه الخلفيتين اليه كما يفعل القط وأخذ يحفر بهما فى بطن تشيروكي وهو فوقه ويضربها بمخالبه التى ابرزها عن اخرها وكان من الممكن أن يبقر بطن تشيروكى لو لم يدر هذا مباعدا بين جسميهما دون أن يفلت عنق الناب الابيض من بين فكيه ·

ولم يكن هناك مفر من هذه القبضة التى كانت كالقدر نفسه لا ترحم وانتقل الفكان الى أعلى قليلا قليلا على طول العنق وكل ما أنقذ الناب الابيض من الموت هو عدم التصاق جلده الذى أمسكه تشيروكى بلحم عنقه ثم ذلك الفراء السميك الذى يغطى ذلك الجلد والذى كون كرة كبيرة ملأت فم الكلب الضخم وتحدت اسنانه ولكنه زاد مقدار ما يدخل فمه من ذلك الجلد وهذا الفراء شيئا فشيئا كلما سنحت له الفرصة لذلك · واسفر هذا عن أنه بدأ يخنق الناب الابيض فى بطء حتى أصبح هذا يجد صعوبة فى التنفس وازدادت الصعوبة بمرور الدقائق ·

وبدت المعركة منتهية وابتهج المراهنون على تشيروكى وعرضوا رهانات عجيبة أما المضاربون على الناب الابيض فقد أصابهم القنوط وعرض الاولون عليهم رهانات بنسبة ١٠ الى ١ بل وحتى ٢٠ الى ١ فرفض المضاربون على الناب الابيض هذه العروض بل وبلغ التهور بأحد أفراد الفريق الاول فعرض على سميث الجميل رهانا بنسبة ٥٠ الى ١ وتقدم سميث الجميل داخل الحلقة وأشار بأصبعه الى الناب الابيض ثم أخذ يضحك ساخرا مستهزئا · واسفر هذا عن النتيجة المطلوبة ، وهاج الناب الابيض ثائرا ، واستجمع احتياطيه من القوة ووقف على أقدامه وبينما هو يناضل للفكاك من قبضة اسنان الكلب الضخم ويدور حول الحلقة ظلت الخمسون رطلا معلقة بعنقه وهو يجذبها معه فذهبت عنه سورة الغضب وحل محله الذعر وسيطرت عليه الحياة الاساسية من جديد وهرب الذكاء أمام ارادة جسده الحياة

ودار ودار ثم عاد ثانية وتعثر وسقط ونهض وتقهقر أحيانا على ساقيه الخلفيتين ورفع عدوه عن الارض ولكن هذا الكفاح فى سبيل التخلص من الموت المعلق باء بالفشل ٠

وأخيرا سقط متعثرا الى الوراء وقد أنهكت قواه ونقل الكلب الضخم قبضته على الفور وزادها قربا من حلقه مالئا فمه بالمزيد من الفراء والجلد وزاده اختناقا وعلت صيحات الاستحسان للمنتصر وتعددت الصيحات ٠

« تشيروكى ! تشيروكى ! » ٠

واستجاب تشيروكى لهذا بهز ذيله القصير ولكن صيحات الاستحسان لم تصرفه عما هو فيه ٠ ولم تكن هناك علاقة تعاطف بين ذيله وفكيه الضخمتين ، وقد يهتز ذيله ولكن الفكين ظلتا فى قبضتهما الرهيبة على عنق الناب الابيض ٠

وفى هذا الوقت شغل النظارة عما يرون بشىء اخر هو رنين أجراس وسماعهم صوت قائدى الكلاب ، وتطلع الجميع فى خوف ما عدا سميث الجميل ، وكان الخوف من أن يكون القادمون من قوة البوليس ، ولكنهم رأوا فى أعلى الطريق لا فى أسفله رجلين تجرى بهما زحافة تجرها الكلاب ٠ وكانا بداهة اثنين على طول الوادى من احدى رحلات التعدين ، وحالما رأيا هذا الجمع أوقفا كلابهما وانضما الى الجمع وقد ثار فضولهما لرؤية سبب هذا الانفعال ٠ وكان قائد الكلاب ذا شارب كبير أما الاخر فقد كان أطول منه قامة وأكثر شبابا كما كان حليق اللحية متورد الوجه من أثر اندفاع الدم الحار فى عروقه من سرعة الجرى فى الهواء البارد ٠

وكان الناب الابيض قد كف عن النضال تماما الا أنه أخذ بين لحظة وأخرى يبذل شيئا من المقاومة فى تشنج ولكن بلا هدف ٠ وقلت كمية الهواء التى تدخل رئتيه مع تنفسه وزادت قلتها لحظة بعد أخرى مع تشدد القبضة التى لا ترحم ، وبالرغم من هذا الدرع من الفراء فان حبل وريد الناب الابيض كان ينقطع لو لم تكن قبضة تشيروكى الاولى منخفضة جدا قريبا من الصدر واستغرق تشيروكى وقتا طويلا فى نقل تلك القبضة الى أعلى وفى هذا الانتقال زاد امتلاء فمه بالفراء وثنيات الجلد ٠

وفى أثناء ذلك استيقظ الوحش الكامن فى أعماق نفس سميث الجميل وسيطر على ذهنه وتحكم فى ذلك القدر الضئيل من العقل الذى كان فى رأسه ، ولما رأى عينى الناب تتزجحان وثق من أن القتال

قد انتهى وعندئذ انطلق ووثب على الناب الابيض وأخذ يركله بوحشية وبدأت همهمة وصيحات احتجاج تصدر من الجميع ولا أكثر من ذلك .. واستمر الحال هكذا وسميث الجميل يركل الناب الابيض حتى حدثت حركة بين الجمع اذ أخذ الشاب المديد القامة يشق طريقه بين الحشد بالقوة يدفع الرجال بكتفيه يمنه ويسرة بدون أية مراعاة للياقة أو الرفة ، وعندما دخل الحلقة الخالية كان سميث الجميل يوجه ركلة أخرى الى الناب الابيض وقد اعتمد بكل ثقله على ساق واحدة فكان فى حركة توازن غير مستقرة . وفى تلك اللحظة لكمه القادم الجديد لكمه شديدة فى وجهه فارتفعت ساق سميث الجميل الواقفة على الارض فى الهواء وبدا جسده كله معلقا فى الفضاء واستدار هذا الجسد فى الهواء الى الوراء وسقط على الجليد والتفت القادم الجديد الى الجمهور وصاح قائلا :

« أيها الجبناء ! أيها الوحوش ! » .

وكان هو نفسه هائجا . ولكنه هياج عاقل . وبدت عيناه السمراوان كالمعدن . كمعدن الصلب وهما تلمعان على الجمهور . ووقف سميث الجميل على قدميه وجاء نحوه فى جبن وخوف . ولم يفهم القادم الجديد ولم يعرف أى رعديد كان سميث الجميل وظنه قادما يقاتله ولهذا لكمه فى وجهه لكمة قوية أخرى وهو يسبه قائلا :

« أيها الوحش ! » .

وأوقعه على الارض . ورأى سميث الجميل أن الجليد خير مكان أمين يلجأ اليه ورقد حيث سقط ولم يبذل أى جهد للقيام .

ونادى القادم الجديد قائد الكلاب الذى كان يتبعه الى داخل الحلقة .

« تعال يا مات .. ساعدنى . »

وانحنى الرجلان فوق الكلبين وأمسك مات الناب الابيض مستعدا لجذبه عندما ينفتح فكا تشيروكى . وهذا هو ما حاوله الشاب بامساك فكى الكلب الضخم بيديه محاولا فتحهما . ولكن كان ذلك عبثا . وبينما كان يجذب وينتزع احدى الفكين من الاخرى ظل يردد مع كل تنفس .

« يا لكم من وحوش ! »

وساد الهرج وأخذ البعض يحتجون على افساد اللعبة ولكن القادم الجديد اسكتهم عندما رفع رأسه عن عمله لحظة ونظر اليهم فى حدة قائلا فى انفجار .

« أيها الوحوش الملعونة ! »
ثم استمر فى عمله ٠
وأخيرا قال مات
« لا جدوى يا مستر سكوت فأنك لن تستطيع ابعاد احدى الفكين عن الاخرى بهذه الطريقة ٠ »
وتوقف الاثنان وفحصا الكلبين المتشابكين :
وقال مات :
« انه لا ينزف كثيرا ٠٠ ولم يقض عليه بعد ٠ »
ورد عليه سكوت قائلا :
« ولكنه قد ينتهى فى أية لحظة ٠ انظر ! هل رأيت ذلك ٠ لقد زاد قبضته امعانا ٠ »
وزاد انفعال الشاب وخوفه على الناب الابيض وأخذ يضرب الكلب الضخم على رأسه بوحشية ولكنه لم يفتح فكيه ٠ وهز تشيروكى ذيله القصير اعلانا لفهمه معنى الضربات واعلانا لانه يعلم أنه على صواب وأنه انما يؤدى واجبه بالمحافظة على قبضته ٠
وصاح سكوت فى الجميع يائسا :
« ألا يساعدنى بعضكم ؟ »
ولكن لم يعرض أى واحد منهم أية مساعدة بل انهم بدأوا يحيونه ساخرين ويمطرونه بالنصائح المازحة ٠
وأشار مات عليه قائلا :
« لابد أن تجد شيئا تدسه بين فكيه ٠
ومد الاخر يده فى حزامه وأخرج منه مسدسه وحاول ادخال ماسورة المسدس بين فكى الكلب الضخم ، وأخذ يدسه بقوة حتى أصبح صوت احتكاك صلب المسدس بأسنان الكلب مسموعا بوضوح وكان الرجلان راكعين على ركبهما منحنين فوق الكلبين ٠ ودخل تيم كينان الى وسط الحلقة ، ووقف بجوار سكوت ولمس كتفه قائلا بلهجة التهديد :
« لا تكسر أسنان الكلب أيها الغريب » ٠
ورد عليه سكوت بعنف قائلا ٠
« اذن سأكسر عنقه ٠ »
ثم استمر فى دس ماسورة المسدس بين الفكين ٠
وقال المقامر بنغمة أشد من سابقتها نزيرا ٠
« قلت لك لا تكسر أسنانه »

وكان يقصد اخافته ولكنه لم ينجح فى هذا ولم يكف سكوت عن بذل جهوده بل تطلع اليه وسأله فى برود :

« أهو كلبك ؟ »

وهمهم المقامر بالايجاب ·

وقال سكوت :

« اذن تعال وفك قبضته · »

وقال الآخر وهو يشعر بالضيق ·

« حسن أيها الغريب ، لا بأس فى أن أقول لك ان هذا شىء لم اعمله من قبل ولا أعرف كيف يتم · »

ورد عليه سكوت قائلا :

« اذن لا تتدخل ولا تزعجنى فأنا مشغول » ·

وظل تيم كينان واقفا بجواره ولكن سكوت لم يعد يأبه بوجوده واستطاع أن ينفذ ماسورة المسدس بين الفكين حتى برزت من الناحية الاخرى وأخذ يحرك ماسورة المسدس شيئا فشيئا بينما أخذ مات يخلص عنق الناب الابيض قليلا قليلا ·

وأمر سكوت المقامر صاحب تشيروكى بالانتظار حتى يأخذ كلبه وأطاع المقامر الامر وانحنى ليمسك تشيروكى بأحكام ·

وقال سكوت وهو يدفع ماسورة المسدس بين الفكين اخر دفعة

« أخيرا ! »

وانفصل الكلبان كلاهما عن الاخر وقاوم الكلب الضخم امساكه بقوة وقال سكوت ·

« خذه بعيدا » ·

وجر تيم كينان تشيروكى الى داخل صفوف الجمهور ·

وبذل الناب الابيض عدة جهود غير مجدية للنهوض · واستطاع الوقوف على أقدامه أثناء احدى هذه المحاولات ولكن سيقانه كانت غاية فى الضعف فلم تستطع حمله ومال فى بطء وغاص على الجليد مرة أخرى · وكانت عيناه شبه مغمضتين وسطحهما لامعا كالزجاج وانفرج فكاه وتدلى لسانه بينهما خدرا · وشابهت كل مظاهره مظاهر كلب خنق حتى مات ·

وفحصه مات وقال :

« لا يزال حيا · ولكن قدرته على التنفس زادت · »

ووقف سميث الجميل على قدميه وجاء مرة أخرى ينظر الى الناب الابيض وقال سكوت :

كم يساوى كلب الزحافة الجيد يا مات ؟ »
وفحص قائد كلاب الزحافة الناب الابيض وهو لا يزال راكعا بجواره وقال :
« ثلثمائة دولار »
وعاد سكوت يسأل من جديد وهو يدفع الناب الابيض بقدمه .
« وكم يساوى كلب الزحافة الذى كاد يؤكل هكذا ؟ »
« نصف ذلك المبلغ »
ووجه سكوت حديثه الى سميث الجميل قائلا .
« هل سمعت أيها السيد الوحش ؟ سآخذ هذا الكلب منك وسأعطيك مائة وخمسين دولارا ثمنا له » .
وفتح كيس نقوده وأخذ يعد الاوراق النقدية .
ووضع سميث الجميل يديه وراء ظهره ورفض أن يلمس المال المعروض عليه وقال .
« لن أبيعه »
وقال له الرجل الاخر مؤكدا .
« بل ستبيعه لانى سأشتريه . خذ هذه هى نقودك وهذا الكلب كلبى »
وأخذ سميث الجميل يتراجع الى الوراء ويداه خلف ظهره .
ووثب سكوت نحوه وأعد قبضته لضربه ومال سميث الجميل جانبا متوقعا وصول اللكمة الى وجهه .
ونهنه قائلا :
« احتفظ بحقى » .
ورد عليه سكوت قائلا
« لقد تنازلت عن جميع حقوقك فى هذا الكلب فهل ستأخذ هذا المال أم أضربك ثانية ؟ »
وأجاب سميث الجميل فى خوف واضح قائلا :
« حسن سآخذ المال وأنا احتج . فالكلب منجم ذهب ولا اسمح لاحد بأن يسلبنى اياه ولكل انسان حقوقه . »
وأجابه سكوت وهو يقدم له النقود قائلا :
« صحيح أن لكل انسان حقوقه . ولكنك لست انسانا بل انت وحش . »
وهدده سميث الجميل قائلا :
« انتظر حتى أعود الى دوسون وسأرفع قضية ضدك » .

« اذا فتحت فمك بعد عودتك الى دوسون طردتك من المدينة ، هل تفهمني ؟ » ·

ورد سميث الجميل بهمهمه غير مفهومة ·

وقال الاخر فى زئير وبوحشية مفاجئة ·

« هل تفهمني ؟ »

ورد سميث الجميل بهمهمة وهو ينكمش قائلا :

« نعم » ·

« نعم ماذا ؟ »

وكشر سميث الجميل عن اسنانه وقال فى شبه زمجرة ·

« نعم يا سيدى » ·

وصاح أحدهم قائلا :

« انتبه ! انه سيعض ! »

وارتفع ضجيج الضحك ·

وأدار سكوت له ظهره وعاد يساعد قائد الكلاب الذى كان يدلك الناب الابيض ·

وأخذ بعض الرجال فى الانصراف ووقف البعض الاخر فى جماعات صغيرة يتطلعون ويتكلمون ·· وانضم اليهم كينان وسأل القوم ·

« من هذا ؟ »

ورد عليه أحدهم قائلا :

« انه ديدون سكوت »

وسأله المقامر ثانية :

« ومن يكون ديدون سكوت هذا بحق الجحيم ؟ »

وجاءه الجواب ·

« انه واحد من الخبراء فى التعدين وهو يعمل مع واحد من كبار الاغنياء واذا أردت السلامة لنفسك كان عليك أن تبتعد عن طريقه واستمع لنصيحتي · انه على صلة بالمسئولين · والمشرف على الذهب صديق حميم له ·

وكان تعليق المقامر على هذا القول :

« لقد خطر ببالى أنه مهم · ولهذا ابعدت يدى عنه منذ البداية ·

الفصل الخامس
الذى لا يقهر

واعترف ديدون سكوت بأنه لا أمل فيه

وجلس على سلم كوخه وحدق النظر فى قائد الكلاب الذى رد على هذه الملاحظة بهزة من كتفه تتضمن معنى القنوط بالمثل .

ونظرا معا الى الناب الابيض فى الطرف البعيد من سلسلته الحديدية المشدودة وهو ينفش شعره ويزمجر فى وحشية وتوتر يحاول الوصول الى كلاب الزحافة وذلك بعد أن تلقى عدة دروس من مات بالعصا ۰ وكانت كلاب الزحافة قد تعلمت أن تترك الناب الابيض وشأنه ۰ وهى وقتئذ راقدة بعيدا عنه وبدا عليها أنها تتجاهل وجوده ۰

وقال ديدون سكوت :

« انه ذئب ولا أمل فى استئناسه »

واعترض مات قائلا :

« لا أعرف شيئا عن ذلك ۰ ربما كانت فيه نسبة كبيرة من الكلب۰ هذا هو كل ما يمكن أن تقوله عنه . ولكن هناك شيئا واحدا أعرفه بصورة مؤكده ولا مفر منه

وصمت قائد الكلاب واشار برأسه الى حبل جلد الغزال فى غموض

وقال سكوت فى حدة بعد أن انتظر وقتا طويلا :

« لا تبخل بما تعرف وقله ۰۰ ما هو ؟ »

واشار قائد الكلاب الى الناب الابيض بظاهر ابهامه وقال

« سواء أكان ذئبا أم كلبا فأنه مستأنس فعلا ۰ »

« كلا »

« صدقنى ففى جسده آثار قيود الزحافة ۰ انظر هنا بامعان الا ترى هذه العلامات على صدره ؟ »

« أنت على حق يامات ۰ كان كلب زحافة قبل أن يستولى عليه سميث الجميل » ۰

« وليس هناك ما يحول دون أن يعود كلب زحافة » ۰

وسأله سكوت بحماس :

« ما رأيك ؟ لقد انقضى أسبوعان على وجوده عندنا ومع ذلك فهو

اشد ضراوة الآن منه في أى وقت مضى . »
واشار مات عليه قائلا :
« اعطيه فرصة واطلق سراحه على سبيل التجربة » .
ونظر اليه الآخر نظرة غير المصدق
واستطرد مات يقول :
« نعم أعرف أنك حاولت .. ولكنك لم تستخدم العصا »
« حاول ذلك أنت الان » .
واحضر قائد الكلاب عصا ومضى نحو الحيـــوان المقيد بالسلاسل وراقب الناب الأبيض العصا كما يرقب الأسد الحبيس سوط مدربه .
وقال مات
« ألا ترى نظرته وهو يوجهها الى العصا ؟ هذه دلالة طيبة . ليس احمق . وهذا هو الذى رسخ فى ذهنى كلما امســكت العصا . ليس مجنونا بالتاكيد » .
ولما اقتربت يد الرجل من عنق النــاب الأبيض نفش هـذا شعره وزمجر وقبع فى مكانه . وبينما كان ينظر الى اليد المقتربة تعقب مسار العصا فى اليد الاخرى وهى معلقة فوقه فى تهديد . وفك مات السلسلة عن طوق الناب الأبيض وتراجع الى الوراء .
ولم يصدق الناب الأبيض أنه أصبح حرا فقد انقضــت عدة اشهر عليه وهو فى اسر سميث الجميل ولم يعرف خلال تلك الفترة أية لحظة استمتع فيها بالحرية الا عند اطلاق سراحه لمقاتلة الكلاب الاخرى وعقب انتهاء قتاله مع كل كلب منها يعاد الى قيده .
ولم يعرف سبب ذلك . ربما كان شرا ارادته الالهة أن تنزله به . ومشى فى بطء وحذر مستعدا لمواجهة أى هجـوم فى أية لحظـة . ولم يعرف ماذا يصنع فالامر كله لم يسبق له مثيل . واتخذ حذره من أن يبتعد عن الالهين اللذين يرقبانه ومشى بحذر الى ناصية الكوخ . ولم يحدث شيء . وظهرت عليه الحيرة ثم عاد ثانية ووقف على بعـد عشرة اقدام ونظر الى الرجلين بامعان .
وسأل سيده الجديد .
« ألا يهرب ؟ »
وهز مات كتفيه وقال :
« لابد لنا من المغامرة فهى الطريقة الوحيدة للاكتشاف » .
وهمهم سكوت فى رثاء وقال

« يا للمسكين ! ان كل ما هو فى حاجة اليه هو اظهار الرحمة الانسانية نحوه » .
ثم استدار سكوت ودخل الكوخ .
وخرج من الكوخ وبيده قطعة من اللحم القى بها الى الناب الأبيض فوثب هذا مبتعدا عنها وأخذ يفحصها من بعيد متشككا فيها
وصاح مات محذرا كلما اخر اقترب منها :
« اياك ياميجور ! »
ولكن التحذير جاء بعد فوات الآوان
كان ميجور قد وثب على قطعة اللحم . وفى اللحظة التى أطبق فكاه فيها عليها ضربه الناب الأبيض وقلبه على الارض واندفع مات نحوهما ولكن الناب الأبيض كان اسرع منه ونهض ميجور مترنحا وقد صبغ الدم المنبثق من عنقه الجليد باللون الاحمر واتسعت رقعة الدم على الجليد .
وقال سكوت على عجل :
« ان الامر غاية فى السوء ولكنه نال ما يستحقه » .
ومد مات قدمه ليركل بها الناب الأبيض . ووثب الناب الأبيض ومضت اسنانه اعرابا عن الدهشة الشديدة . وزمجر بوحشية وهو يتراجع الى الوراء عدة ياردات . وفى هذه الاثناء انحنى مات يفحص ساقه .
وقال وهو يشير الى ماتمزق من سرواله والثياب الداخلية تحته وبقعة الدم الآخذة فى الاتساع :
« لقد أصابنى »
وقال سكوت بصوت اليائس :
« قلت لك يا مات انه لا أمل فيه فقد فكرت طويلا فى أمره وعبثا حاولت الامتناع عن التفكير فيه . ولكننا صرنا الآن الى هذا الامر . وليس لنا الا أن نفعلها .
وبينما كان يتكلم أخرج مسدسه من جيبه وتأكد من حشوه واعترض واعترض مات قائلا :
« اسمع يا مستر سكوت . لقد مر هذا الكلب بتجارب مرة فلا تنتظر منه أن يخرج من هذه التجارب ملاكا ناصعا . اعطه فرصة »
وقال الآخر .
« انظر الى ميجور »
وفحص قائد الكلاب الكلب المصاب الذى سقط على الجليد وسط

دائرة من دمائه وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة وقال :

« لقد قلت بنفسك يامستر سكوت انه نال ما يستحق · حاول أن يأخذ قطعة اللحم الخاصة بالناب الأبيض فمـات · وهذا أمر متوقع · وأنا لا احترم كلبا لا يستطيع الدفاع عن طعامه » ·

« ولكن انظر الى نفسك يا مات · لا بأس فيما يتعلق بالكلبين ولكن يجب أن ترسم حدودا للامور » ·

واجاب مات فى عناد :

« لقد نلت ما استحق · لماذا أركله ؟ ألم تقل بنفسـك انه أحسن صنعا · اذن فلم يكن لى حق فى أن أركله » ·

واصر سكوت على رأيه اذ قال :

« فى قتله رحمة · انه غير قابل للاستئناس » ·

« اسمع يامستر سكوت · اعط المسكين فرصة للمحاولة · وهو لم يمنح مثل هذه الفرصة حتى الآن · لقد اجتاز اختبارا رهيبا هذه هى أول مرة يطلق فيها سراحه · اعطه فرصة فاذا لم يستفد من الفرصـة قتلته أنا بنفسى · هل اتفقنا ؟ » ·

ورد عليه سكوت قائلا :

« الله يعلم أنى لا أريد قتله أو أن أدع غيرى يقتله . وسندعه مطلق السراح وسنرى ماذا تجديه الرحمة · ولنجرب » ·

وأعاد سكوت مسدسه الى مكانه · ومضى نحو الناب الأبيض وأخذ يكلمه فى رقة مهدئا ·

وحذره مات قائلا :

« خير لك أن تصطحب معك عصا » ·

وهز سكوت رأسه واستمر فى محاولته كسب ثقة الناب الأبيض وساور الشك الناب الأبيض · وأحس أن شيئا وشـيك الحدوث بعد أن قتل كلب هذا الاله وعض رفيقه فمـاذا يمكن أن يتـوقع غير العقاب الرهيب ؟ ولكنه ازاء ذلك ظل على جموحه الذى لا يقهر · ونفش شعره وكشف عن اسنانه وارتسـمت اليقظة والانتباه فى عينيـه وفى جسده كله استعداد لاى شىء . ولم تكن بيد الاله عصا ولهذا احتمل منه اقترابه · وامتدت يد الاله واخذت تهبط على رأسه وانكمش الناب الابيض وهو يهبط بنفسه تحت هذه اليد · رأى أن هنـاك خطـرا أو خيانة أو شـيئا من هذا · وهو على علم بأيدى الالهة وسـيطرتها وبراعتها فى الايذاء · وفضلا عن ذلك فهناك عداوته للمسه · وزمجـر زمجرة أكثر تهديدا مع استمراره فى الانحناء ولم يرد أن يعض اليـد

الممتدة نحوه وتحمل خطورتها حتى ثارت فيه غريزته وسيطر عليه حبه الحياة ٠

وكان ديدون سكوت يعتقد أنه سريع الحركة الى حد أنه يستطيع تحاشي أية أصابة من جانب الناب الأبيض ٠ ولكن كان عليه أن يتعلم سرعة الناب الأبيض الملحوظة الذى يضرب بثقة وسرعة الثعبان الملتف حول نفسه ٠

وصاح سكوت بشدة من أثر المفاجأة وأمسك يده الممزقة بأحكام بيده الاخرى وصرخ مات صرخة شديدة ووثب الى جانبه ٠ وقبع الناب الأبيض وتراجع الى الوراء وهو ينفش شعره ويكشف عن انيابه وفى عينيه نظرة خبيثة فيها تهديد ٠ فهو الآن يتوقع ضربا مخيفا فى شدة ما كان يتلقاه من ضرب على يد سميث الجميل ٠

وصاح سكوت على حين فجأة قائلا :

« اسمع ٠٠ ماذا تفعل ؟ »

وكان مات قد اندفع الى داخل الكوخ وخرج منه حاملا بندقية ٠

وقال فى بطء وهدوء يفتعل فيه اللامبالاة ٠

« لا شيء أكثر من أن أفى بوعدى ٠ لقد وعدت بقتله » ٠

« كلا لا تقتله » ٠

« بل ساقتله ٠ انظر » ٠

وكما سبق أن توسل مات مدافعا عن الناب الأبيض حين عضه كذلك فعل ديدون سكوت الآن ٠ فقال :

« لقد طلبت أن نمنحه فرصة ٠ لماذا لا تمنحه أنت هذه الفرصة ؟ أننا لا نزال فى البداية ولا نستطيع أن نتخلى عنه فى البداية ٠٠ لقد استحققت أنا ما وقع بى ٠ والآن انظر اليه ! » ٠

وكان الناب الأبيض عند ناصية الكوخ وعلى بعد أربعين قدما يزمجر بوحشية يقشعر لها البدن لا ناحية سكوت بل ناحية قائد الكلاب ٠

ودهش قائد الكلاب وقال :

« انه سيفترسنى » ٠

« انظر الى ذكائه ٠ انه يعرف معنى الاسلحة النارية كما تعرفه أنت، فيه ذكاء ولابد أن نعطى هذا الذكاء فرصة ٠ دع البندقية جانبا » ٠

وقال مات موافقا :

« حسن ٠ ولا أرى بأسا فى ذلك » ٠

ثم وضع البندقية على كومة الخشب ·
وفى اللحظة التالية قال مات فى دهشة
« انظر اليه الآن ! »
كان الناب الأبيض قد هدأ وكف عن الزمجرة ·
وقال مات :
« ان هذا أمر جدير بالبحث · انظر ! » ·
ومد مات يده نحو البندقية ·· وفى نفس اللحظة زمجر الناب الابيض وابتعد مات عن البندقية وعلى الفور غطت شفتا الناب الابيض أنيابه ·
وقال مات :
« والآن على سبيل المزاح » ·
وامسك البندقية واخذ يرفعها تدريجا الى كتفه · وبدأت زمجرة الناب الأبيض مع بدء ارتفاع البندقية وعلا صوت الزمجرة مع ارتفاع البندقية تدريجا · ولكن قبل أن تصل البندقية الى مستوى التصويب والاطلاق وثب الناب الأبيض جانبا واختفى وراء الناصية · ووقف مات يحدق النظر فى المكان الذى كان الناب الابيض واقفا فيه على الجليد ·
ووضع قائد الكلاب البندقية جانبا فى وقار ثم استدار ونظر الى الرجل الآخر وقال :
« اوافقك يامستر سكوت فالكلب شديد الذكاء بدرجة لا يجوز معها قتله » ·

الفصل السادس
السيد المحبوب

وأخذ الناب الأبيض يرقب ديدون سكوت وهو يقترب منه • ونفش شعره وزمجر معلنا أنه لن يستسلم للعقاب • وانقضت أربع وعشرون منذ أن أحدث جرحا باليد التى تغطيها الضمادات الآن والتى هى معلقة بعنق صاحبها لحفظ الدم من التدفق بها • وقد ألف الناب الابيض فى الماضى تأجيل العقاب وخشى أن يكون قد حان الآن موعد العقاب . وكيف يكون غير ذلك ؟ لقد ارتكب ما يعتبر عنده انتهاكا لحرمة مقدسة ـ بأن غرس أنيابه فى لحم اله مقدس وفضلا عن ذلك فهو اله أبيض البشرة • ومن طبيعة الاشياء وعلى ضوء اتصاله السابق بالالهة فان شيئا رهيبا ينتظره •

وجلس الاله على بعد عدة أقدام ولم ير الناب الأبيض فى ذلك شيئا خطرا فمن عادة الالهة حين ينزلون عقابا أن يقفوا على أقدامهم • وفضلا عن ذلك فليس مع هذا الاله عصا أو سوط أو سلاح نارى ويضاف الى كل هذا أنه هو شخصيا حر غير مقيد بسلسلة أو عصا فهو يستطيع الهرب الى بر الامان فى الوقت الذى يستغرقه السيد فى الوقوف على قدميه والى أن يتم ذلك فلا مانع من أن ينتظر ويرى •

وظل الاله هادئا لا تصدر عنه حركة ما وخفتت زمجرة الناب الأبيض ببطء حتى لم تعد هناك زمجرة • ثم تكلم الاله وعندما سمع الناب الأبيض صوت كلامه نفش شعره واندفعت حشرجة الزمجرة فى حلقه • ولكن الاله لم يأت بحركة عدائية واستمر فى كلامه بهدوء وزمجر الناب الأبيض بعضا من الوقت أثناء كلام السيد متفقا معه فى النغم ولكن الاله لم يكف عن الكلام بل ظل يكلم الناب الابيض على نحو لم يسبق أن كلمه به أحد . تكلم بصوت خافت مهدىء فى رقة لمست مكانا ما فى الناب الأبيض على نحو ما • وبدأ الناب الأبيض يثق فى هذا الاله بالرغم منه ومن التحذيرات اللاذعة من غريزته واحس الامن الذى لم يحسه من البشر فى جميع تجاربه السابقة •

وبعد وقت طويل نهض الاله ودخل الكوخ • وفحصه الناب الابيض فى خوف عند خروجه من الكوخ • ولم يجد معه سوطا أو عصا أو

سلاحا ولم تكن يده السليمة وراء ظهره تخفي شيئا ما • وجلس كما سبق أن جلس وفى نفس المكان على بعد عشرة أقدام • ومد يده بقطعة من اللحم • ونصب الناب الأبيض اذنيه وفحصها فى شك وعمل على أن ينظر فى وقت واحد الى اللحم والى الاله منتبها الى أية حركة قد تحدث وجسده متوتر مستعد للوثب بعيدا عند ظهور أية دلالة على حركة معادية •

وظل العقاب مؤجلا واكتفى الاله بتقديم قطعة اللحم من أنفه ولم يبد على قطعة اللحم شيء يعيبها ومع ذلك ظل الناب الأبيض متشككا وبالرغم من أن قطعة اللحم كانت تدفع اليه فى اغراء فانه رفض أن يلمسها • فالالهة كلها حكمة ودهاء وليس هناك أى دليل على ما عساه يكون هناك من خداع كامن وراء تلك القطعة من اللحم التى لاضير فيها • وعلى ضوء تجاربه الماضية وخاصة مع السناجب كان اللحم والعقاب مرتبطين معا ارتباطا ينطوى على كارثة •

وفى آخر الامر ألقى الاله بقطعة اللحم على الجليد عند أقدام الناب الأبيض • وتشمم قطعة اللحم بعناية ولكنه لم ينظر اليها اذ فى الوقت الذى كان يتشممها فيه ظل محدقا نظره فى الاله ولم يحدث شيء وأخذ قطعة اللحم بفمه وازدردها • ومع ذلك لم يحدث شيء • وكان الاله يعرض عليه فعلا قطعة لحم أخرى ، ورفض للمرة الثانية أن يأخذها من يده والقيت اليه مرة ثانية وتكرر هذا العمل عددا من المرات • ولكن جاء وقت رفض فيه الاله القاء قطعة اللحم اليه بل القاها فى يده عارضا اياها فى نفس الوقت •

وكان اللحم جيدا وكان الناب الأبيض جائعا فاقترب من اليد قليلا قليلا ولكنه ظل خلال ذلك حذرا كل الحذر • وأخيرا جاء الوقت الذى قرر فيه أن يأكل اللحم من اليد ولم يرفع عينيه قط عن الاله وهو يمد رأسه وقد جذب أذنيه الى الوراء ونفش شعره بصورة لا أرادية • وحشرجت زمجرة منخفضة فى حلقه كتحذير بأنه لا تجوز الاستهانة به وأكل قطعة اللحم ولم يحدث شيء • وأكل اللحم كله قطعة قطعة ولم يحدث شيء وظل العقاب مؤجلا •

ولعق أضلعه وانتظر • ومضى الاله يتكلم وفى صوته رقة وهذا أمر لم يكن للناب الأبيض عهد به • وثارت فى أعماقه احاسيس لا عهد له بها • وأحس رضا غريبا معينا كما لو كان قد اشبع حاجة ما • وكما لو أن فراغا ما فى كيانه قد ملىء • وعادت غريزته تدب • وتحذير تجاربه الماضية بأن الالهة ماكرة ولها اساليب لا يمكن التكهن بها لتحقيق أغراضها •

آه ! لقد حدث ما توقعـه فان يد الاله التى تضـمر الاضرار به فى دهاء امتدت نحوه وأخذت تهبط على رأسه ولكن الاله استمر فى الكلام وكان صوته خافتا هادئا • وبالرغم من تهديد اليد كان الصوت يوحى بالثقة • وبالرغم من الصوت المطمئن كانت اليد توحى بعـدم الثقة • ومزقت الناب الابيض المشاعر والدوافع المتناقضة حتى لقد بدا له أنه سيتمزق أربا وقد بلغ الجهد الذى بذله لضبط نفسه مبلغا شديدا وهو فى حيرة شديدة بين التردد غير المرغوب فيه والقوى المتضـــادة التى تتصارع بين جنبيه فى سبيل تغلب بعضها على البعض الآخر •

وتصرف تصرفا وسطا • فزمجر ونفش شـــعره وجذب اذنيه الى الوراء ولكنه لم يفتح فمه ويغلقــه ولا هو وثب مبتعــدا ، وهبطت اليد قليلا قليلا حتى لمست الاطراف العليــا من شـــعره المنتصب ، وانكمش مخفضا رأسه تحتها فهبطت معه وازدادت منه قربا شـيئا فشيئا وهو يزداد انكماشا وانخفاضا ويكاد يرتعش ومع ذلك ظل متماسكا • وكان ذلك عذابا يعانيه من هذه اليد التى تلمســـه وتنتهـــك غريزته • ولم يستطع أن ينسى فى يوم واحد كل الشرور التى الحقتهـا به كل أيدى البشر ولكنها كانت ارادة الاله وعمل على الخضوع لها •

وارتفعت اليـــد وهبطت ثانيـــة ومرت على رأســـه وظهره مهـدئة واستمرت هذه الحركة ولكن كلما ارتفعت اليد عاد شعره الى الانتصاب وفى كل مرة هبطت اليـــد جـذب اذنيـــه الى الوراء وحشرجت زمجـرة مخيفة فى حلقه • وزمجر الناب الابيض وظل يزمجـر محـذرا وبهذه الوسيلة أعلن أنه مستعد للانتقام لكل اذى يلحـق به فلم يـكن يدرى متى يكشف الدافع الظاهرى للاله عن حقيقته • فقد يتحول الصـوت الرقيق الموحى بالثقة الى زئير غضب وتتحـول تلك اليـد المهدهدة الى قبضة شريرة تجعله بلا حول أو قوة وتنزل به العقاب •

ولكن الاله استمر فى كلامه الخافت وظلت يده ترتفـع وتنخفض تربت عليه بلا عداوة وأحس الناب الأبيض أحاسيس مزدوجة • وكان هذا الامر مما لا تستسيغه غريزته فهو يكبح جماحه ويقمع ارادته ويقيد الحرية الشخصية ومع ذلك فهو لا يؤلم جسده بل على عكس ذلك انه سار بصورة طبيعية • وتغيرت حركة الربت فى بطء وبعناية واصبحت عركا للأذنين وقاعدتيهما وزاد الاستمتاع الجسدى قليلا ومع ذلك استمر خوفه واتخذ حـذره وتوقع شرا لا يمـكن التـكهن به وهو يعـانى ثم يستمتع ثم يعانى من جديد طبقا للاحاسيس التى تنتابه على التبادل •

وقال مات وهو خارج من الكوخ مشمرا عن ساعديه وفى يده وعاء ماء قذر :

« حسن ! »
وكف عن الكلام وعن صب الماء القذر اذ رأى ديدون سكوت يربت على ظهر الناب الأبيض .
وفى اللحظة التى شق صـوته فيهـا حجـاب الصمت وثب الناب الأبيض الى الوراء وزمجر فى وحشية .
ونظر مات الى سكوت نظرة تنطق بعـدم موافقته على ما يفعـل ثم قال :
« ان سمحت لى بالاعراب عن احساسى يامستر سكوت فانى اقـول لك ان سـبعة عشر نوعا من الحمقى اجتمعت فيـك وكل نوع منهـا تختلف عن بقية الانواع » .
وابتسم ديدون سكوت ابتسامة تنطق بالتسامى ووقف على قدميه ومضى نحو النـاب الأبيض وكلمه فى تهدئة ولـكنه لم يطل الكلام ثم بسط يده ووضعها على رأس الناب الأبيض واستأنف الربت عليهـا .
وتحمل الناب الأبيض ذلك مبقيا عينيه محددتين وفيهما نظرة الشك لا فى الرجل الذى يربت عليه بل فى الرجل الواقف بعتبة الكوخ .
وقال مات :
« قد تكون فى قمة خبراء التعدين ليس فى هذا شك ولكن فاتتك فرصة العمر عندما كنت صبيا صغيرا فلم تهرب للحاق بسيرك لتعمل به .
وزمجر الناب الأبيض عند سماعه صـوت قائد الـكلاب ولكنه لم يثب فى هذه المرة مبتعدا عن اليد التى تربت عليه .
وكانت هذه هى بداية النهاية للناب الأبيض ـ نهاية الحياة القديمة وحكم الكراهية . وطلوع فجر حياة عادلة . وتطلب تحقيـق هذا من ديدون سكوت كثيرا من التفكير وصبرا لا حد له كما تطلب من النـاب الأبيض ثورة اذ تجاهل حوافز ودوافع الغريزة والعقل وتحدى التجربة وكذب الحياة نفسها .
ولم يكن فى الحياة التى عرفها مكان لما فعله الآن بل كانت جميع تياراتها مضادة للتيارات التى استسلم لها الان . وباختصار اذا أخذت جميع الامور فى الاعتبار فانه عليه أن يلائم بين نفسه وبين ظروفه على نحو أكثر اتساعا من الملاءمة التى حققها عنـدما جاء من البرية وقبـل السمور الأغبر سيدا له . كان وقتئـذ مجرد جرو صـغير حديث عهد بالولادة غض الاهاب لم يتكون له شكل بعد وذا قابلية لأن يقوم أبهـام الظروف بتشكيله أما الآن فان الامر مختلف . فقد أجاد ابهام الظروف

عمله جيدا اذ شكله وجعل مادته صلبة وجعل منه الذئب المقاتل المتوحش الذى لا يرحم ولا يحب ولا يحبه أحد . ويشبه تحقيق هذا التغيير الارتداد فى التكوين وفى وقت لم يعد لمرونة الشباب وجود فيه بعد أن تصلب نسيجه وأصبح خشنا معقدا صلبا وأصبح وجه روحه حديديا وتبلورت غرائزه الاساسية فأصبحت قواعد مقررة هى الحذر والكراهية والرغبة ٠

ومع ذلك ففى هذه الملاءمة الجديدة كان ابهام الظروف هو الذى ضغطه ووخزه ورققه رغم صلابته وأعاد تشكيله فى شكل أرق مما كان عليه ٠ وكان ديدون سكوت فى الحقيقة هذا الابهام الذى تعمق حتى جذور طبيعة الناب الأبيض برقة لمست امكانيات الحياة التى كانت قد وهنت وشارفت الهلاك ٠ وكان الحب واحدا من هذه الامكانيات بعد أن كان مجرد ميل عند اتصاله بالالهة ٠

ولم يأت هذا الحب بين عشية وضحاها بل لقد بدأ ميلا ثم تطور فى بطء حتى أصبح حبا ٠ ولم يهرب الناب الأبيض رغم السماح له بالحرية لانه مال الى هذا الاله الجديد وكانت الحياة معه بالتأكيد خيرا من الحياة التى كان يحياها فى قفص سميث الجميل وانه لمن الضرورى أن يكون له اله ٠ فسيادة الانسان ضرورة فى طبيعته ٠ وقد دمغ بطابع اعتماده على الانسان منذ ذلك اليوم الذى ادار فيه ظهره للبرية وزحف عند قدمى السمور الأغبر ليتلقى الضرب المنتظر ٠ ودفع ثانية بهذا الطابع بصورة غير قابلة للمحو عند عودته الثانية من البرية بعد انتهاء المجاعة الطويلة الامد وعودة السمك الى الظهور مرة أخرى فى قرية السمور الأغبر ٠

وهكذا بقى الناب الأبيض لانه فى حاجة الى اله ولانه فضل ديدون سكوت على سميث الجميل واعرابا عن ولائه أخذ على نفسه حراسة ما يملكه سيده وأخذ يجوب أنحاء المنطقة المحيطة بالكوخ أثناء نوم كلاب الزحافة ٠ وقد اضطر أول زائر ساقته الظروف الى الكوخ ليلا الى استخدام العصا فى ابعاده عن طريقه حتى جاء ديدون سكوت للنجدة ولكنه سرعان ما تعلم الناب الأبيض كيف يفرق بين اللصوص والشرفاء وتقدير القيمة الحقيقية للخطو والسلوك ٠ فأخذ يترك القادم الذى يمشى بخطوات جريئة مسموعة الخطو فى خط مستقيم نحو باب الكوخ وان ظل يرقبه بيقظة حتى يفتح الباب ويلقى تأييد السيد لمثل هذا السلوك ٠ أما الذى يمشى على حذر مخافة أن يسمع وقع اقدامه ويتخذ سبيلا دائريا نحو الكوخ وهو يتلفت فى حذر ينشد الامان فذلك

هو الذى يسرع الناب الأبيض بالحكم عليه ويجعله يمضى فورا وبسرعة وبلا كرامة .

وأخذ ديدون سكوت على نفسه مهمة تعويض الناب الأبيض ـ أو بالاحرى تعويض خطأ البشرية الذى ارتكبته فى حقه . وكانت المسألة عنده مسألة مبدأ وضمير وأحس ان الأذى الذى الحق بالناب الابيض دين فى عنق الانسان ولابد من الوفاء به . وهكذا أخذ على عاتقه أن يمعن فى الرحمة بالذئب المقاتل .. واهتم بأن يربت عليه ويدلله كل يوم وأن يطيل فى ذلك ما شاءت له الاطالة .

وكان الناب الأبيض فى أول الامر متشككا ومعاديا ثم مال الى هذا التدليل ولكن كان هناك شىء لم يتخل عنه وهو الزمجرة . وكان يبدأها منذ اللحظة التى يبدأ فيها التدليل ويظل يزمجر فالزمجرة عند مثل هذا الغريب مظهر من مظاهر وحشيته البدائية التى تهز الاعصاب وتجعل الدم يتجمد فى عروقه . ولكن حلق الناب الأبيض كان قد اخشوشن من أثر الاصوات الوحشية التى كان يصدرها على طول السنوات العديدة التى انقضت منذ أول زمجرة غضب صدرت عنه فى طفولته فى العرين وما كان ليستطيع ان يلطف من خشونة الاصوات التى تصدر عن ذلك الحلق الان للاعراب عن الوداعة التى يحسها الان ومع ذلك كانت اذن ديدون سكوت وعطفه من الرقة بحيث تلتقطان النغمة الجديدة وان غرقت فى هذه الوحشية .. وكانت النغمة مجرد اشارة من نغمة رضا وهذه النغمة هى التى سمعها .

وزاد نمو الميل مع مرور الايام حتى أصبح حبا . وأخذ الناب الأبيض نفسه يدرك هذا التطور وان لم يعرف فى اعماقه ما هو الحب . وظهر فى كيانه على صورة فراغ أو جوع يؤلم أو لهفة تتطلب اشباعها كان ألما وقلقا لا يهدأن الا بلمسة وجود الاله الجديد . وفى مثل هذه الاوقات كان الحب عنده متعة واشباعها قويا شديد الهزة ولكن عندما يكون بعيدا عن سيده يعود اليه الالم والقلق ويزداد الفراغ بين جوانحه اتساعا ويثقل عليه بوطأته وينهشه الجوع ولا يكف عن نهشه .

وكان الناب الأبيض وقتئذ يمر بمرحلة اكتشاف نفسه . فبالرغم من نضجه بما بلغه من أعوام عمره وصلابته الوحشية كانت طبيعته تمر بمرحلة اتساع وكان يحس فى اعماقه مشاعر غريبة ودوافع غير عادية وأخذ قانون سلوكه القديم يتغير . كان فيما مضى يحب الراحة والبعد عما يؤلم ويكره الازعاج والالم فكان يلائم بين أعماله طبقا لهذا

القانون أما الآن فقد اختلف الامر • وبسبب هذا الشعور الجديد فيه أخذ يختار الألم وعدم الراحة من أجل الهه وهكذا أخذ ينتظر ساعات طويلة عند باب الكوخ في الصباح المبكر فيحظى بنظرة من السيد بدلا من التجول والبحث عن الطعام أو الرقود فى مأوى ظليل • وفى الليل عندما يعود الاله يترك الناب الأبيض مكان نومه الدافىء الذى حفره فى الجليد ليتلقى فرقعة الاصابع الودية وكلمة التحية • بل لقد كان يغفل اللحم حتى اللحم نفسه فى سبيل أن يكون مع الهه ليتلقى لمسة منه أو يصحبه الى المدينة •

وحل الحب محل الميل وغاص الحب فى اعماق قلبه على نحو لم يسبق له مثيل ومن هذه الاعماق صعدت الاستجابة وهى الشىء الجديد• الحب • وما قدم له رد مثله • كان هذا الها حقيقيا • اله الحب انه اله مشرق دافىء اتسعت طبيعة الناب الأبيض فى ضوئه كزهرة تتمدد فى ضوء الشمس •

ولكن الناب الأبيض لم يكن يجيد الاعراب عن الحب فهو اكبر سنا من ذلك • تجمد شكله فلم يعد ماهرا فى الاعراب عما بنفسه بطرق جديدة • واحساسه بالذات كبير ويشعر بالراحة فى العزلة وطال عهده بتنمية روح العزلة فيه ولم يسبق له أن نبح كما تنبح الكلاب فليس الان مستطيعا أن يتعلم النباح ترحيبا بمقدم الاله . وليس متطفلا أو مسرفا أو احمق فى الاعراب عن حبه وهو لا يجرى قط لمقابلة الهه بل ينتظر من بعيد • ولكنه ينتظر دائما وهو موجود دائما • واتسم حبه بطابع العبادة الصامتة والاعجاب الصامت • ولم يعرف عن حبه بأكثر من النظرة الثابتة فى عينيه وبتعقب كل حركة تصدر عن آلهه بعينيه بصفة مستمرة وكذلك عندما ينظر اليه الهه ويكلمه يكشف عن شعوره بالذات نتيجة لنضال حبه فى سبيل الاعراب عن نفسه ضد عجزه البدنى عن مثل هذا الاعراب •

وتعلم كيف يلائم بين نفسه وهذه الطريقة الجديدة للحياة بعدة طرق • فحرص على أن يدع كلاب سيده وشأنها ومع ذلك فقد آكدت طبيعته الغالبة نفسها واضطر فى أول الامر الى اكراهها على الاعتراف بتفوقه وزعامته • وبعد أن تم له هذا لم يلق منها أية متاعب فكانت تتبعه كلما جاء وكلما ذهب أو مشى بينها حتى اذا آكد ارادته أطاعته •

وعلى نفس النحو احتمل مات على أنه ملك لسيده • ومن النادر أن يطعمه سيده بل مات هو الذى يطعمه ــ فهذه هى مهمته ومع ذلك فان الناب الأبيض استنتج أن ماياكله انما هو طعام سيده وأن سيده هو

الذى يطعمه عن طريق نائبه ولقد حاول مات تقييده بالزحافة مع الكلاب الاخرى ويجعله يشترك معها فى جرها ولكنه فشل فى ذلك • حتى اذا قام ديدون سكوت بقيده بالزحافة قبل ذلك مع أن سيده يريد أن يقوده مات كما يقود الكلاب الاخرى الخاصة بالسيد •

وزحافات كلونددايك تختلف عن زحافات ماكنزى فان كلابها لا تمشى فى صورة مروحة بل تسلك فى خيط واحد وتسير صفا واحدا وزعيم الكلاب فى كلونددايك زعيم حقيقى . فالزعيم هو أقوى هذه الكلاب واكثرها حكمة وفريق الكلاب يدين له بالطاعة كما أنه يخشاه • وكان وصول الناب الأبيض الى هذا المركز أمرا محتوما فما كان من الممكن ارضاؤه بما هو دون ذلك كما تعلم مات بعد كثير من الازعاج والتعب وكان الناب الأبيض هو الذى اختار بنفسه هذا المركز لنفسه وأيد مات هذا الحكم بعد أن قام بالتجربة • وان كان الناب الأبيض يعمل فى جر الزحافة نهارا الا أنه لم يتخل عن حراسة متاع سيده ليلا وبهذا كان طول الوقت يؤدى واجبه دائم اليقظة والولاء وبهذا كان أعلى الكلاب قيمة •

وقال مات ذات يوم :

« اذا كانت فى حرية الأعراب عما بنفسى فانى أقول لك أنك كنت غاية فى الحكمة عندما اشتريت هذا الكلب ودفعت ثمنه لسميث الجميل بعد أن لكمته فى وجهه » •

وظهر وميض الغضب فى عينى ديدون سكوت وتمتم بوحشية

« يا له من حيوان »

وفى أواخر فصل الربيع عانى الناب الابيض مشكلة كبرى اذ اختفى السيد المحبوب فجأة وبدون انذار • كان هناك انذار ولكن الناب الأبيض لم يكن يدرك مثل هذه الامور ولم يفهم سر هذه الحقائب وتذكر فيما بعد أن مثل هذا الحزم يسبق اختفاء السيد أما فى هذه المرة الاولى فأنه لم يشك فى شىء • وفى تلك المرة الاولى انتظر طول الليل عودة السيد وعند منتصف الليل دفعته الريح الباردة التى هبت وقتئذ الى أن ينشد مأوى عند ظاهر الكوخ • وغلبه النعاس وظل بين اليقظة والنوم واذناه مرهفتان لالتقاط أدنى صوت لوقع الخطى المألوف حتى اذا دقت الساعة الثانية صباحا أخرجه قلقه من مأواه ودفعه الى الباب الامامى حيث قبع وانتظر •

ولكن السيد لم يحضر • وفى الصباح فتح الباب وخرج مات منه وحدق الناب الأبيض النظر فيه باهتمام كبير ولم تكن هناك لغة مشتركة

يمكن أن يعرف بها ما أراد معرفته • وجاءت الايام ومضت ولكن السيد لم يجيء • ومرض النـاب الأبيض وهو الذى لم يعـرف المرض قط فى حياته • واشتد عليه المرض الى حد اضطر مات معه الى أن يدخله الكوخ وعندما كتب مات رسالة الى ديدون سكوت كرس صـــفحة كاملة منها للناب الأبيض •

وقرأ ديدون سكوت الرسالة فى مدينة « سبركل » حتي وصل الى هذه الفقرة •

« ان ذلك الذئب الملعون لا يعمل ولا يأكل ولم تعد له همة وجميـع الكلاب تلعقه وهو يريد أن يعرف ماذا صار اليه أمرك ولا أعرف كيف أرد عليه •• ومن المحتمل أن يكون فى طريقه الى الموت » •

وكان الامر كما قال مات ، فان الناب الأبيض كف عن الاكل وفترت همته وسمح لكل من فى فريقه بضربه • ورقد فى الـكوخ على الارض بجوار الموقد دون أدنى اهتمام بالطعام أو بمات أو بالحياة نفسها سواء لديه ان كلمه مات برقة أم سبه ولعنه فهو فى الحالين لا يفعل أكثر من أن ينظر اليه نظرته الكئيبة ثم يخفض رأسه الى حيث كانت فوق ساقيه الاماميتين الممتدتين أمامه •

وفى ذات ليلة كان مات يقرأ وشفتاه تتحركان وتصدران أصواتا مبهمة فاذا به يفاجأ بنهنهة من النـاب الأبيض الذى كان قد وقف على اقدامه وأرهف أذنيه نحو الباب وأنصت باهتمام • وبعد دقيقة واحدة سمع مات وقع خطوات وفتح الباب ودخل ديدون سكوت وتصـــافح الرجلان ثم تطلع ديدون سكوت فى أنحاء الغرفة • وسأل :

« أين الذئب ؟ »

ثم رآه واقفا حيث كان راقدا بالقرب من الموقد ولم يندفع نحـوه كما تفعل الكلاب الاخرى بل وقف يرقب وينتظر •

وقال مات :

« يا الله ! انظر اليه ! انه يهز ذيله ! »

وسار ديدون سكوت نحوه وهو يناديه وجاء النـاب الأبيض اليـه لا وثبا كعادته ولكنه مع ذلك جاءه مسرعا • وارتسم تعبير غريب فى عينيه وهو يقترب من سيده فقد أضاءهما شعور لا يمكن توصيله .

وعلق مات على ذلك بقوله :

« لم ينظر الى قط على هذا النحو منذ أن رحلت » •

ولم يسمع ديدون سكوت ما قاله مات فقد كان جالسا على عقبيـه

فى مواجهة الناب الأبيض وهو يدلله ويعرك قاعدتى أذنيه ويمر بيده على ظهره فى رقة • وزمجر الناب الأبيض مستجيبا للمسات العطف والحنان وفى الزمجرة رنة الحب •

ولكن الامر لم يقتصر على هذا بل كانت هناك فرحة الحب الكبير الذى يغمر جوانحه وهو يتدفق ويندفع للتعبير عن نفسه فهل وجد طريقة جديدة لهذا التعبير ؟ لقد دفع رأسه فجأة الى الامام ودسها بين ذراع السيد وجسده واختبأت رأسه عن الانظار فيما عدا اذنيه وكف عن الزمجرة واستمر فى دفع رأسه •

ونظر كلا الرجلين الى الآخر • ولمعت عينا سكوت •

وقال مات بصوت خافت فيه خوف

« يا الهى ! »

وبعد أن أفاق قال :

« لقد كنت اصر دائما على أن هذا الذئب كلب • انظر اليه ! »

وعجلت عودة سيد الحب بشفاء الناب الأبيض • وقضى يوما وليلتين فى الكوخ ثم بارحه • وكانت كلاب الزحافة قد نسيت قوته ولم تعد تذكر سوى صورته فى ضعفه ومرضه • وحالما رأته يبرح الكوخ وثبت عليه •

وتمتم مات فى مرح قائلا وهو واقف بالباب يتطلع الى ما يجرى أمامه •

« أدبها أيها الذئب •• أدبها !! » •

ولم يكن الناب الأبيض فى حاجة الى تشجيع اذ كانت عودة السيد المحبوب كافية لان تعود الحياة دفاقة فيه رائعة لا تغلب وقاتل بدافع البهجة وهو يجد فى القتال تعبيرا عن بعض ما يحسه اذ لم يستطع التعبير عنه بالكلام وما كانت هناك سوى نهاية واحدة اذ تفرق فريق الكلاب فى هزيمة مشينة ولم تظهر الكلاب الا بعد أن اقبل الظلام • جاءت متلصصة الواحد منها فى أثر الآخر فى ذلة وخضوع معلنة بذلك ولاءها للناب الأبيض •

وبعد أن تعلم الناب الأبيض كيف يستكن تحت ذراع سيده أكثر منها فكانت القول الفصل ولم يستطع أن يتجاوزها • فرأسه أهم ما يحرص عليه دائما وكان يكره أن يلمسها أحد • وكانت هذه هى الناحية الباقية فيه من حياة البرية ناحية الخوف من الاذى والحرص من الفخاخ تلك الناحية التى تثير فيه الذعر وتدفعه الى تحاشى

الاتصال . وكان حكم غريزته أن يبقى رأسه حرا والآن مع سيد الحب كان هذا العمل يقوم به متعمدا بوضع نفسه في وضع لا يكون له فيه حول أو قوة فكان تعبيرا عن الثقة الكاملة والاستسلام المطلق كما لو كان يريد أن يقول

« أني اضع نفسي بين يديك فافعل بي ما تشاء » .

وفي ذات ليلة جلس سكوت ومات يلعبان الورق قبل أن يأويا الى فراشيهما اذ سمعا صرخة مدوية وصوت زمجرة وتبادلا النظرات وهما ينهضان واقفين .

وقال مات :

« لقد أصاب الذئب أحدا ما » .

ودفعهما الى الاسراع سماعهما صيحة خوف شديد وألم

وصاح سكوت وهو يثب الى الخارج

« هات مصباحا » .

وتلاه مات وبيده مصباح وعلى ضوء المصباح رأيا رجلا راقدا على ظهره فوق الجليد . وقد عقد ما بين ذراعيه على وجهه وعنقه . وعلى هذا النحو كان يحاول أن يحمي نفسه من اسنان الناب الأبيض . وكان في حاجة حقيقية الى هذا . فقد كان الناب الأبيض هائجا يهاجم اشد مواقع الجسم تعرضا للهجوم . وكان قد مزق ثياب الرجل ابتداء من كتفه حتي معصمه ومن كتفه حتي وسطه . كما كانت ذراعا الرجل نفساهما قد أصيبتا بجراح وقطوع طويلة والدم ينبثق منها .

ورأى الرجلان كل هذا في لحظة واحدة وفي اللحظة التالية امسك ديدون سكوت بعنق الناب الأبيض وجره بعيدا وحاول الناب الأبيض التخلص من قبضة سكوت ولكنه لم يحاول أن يعضه بل هدأ على الفور عندما صاح فيه سيده يأمره بالسكون .

وساعد مات الرجل في الوقوف على قدميه . وفي أثناء قيامه انزل ساعديه عن وجهه فظهر وجه سميث الجميل الوحشي . وتركه قائد الكلاب على الفور كما لو كان قد أمسك نارا . ورمشت عينا سميث الجميل في ضوء المصباح وتلفت حوله ورأى الناب الأبيض وارتسم الرعب على وجهه .

وفي نفس اللحظة رأى مات شيئين ملقيين على الجليد . وقرب المصباح منهما واشار اليهما بطرف قدمه .. كانا سلسلة كلاب من الصلب وعصا غليظة .

ورأى ديدون سكوت ذلك وأوما برأسه • ولم يقل أحد كلمة بل وضع قائد الكلاب يده على كتف سميث الجميـل وأداره الى النـاحية الاخرى لم تكن هناك حاجة الى الكلام وبدأ سميث الجميل يمشى .

وفى أثناء ذلك كان سيد الحب يربت على الناب الأبيض ويكلمه :

« هل حاول أن يسرقك ؟ ولم ترض انت عن ذلك • حسن • حسن لقد اخطأ •• اليس كذلك ؟ » •

وقال سائق الكلاب ساخرا :

« لابد أن يكون الذى خطر بباله أن سبعة عشر شيطانا هاجمته ! »

وظل الناب الأبيض نافشا شعره مزمجرا ومزمجرا • وأخذ الشعر يهدأ وينسدل على جسده . وبدت نغمة الحب تظهر خافتة بعيدة جدا فى هذه الزمجرة ومع ذلك بقيت الزمجرة مستمرة ونغمة الحب تزداد قوة فيها .

رقم الايداع : ٣٣١٦ / ١٩٩٠

روايات الهلال تقدم

أولنا ولد

بقلم

خيرى شلبى

تصدر : ١٥ مايو سنة ١٩٩٠

هـــذه الروايـــة

أجمل الحكايات دائما ... هى تلك التى صبغت على الحيوانات مشاعر انسانية سامية ..

ولعل هذه السمة رفعت بعض الكتاب الى أعلى الدرجات مثلما حدث مع روديارد كيبلنج وجاك لندن .

والناب الابيض هو ثمرة علاقة حب قوية نمت بين كلب وذئب عاشا فوق الجليد فكانت علاقتهما الدافئة سببا فى ذوبان كل الجليد .. وقد وجد «الناب الابيض» نفسه يبحث عن المعيشة بعيدا عن عالم الحيوانات الذى ألفه . مؤمنا أن الحياة بين العشيرة الانسانية افضل بكثير منها فى الغابة الجليدية .

ياله من مخلوق مسكين ذلك الناب الابيض المتوحش .. فهل يمكن أن يجد لدى العشيرة الانسانية ذلك الدفء الذى اعتاده فوق الجليد .. ؟

حول هذا العالم الجذاب . والجميل . تدور احداث هذه الرواية المليئة بأعمق المشاعر الانسانية التى اكسبها جاك لندن الى حيوانه الخليط .. وتركه يواجه مصيره .

ترى كيف سيواجه «الناب الابيض» مصيره .. ؟

وكيف ستدوم به الحياة بعيدا عن الجليد ؟

فى هذه الرواية اجابات لعشرات من هذه الاسئلة



جاك لندن

- كاتب امريكى من رواد الحركة الادبية المعاصرة عاش فى الفترة بين عامى ١٨٧٦ و ١٩١٦
- عمل بحارا وراح يجوب البحار والارض باحثا عن الذهب والمغامرة .. ثم ترك البحر كى يعمل بالصحافة .
- الف العديد من الروايات عن الحيوانات والبشر الذين يعيشون فى القطب الشمالى .. ومن أهم هذه الروايات «القط الأسود» و «ابن الذئب» .. و« ابنة الثلوج » و « ذئب البحر » .
- يعتبر أحد الكتاب الأكثر شعبية لدى القارىء الامريكى . وترجمت رواياته الى العديد من اللغات . وترجمت إلى اللغة العربية روايته «القدم الحديدية» التى ناصر فيها حقوق العمال ..


سانتو ٢٠٠٠
مسحوق معطر لغسل
ويطهر لجميع
أنواع الغسيل
سانتو
٢٠٠٠
إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون


EGYPTAIR
مصر للطيران